



عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

شعر ابن حبيب الحلبيّ (ت779هـ): دراسة موضوعيّة وفنيّة

نجية محمود عودة عسكر

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1441هـ - 2019م

شعر ابن حبيب الحلبي (ت779هـ): دراسة موضوعية وفنية

إعداد

نجية محمود عودة عسكر

بكالوريوس لغة عربية - من جامعة القدس المفتوحة / رام الله - فلسطين

المشرف: د. محمد يوسف إبراهيم بنات

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من
كلية عمادة الدراسات العليا في جامعة القدس

1441هـ - 2019م



جامعة القدس
عمادة الدراسات العليا
برنامج اللغة العربية وآدابها

إجازة الرسالة

شعر ابن حبيب الحلبي (ت779هـ): دراسة موضوعية وفنية

اسم الطالب: نجية محمود عودة عسكر

الرقم الجامعي: 21512758

المشرف: د. محمد يوسف إبراهيم بنات

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 2019/09/14م من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتواقيعهم:

التوقيع:
التوقيع:
التوقيع:

1. رئيس لجنة المناقشة: الدكتور محمد بنات
2. ممتحناً داخلياً: الأستاذ الدكتور مشهور الحبازي
3. ممتحناً خارجياً: الدكتور عمار عبد القادر شبلي

القدس - فلسطين

1441هـ - 2019م

الإهداء

إلى والدتي ... التي لم يسكن لها جفن وهي تدعو لي

إليها... وهي تزرع في دربي أزهار التفاؤل والأمل

إليكم يا مَنْ وقفتم إلى جانبي ... ردّ بعض جميل أمتنّ به لكم

أبي... إخوتي... أخواتي

إلى مَنْ منحني الثقة بالنفس والصبر على مصاعب الحياة القابع في سجون الاحتلال
"جمال رجوب"

إلى كلّ مَنْ يبعث الأمل والابتسامة، وإلى كلّ مَنْ مدّ يد العون والمساعدة

إلى كلّ هؤلاء أقدم عصارة فكري ومداد قلّمي

إقرار

أقر أنا مُعدّة هذه الدّراسة بأنّها قدّمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وأنّها نتيجة أبحاثي الخاصّة، باستثناء ما تمّ الإشارة إليه حيثما ورد، وأنّ هذه الدّراسة أو أي جزء منها لم يقمّ لنيل أي درجة عليا لأيّ جامعة أو معهد آخر.

التّوقيع:.....

نجية محمود عودة عسكر

التّاريخ: 2019/09/14م.

الشُّكر والتَّقدير

أجمل آيات الشُّكر والعرفان والامتتان، للذي قدّم النُّصح والإرشاد منذ اللَّحظة الأولى لاختيار موضوع الرِّسالة، فأشرف عليها بكلِّ تفاصيلها، وكان نعم الموجّه والمرشد

والهادي الدكتور محمد بنات

وأ تقدّم بالشُّكر الوافر والثناء العاطر للدّكتورة بنان صلاح الدّين

رئيسة دائرة اللُّغة العربيّة

وأزجي شكري وتقديري إلى عضوي لجنة المناقشة لتفضّلها

بقراءة هذه الرّسالة ومناقشتها

وأتوجّه بجزيل الشُّكر العرفان إلى العاملين في مكتبة بلدية البيرة

على دورهم الفاعل في مساعدتي المتواصلة لاستكمال هذه الرّسالة

المُلخَص:

تبحث هذه الرسالة في شعر ابن حبيب الحلبي، الذي عاش في العصر التُّركي في الفترة ما بين (710هـ-779هـ)، وبذلك فإنَّ الحدود المكانية لهذه الدراسة تنحصر في دراسة شعر هذا الشاعر دراسة موضوعية وفنية، وقد نهد إلى جمعه وترتيبه حسن محمد عبد الهادي عيسى.

وقد قامت هذه الدراسة على شعر ابن حبيب من الناحيتين: الموضوعية والفنية، وتمَّ تناول أغراض شعر الشاعر مُرتبة حسب كمِّها، وجاءت على النحو الآتي: المديح النبوي، والمديح الإنساني، والرثاء، والإخوانيات، والوصف، والغزل، والخمریات، والزهد، ثمَّ الاتجاهات التجديدية. ثمَّ درست شعره من ناحية فنية، فدرست لغته، ورصدت أهمَّ الظواهر الفنية التي امتاز بها أسلوبه، وبيَّنت مواطن الجمال في أشعاره ورصدت ألوان الصور الفنية التي برزت فيه بحيث شكَّلت ظاهرة لافتة للنظر، وفي المقام الأخير تحدَّثت عن الموسيقى الشعرية.

إنَّ ما دفعني للبحث في شعر هذا الشاعر، هو ملاحظتي لعدد من الأسرار الجمالية في شعر ابن حبيب بعد أن اقترحه عليَّ الدكتور المشرف، وبقيني -في حدود ما توصَّلت إليه من بحث- بأنَّ هذا النوع من الدراسة لم يسبق أن قام به أحد، وقد تأكَّدت من ذلك من خلال سؤال المختصين في مضمار الأدب في ذلك العصر.

لقد اتَّبع في هذه الدراسة المنهج التكاملي في البحث، فأفدت من المنهج التاريخي في الوقوف على أبرز الحوادث التي نظم فيها الشاعر، واتَّبع المنهج التحليلي في الدراسة الموضوعية من خلال الوقوف على الأغراض التي انتخبها وشكَّلت ظاهرة لدى الشاعر، والمنهج الجمالي أفادني في الكشف عن جماليات النصوص، والمنهج الإحصائي في حديثي عن البحور الشعرية وتكرارها في شعره المجموع.

وقد توصَّلت في نهاية الدراسة إلى أنَّ المديح النبوي احتلَّ جزءًا غير يسير من شعر ابن حبيب، فوصف الطبيعة، ومرَّد ذلك إلى جمال البيئات التي تردَّد شاعرنا وبخاصة بينتي مصر والشَّام، كما أنَّه شاعر مكثَّر في المديح النبوي.

Ibn Habeeb Al-Halabi poetry objective and artistry study

Prepared by: Najeyya Askar

Supervisor: Dr. Mohammed Banat

Abstract

The present research examines ibn Habeeb al-Halabi's poetry who lived during the Ottoman rule (779 -710 Hijri). The study is limited to painstakingly studying ibn Habeeb al-Halabi's poetry, artistry-wise and thematically. The collected poems has been selected and organised by Hassan Mohammad Abed el-Hadi Issa.

The study looks at the poetry in terms of artistry and themes; moreover, the purposes of the poetry has been dealt with and organised according to its sheer quantity as follows: poetry of eulogy for Prophet Mohammed, human eulogy, *ritha'* (melancholy), *ikhwanyyat* (brotherhood), description, love, wine and asceticism. The study also shows the modernity and artistry of his poetry. The language and style of the poetry are carefully studied as well. The revealing figures of speech in the poetry are also meticulously scrutinised and the composed poems in traditional metres and rhyme schemes are finally inspected.

The purpose beyond the study lies in the aesthetics in his poetry which, to my best knowledge, no attention has been paid for. In terms of the methodology of the study, an integrative approach has been employed for the purpose of the study, comprising: (1) a historical approach whereby some historical events that were conducive to the composing of the poems are dealt with; (2) an analytical approach helps to objectively study his poetry taking into consideration the true purposes of the poetry; (3) an aesthetics approach is utilised to show the aesthetic aspects of his poetry; and (4) a statistical approach is used to show the metres and their frequencies in the poetry.

Finally, the study concludes that the poet wrote a great deal of eulogy for Prophet Mohammed poetry which *per se* comprises a great part of his poetry. The study also concludes that the poet beautifully describes nature due to its remarkable beauty, especially in Egypt and Syria, two of which are the countries he used to travel to.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، أبدأ بشكر الله الواحد المنان إذ وقّفتني في اختيار موضوع من العصر التركيّ في الفترة الممتدّة بين (648هـ-784هـ)، والذي يتناول الشّاعر الحسن بن عمر بن حبيب، الذي عاش في حلب أيام الدّولة التركيّة في الفترة الواقعة بين (710هـ-779هـ). وجاء تحت عنوان "شعر ابن حبيب الحلبيّ (ت779هـ): دراسة موضوعيّة وفنيّة".

وتتبع أهميّة البحث من كونه يتطرّق لموضوع لم يدرس من قبل، إذ تبيّن لي من خلال البحث والتّقصّي في الجامعات المحليّة والعربيّة، أنّه لم يقدم أحد على دراسة شعره، باستثناء الجهد الذي بذله جامع الشّعْر حسن محمد عبد الهادي عيسى في عمليّة جمع شعره من مختلف المظانّ، وإخراج شعره المجموع في كتابٍ خاصّ، ووسمه بـ "ديوان الإمام المؤرّخ الأديب ابن حبيب الحلبي"، وصدّره بمقدّمة تناول فيها سيرة ابن حبيب دون أن يدرس شعره.

وقد اخترت هذا الموضوع لأسباب عدّة لعلّ أبرزها: تنوّع الأغراض الشعريّة التي طرقها الشّاعر، إضافة إلى إشادة نفرٍ من معاصريه بشعره وبشاعريّته، كما أنّ كثيراً من أشعاره يُرسم لوحة للحياة الاجتماعيّة في عصره. يضاف إلى ذلك الرّغبة الجادّة في تقديم دراسة موضوعيّة وفنيّة شاملة ومفصّلة لشعره.

وتكوّن البحث من فصلين رئيسيين مسبوقين بتمهيدٍ عرضت فيه بشكل موجز لسيرة ابن حبيب من حيث: اسمه ولقبه وكنيته ونسبه ومولده وصفاته وأسرته وشيوخه ورحلاته ووظائفه وآثاره وصلته بمؤرّخي عصره ومكانته العلميّة ووفاته.

واشتمل الأوّل على دراسة فنون ابن حبيب الشعريّة التي نظم فيها، وقد ربّنتها حسب الكمّ على النّحو الآتي: المديح النبويّ، والمديح الإنسانيّ، والرّثاء، والإخوانيّات، والوصف، والغزل، والخمريّات، والرّهد، وأخيراً الاتّجاهات النّجديّة، وغيرها من الموضوعات التي نظم فيها بنسب ضئيلة جدّاً.

أمّا الفصل الثّاني، فقد تناولت فيه دراسة لغة ابن حبيب وأسلوبه وخياله والموسيقى، ففي اللّغة بحثت عن روافد اللّغة عنده، كاشفة مدى ارتباطها بشعر القدماء من جهة، ومدى ملاءمتها للغة عصره من جهة أخرى. وفي الأسلوب أظهرت السّمات الأسلوبية التي ميّزت ابن حبيب، إذ إنّه كان يميل إلى السّهولة في كثير من مقطوعاته وقصائده، كما كان مولعاً بتوظيف فنون البديع جرياً على مذهب شعراء العصر، وكذلك شغفه بالتّضمين والاقْتباس والتّوجيه، وأسّرت إلى أهمّ الظواهر الأسلوبية التي لفتت انتباهي خلال دراسة شعره.

وفي الحديث عن الخيال، حاولت كشف الصّور التّقليدية لديه، إذ استمدّ بعضها من التّراث، وبعضها الآخر من البيئة التي عاش فيها، ووقفت على الصّور المبتكرة عنده بغية إظهار قدراته على خلق صور جديدة وعدم الاكتفاء بالتّقليد. وبالوقوف على موسيقاه أسّرت إلى البحور التي أكثر من استخدامها والنّظم عليها، وكذلك الحديث عن الموسيقى الدّاخلية والخارجية عنده.

وقد استوى هذا البحث باعتماد المنهج التّكاملي، فأفدت من المنهج التّاريخي في الوقوف على أبرز الحوادث التي نظم فيها الشّاعر، ووقفت على أبرز الظواهر التي استرعت انتباه شاعرنا، وفي الدّراسة الموضوعية أفدت من المنهج التّحليلي في تحليل العيّنة من النّماذج التي انتخبناها لأغراض الشّعر التي طرقها الشّاعر، واستعنت بالمنهج الجمالي في الكشف عن جماليّات النّصوص، أمّا المنهج الإحصائي فوظفته في حديثي عن البحور الشّعريّة وتكرارها في ديوانه المجموع.

وفي الختام لا يسعني إلاّ أن أتقدّم بجزيل الشّكر وعظيم الامتنان إلى الدّكتور محمد بنات المشرف على هذا البحث، فلم يألُ جهداً تقديم العون والمساعدة بكلّ الوسائل، فقدم التّوجيهات المفيدة والملاحظات القيّمة التي حرصت على الأخذ بها والإفادة منها، فله منّي كلّ شكر وتقدير، والله أسأل أن يبقيه لنا ذخراً، ولطلبة العلم هادياً ومرشداً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

الفصل الأول

سيرة ابن حبيب

أولاً : اسمه وكنيته ولقبه

ثانياً : نسبه ومولده

ثالثاً : صفاته

رابعاً : أسرته

خامساً : شيوخه

سادساً : رحلاته .

سابعاً : وظائفه

ثامناً : آثاره المخطوطة والمطبوعة

تاسعاً : صلته بمؤرخي عصره

عاشراً : مكانته العلمية وآراء العلماء فيه

سيرة ابن حبيب الحلبي

أولاً: اسمه⁽¹⁾

تتفق جميع المصادر التي ترجمت له على أنّ اسمه هو الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، وقد

أضاف بعضها "ابن شويخ بن عمر"⁽²⁾.

– كُنْيَتُهُ وَلَقَبُهُ

كانت للشاعر كنيّتان هما: "أبو مُحمَّد"، و"أبو طاهر"⁽³⁾، وكان يلقب بدر الدّين⁽⁴⁾.

– نَسْبُهُ

اشتهر ابن حبيب بنسبته إلى حلب، فهو حلبيّ المولد، دمشقيّ الأصل، شافعيّ المذهب⁽⁵⁾.

ثانياً: نسبه مولده

ولد ابن حبيب في دمشق في جمادى الآخرة سنة 710هـ⁽⁶⁾.

(1) ينظر: ابن فضل الله العمري، ذهبية العصر ص314-315، الزركشي، عقود الجمان، ق101، المقرئزي، درر العقود الفريدة 14-13/2، العسقلاني، إنباء الغمر، 162/1، ابن قاضي شهبة، طبقات الفقهاء الشافعية 162/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 189/11، الغزي، ديوان الإسلام 258/2، جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية 187/3، الزركلي، الأعلام 208/2، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (10-11) 136-138، حسن محمد عبد الهادي، ديوان ابن حبيب 9-11.

(2) ابن فضل الله العمري، ذهبية العصر، ص214، الصفدي، أبحان السواجع، 9/1، ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر 162/1.

(3) ينظر: ابن فضل الله العمري، ذهبية العصر 314-315، الزركشي، عقود الجمان ق101، المقرئزي، درر العقود الفريدة 14-13/2، العسقلاني، إنباء الغمر 162/1، ابن قاضي شهبة، طبقات الفقهاء الشافعية 162/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 189/11، الغزي، ديوان الإسلام 258/2، جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية 187/3، الزركلي، الأعلام 208/2، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (10-11) 136-138، أ.د. حسن محمد عبد الهادي، ديوان ابن حبيب 9-11.

(4) ينظر: المقرئزي، درر العقود الفريدة 14-13/2، العسقلاني، إنباء الغمر 162/1، ابن قاضي شهبة، طبقات الفقهاء الشافعية 162/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 189/11، الغزي، ديوان الإسلام 258/2، جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية 187/3، الزركلي، الأعلام 208/2، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (10-11) 136-138، أ.د. حسن محمد عبد الهادي، ديوان ابن حبيب 9-11.

(5) ينظر: ابن فضل الله العمري، ذهبية العصر 314-315، الزركشي، عقود الجمان ق101، المقرئزي، درر العقود الفريدة 14-13/2، العسقلاني، إنباء الغمر 162/1، ابن قاضي شهبة، طبقات الفقهاء الشافعية 162/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 189/11، الغزي، ديوان الإسلام 258/2، جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية 187/3، الزركلي، الأعلام 208/2، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (10-11) 136-138، أ.د. حسن محمد عبد الهادي، ديوان ابن حبيب 9-11.

(6) ابن فضل الله العمري، ذهبية العصر، ص314.

(6) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة 599/3.

ثالثاً: صفاته

جاء في جملة صفاته الخُلقية، أنه كان دَمِثَ الأخلاق، كريم النفس والأعراق، حَسَنَ المُحاضرة، جميل المُذاكرة والمُناظرة، قليل الكلام فيما لا يعنيه، كثير المكارم، جزيل الإغضاء عن الإساءة، غضيض الطُرف عن المحارم⁽¹⁾.

رابعاً: أُسرته

ينتمي ابن حبيب إلى أسرة عريقة، حرص أبناؤها على طلب العلم وتوارثه، وتنقلوا في عدد لا بأس به من المناصب الرفيعة في الدولة، وتصدروا للتدريس والإقراء، ووضعوا المصنّفات الجليلة في مختلف العلوم، بالإضافة إلى صلتهم برجال الدولة وأدباء العصر.

وقد أمدتنا المصادر الأدبية والتاريخية بمعلومات لا بأس بها عن أسرته، وبخاصة والده الحافظ زين الدين عمر بن بدر الدين (ت726هـ)، والذي كان له فضل كبير عليه، فقرأ عليه جملة من مرويات الحُفّاظ، وتولّى تدريسه اللُغة وحفظها. يقول ابن حبيب مشيداً بفضله والده⁽²⁾: [مخلع البسيط]

لِوَالِدِي قُلْتُ حِينَ وَلى مُفَارِقًا نَفْسَهُ الْعَفِيفَهُ
أَبْشِرْ مِنَ الْمُصْطَفَى بِخَيْرِ يَا خَادِمَ السُّنَّةِ الشَّرِيفَهُ

ولم تذكر المصادر شيئاً عن والدته، غير أنها أشارت إلى أنّ له من الإخوة أربعة، ومن الأخوات واحدة، وهم: كمال الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن الحسن (ت777هـ)، وشرف الدين أبو عبد الله الحسن بن عمر بن الحسن (ت777هـ)، وأبو القاسم علي بن عمر بن الحسن، وأبو الفضل أحمد بن عمر بن الحسن (ت808هـ). أمّا أخته فهي فاطمة بنت أبي القاسم عمر بن أبي الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (ت763هـ).

(1) ابن حبيب، درة الأسلاك (مخطوط في مكتبة بودليانا- بريطانيا)، ق152.

(2) ابن حبيب، ديوانه ص163.

وقد تألم ابن حبيب كثيراً وحزن حزناً شديداً؛ لأنه فقد اثنين من إخوته سنة (777هـ)، وفي ذلك يقول⁽¹⁾: [الوافر]

ثَلَاثَةٌ أُخْوَةٌ كَانُوا جَمِيعًا فَسَارَ اثْنَانِ مِنْهُمْ لِلْحَفِيرِ
فِيَا أَهْلَ الْحَجَى قُولُوا بِبُصْحٍ لِثَالِثِهِمْ تَأَهُلٌ لِلْمَسِيرِ

خامساً: شيوخه

تلمذ ابن حبيب الحلبي لكثير من أعلام وقته المشاهير في جميع المناطق التي سكنها أو رحل إليها زائراً، وبخاصة مسقط رأسه مدينة حلب، فنلقى العلم على أيدي كبار علمائها، إذ كان مواظباً على حضور حلقات العلم التي كانت تُعقد في معاهدها، وقد حرص منذ صغر سنه على صحبة والده وحضور الدروس الدينية التي كان يعقدها، وفي الوقت نفسه كان يعكف تنويع مصادر ثقافته من خلال مواصلة الاتصال بالعلماء الذين كانوا يفدون إلى حلب آنذاك، وقد ساعده الترحال والانتقال كذلك على تلقي العلم خارج حلب، وخصوصاً في دمشق والقاهرة والحجاز.

وقد تجمّع لدي أسماء عدد لا بأس به من الشيوخ الذين ورد ذكرهم في المصادر التاريخية والأدبية، وقدرت أن تتحدّث عنهم حسب تاريخ وفاتهم، وذلك على النحو الآتي:

1. الشيخ علاء الدين بيبيرس بن عبد الله المجدي العديمي (ت713هـ)⁽²⁾.

سمع عليه ابن حبيب جزء البانياسي، وكتاب المصافحة للبرقاني، وجزءاً من حديث الترفقي.

2. ابن الزمكاني كمال الدين محمد (ت724هـ)⁽³⁾.

حضر مجلسه بصحبة والده، وسمعا عليه بعضاً من الحديث النبوي.

3. شمس الدين محمد بن إسحق بن صقر الجعفري الحلبي (ت726هـ)⁽⁴⁾.

(1) ابن حبيب، ديوانه ص 131.

(2) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 55/2-56، ابن حبيب، درّة الأسلاك ص 197.

(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 144/2.

(4) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 163/2.

سمع عليه مشيخة ابن كليب.

4. والده الشيخ عمر بن الحسن بن حبيب (ت726هـ)⁽¹⁾.

لازم ابن حبيب أباه في صباه، وقرأ عليه الشيء الكثير، وقد ذكر أنه قرأ على والده الجزء المشتمل على الحديث المسلسل بالأوليّة.

5. الشيخ بدر الدين محمد بن ناهض الشهير بالضرير الحلبي (ت731هـ)⁽²⁾.

أشار ابن حبيب في قول له أنه التقى به في حلب وأخذ عنه الكثير إذ قال: "لقيته بحلب، وسمعت من فوائده، ونقلت من خطه أشياء".

6. الشيخ عز الدين إبراهيم بن صالح بن هاشم العجمي (ت731هـ)⁽³⁾.

سمع عليه ابن حبيب في حلب سنة (713هـ)، جزءاً فيه أحاديث عن عشرة مشايخ من أصحاب أبي علي الحداد.

7. الشيخ أبو البركات أيمن بن محمد بن محمد (ت734هـ)⁽⁴⁾.

ذكر ابن حبيب أنه التقى به في المدينة المنورة، وسمع شيئاً من نظمه وفوائده.

8. علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الشهير بابن غانم الدمشقي (ت737هـ)⁽⁵⁾.

قال ابن حبيب: "سمعت عليه بدمشق جزءاً من مشيخة ابن عبد الدايم بسماعه لجميعها منه".

9. شهاب الدين أحمد بن منصور الحلبي الشهير بابن الجوهري (ت738هـ)⁽⁶⁾.

سمع عليه ابن حبيب بالقاهرة نبذة من السنن الكبرى للنسائي وغيره.

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 134/2.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه 213/2، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك ص101، ودرّة الأسلاك ق65.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 215/2، ابن تغري بردي، المنهل الصافي 83/1-84 رقم (35)، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة 23/1 رقم (66)، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب 95/6، الصفدي، الوافي 21/6 رقم (2449).

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه 257/2، ودرّة الأسلاك ق242، ودرّة الأسلاك ص238.

(5) ابن حبيب، تذكرة النبيه 281/2، ودرّة الأسلاك ص300، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 142.

(6) ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 151.

10. القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن المهاجر الأندلسي الحنفي (ت739هـ)⁽¹⁾.

التقى به ابن حبيب في حلب، واجتمع به كثيراً، وسمع من فوائده، وكتب عليه مقطعات من نظمه.

11. الإمام الحافظ علم الدين القاسم بن يوسف بن محمد البرزالي الإشبيلي (ت739هـ)⁽²⁾.

ذكر ابن حبيب أنه سمع من فوائده، وكتب عنه الإمام الحافظ علم الدين قصيدة نبوية، ثم وقف ابن حبيب على تاريخه، وعلى معجمه المشتمل على ذكر مشايخه، ونقل منهما، واستفاد.

12. قاضي القضاة فخر الدين عثمان بن الخطيب زين الدين أبي الحسن علي بن عثمان بن

إسماعيل الطائي الشافعي الشهير بابن خطيب جبرين الحاكم بحلب (ت739هـ).

يقول ابن حبيب: "قرأت عليه الجمل في النحو للجرجاني بحثاً، وجانباً من الفقه، وكنت أتردد إلى حلقتة، وسمعت منه"⁽³⁾.

13. شمس الدين محمد بن علم الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن حيدرة القرشي الشافعي،

الشهير بابن القماح (ت741هـ)⁽⁴⁾.

ذكر ابن حبيب أنه سمع عليه جزءاً من حديث ابن شاهين، بسماعه من الشيخ نجيب الدين عبد اللطيف الحراني، بقراءة الشيخ بهاء الدين محمد بن إمام المشهد الشافعي.

14. الشيخ عز الدين عبد المؤمن بن عبد الرحمن العجمي الحلبي الشافعي (ت741هـ)⁽⁵⁾.

ذكر ابن حبيب أنه رآه بحلب، واجتمع به فيها، ثم التقى به في القاهرة مرات، وسمع من فوائده.

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه 307/2، ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص160.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه 302/2، ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص161-162، ودرة الأسلاك ص91-108.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 304/2، ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص158.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه 20/3.

(5) ابن حبيب، تذكرة النبيه 22/3، ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص163.

15. أبو عبدالله محمد بن أحمد بن تمام الصالحي (ت741هـ)⁽¹⁾

حظي ابن حبيب ببركته لما زاره في منزله بدمشق، وسمع منه المنتقى من جزء ابن الفرات للحافظ

أبي عبد الله الذهبي.

16. الشيخ بدر الدين محمد بن نجم الدين مكي التنوخي المعري (ت742هـ)⁽²⁾.

اجتمع به ابن حبيب بطرابلس وحلب عندما زارهما، وسمع من فوائده.

17. جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن القضاعي المزني (ت742هـ).

يقول ابن حبيب: "وسمعت عليه مسند أبي داود الطيالسي، وجزء الجابري، وغير ذلك من الحديث

النبوي"⁽³⁾.

18. قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن خليل بن إبراهيم الرسغني الشافعي (ت742هـ).

لازم ابن حبيب مجلس حكمه في حلب للكتابة فيه، وسمع منه وقرأ عليه، واقتبس من فوائده⁽⁴⁾.

19. شهاب الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز الحرّاني المعروف بابن المرّحل النحوي

(ت744هـ)⁽⁵⁾. اجتمع به ابن حبيب في القاهرة، وسمع من فوائده.

20. شمس الدين محمد بن عز الدين أبي بكر بن إبراهيم بن عبد الرحمن الدمشقي المعروف بابن

النقيب مُدرّس الشامية البرانية بدمشق (ت745هـ)⁽⁶⁾.

أشار ابن حبيب إلى أنّه حضر مجلسه ودروسه بحلب، وسمع عليه مع جماعة من الحلبيين

جميع كتاب السنن لأبي داود بسماعه له من الشيخ جمال الدين أبي الحسن علي ابن البخاري

في ستة عشر مجلساً، وكان ذلك في المدرسة العسرونية بحلب، وأجاز لهم ما تجوز له روايته.

(1) ابن حبيب، تذكرة ابن النبيه 3/156، ودرّة الأسلاك 377-378، ودرّة الأسلاك 317-318.

(2) ابن حبيب، درّة الأسلاك ص327، وتذكرة النبيه 3/30.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/34، ودرّة الأسلاك ص329.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/61.

(5) ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/50، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك ص208.

(6) ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/66-67، ودرّة الأسلاك ص346.

21. جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن المظفر بن عمر بن محمد بن علي بن الورد المعري الحلبي الشافعي (ت749هـ).

يقول ابن حبيب: "سمعت كثيراً من فوائده بحلب"⁽¹⁾.

22. فخر الدين محمد بن تاج الدين أبي الحسن علي المصري الشافعي (ت751هـ)⁽²⁾.

ذكر ابن حبيب أنه التقى به بحلب وبالمدينة المنورة، وسمع شيئاً من فوائده.

23. صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي (ت752هـ)⁽³⁾.

التقى به ابن حبيب لما ورد حلب سنة (731هـ)، وسمع عليه جزءاً كبيراً من ديوانه. وأطلع ابن حبيب على شيء من نظمه، وأوقفه على ديوانه "الشذور"، فكتب عليه تقريراً في نحو عشرين سطراً.

ولما قدم حلب ثانية سنة (750هـ)، سمع منه ابن حبيب كتابه "درر النحور في مدح الملك المنصور"، وكثيراً من نظمه ونثره، ولازم مجلس الاجتماع به، واقتبس من فوائده، وكتب على مقطعات من نظم ابن حبيب، وأجاز له جميع مقولاته، وما يجوز له روايته. ثم قرأ عليه ابن حبيب بحلب جميع المثالث والمثاني في المعالي والمعاني، وهو كتاب مقاطيع شعره يشتمل على عشرين باباً في أنواع مختلفة.

24. ناصر الدين محمد بن قاضي القضاة كمال الدين أبي حفص عمر بن عز الدين أبي البركات

عبد العزيز بن أبي جرادة العقيلي الشهير بابن العديم (ت752هـ)⁽⁴⁾.

ذكر ابن حبيب أنه سمع عليه مع جماعة من أهل حلب جميع السيرة النبوية لابن هشام.

(1) ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص2747، ابن حبيب، تذكرة النبيه3/119-120، ودرّة الأسلاك ص366.

(2) ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص265.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه2/216، ودرّة الأسلاك372، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة2/225-226 رقم(2432)،

ابن تغري بردي، المنهل الصافي7/274-280 رقم(1433)، ابن حبيب، تذكرة النبيه2/215.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه3/152، ودرة الأسلاك ص378.

25. شمس الدين أحمد بن محمد بن الحسن بن العجمي الحلبي الشافعي (ت752هـ)⁽¹⁾.

قال ابن حبيب: "وهو من جملة مشايخي في الكتابة".

26. بهاء الدين محمد بن علي الأنصاري الشهير بابن إمام المشهد (ت753هـ)⁽²⁾.

التقى به ابن حبيب خلال رحلته التي قام بها إلى الإسكندرية، وذلك سنة (736هـ)، غير أنه لم يذكر الأشياء التي تعلمها على يديه.

27. صدر الدين أبو الفتح محمد بن شرف الدين بن محمد الميذومي المصري (ت754هـ)⁽³⁾.

ذكر ابن حبيب أنه سمع عليه الجزء الأول من أمالي الخلال، وكان ذلك سنة (736هـ).

28. القاضي شرف الدين موسى بن سنان بن شبل الجعفري (ت762هـ)⁽⁴⁾.

قال ابن حبيب: "أنشدنا كثيراً من شعره، وكتبت على قصيدتين له، إحداهما ميمية عارض بها البوصيري، والأخرى نونية عارض بها ابن زيدون".

29. صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أيك الصفدي (ت764هـ)⁽⁵⁾.

اجتمع به ابن حبيب في القاهرة، وسمع من فوائده، وكتب له الصّفي تقرّظاً على كتابه "تسيم الصبا".

30. زين الدين عمر بن شرف الدين أبي الروح عيسى بن عمر الباريني (ت764هـ)⁽⁶⁾.

قرأت عليه بحلب نبذة من الفقه، وسمعت من فوائده.

(1) ابن حبيب، درّة الأسلاك 383، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة 13/2-14 رقم (153).

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه 269/2، ودرّة الأسلاك ص 384.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 173/3، ودرّة الأسلاك ص 385.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه 244/3، 139-138/3، ودرّة الأسلاك ص 410. ودرّة الأسلاك ص 372، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 259.

(5) ابن حبيب، ذكرة النبيه 268/3، ودرّة الأسلاك 423، ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك 355.

(6) ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك ص 352.

31. الأمير شهاب الدين أحمد بن الصاحب شرف الدين أبي محمد يعقوب بن عبد الكريم بن أبي المعالي الحلبي (ت765هـ)⁽¹⁾.

يقول ابن حبيب: "رافقته في الاشتغال والكتابة حال الصبا بحلب، ولي به اجتماع كثير وصحبة قديمة".

32. صدر الدين أبو العباس أحمد بن محمد الدميري (ت768هـ)⁽²⁾.

قال ابن حبيب: "حضرت مجلسه بحلب كثيرًا، وكتبت به وسمعت من فوائده".

33. الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري (ت768هـ)⁽³⁾.

ذكر ابن حبيب أنه لازمه حينما قدّم حلبًا سنة (730هـ)، وقرأ عليه شيئًا من نظمه ونثره، وأطلعته على ديوانه المسمّى بـ "الشُدور"، فكتب ابن نباتة تقريرًا له في نحو ثلاثين سطرًا. وكذلك اجتمع به في دمشق مرّات.

34. صدر الدين محمد بن القاضي جمال الدين بن أبي بكر الخابوري (ت769هـ) الرَّحبي⁽⁴⁾.

التقى به ابن حبيب في حلب وطرابلس، وسمع شيئًا من فوائده، ونقل من خطّه.

35. بدر الدين محمد بن تقي الدين أبي محمد عبد الله الشُّبلي الدَّمشقي (ت769هـ)⁽⁵⁾.

قال يقول ابن حبيب: "اجتمعت به بطرابلس كثيرًا، وسمعت من فوائده".

36. شرف الدين الحسين بن جمال الدين أبي الربيع سليمان بن ريان الطائي (ت769هـ)⁽⁶⁾.

قال ابن حبيب: "وكان بيني وبينه صحبة، واجتماع كثير، ومكاتبات، وكتبت على ثلاث مقامات من إنشائه أسطرًا".

(1) ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص364-365.
(2) ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص389.
(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 230/2 + 231-306/3.
(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه 321/3، ودرّة الأسلاك ص452.
(5) ابن حبيب، تذكرة النبيه 322/3، ودرّة الأسلاك ص447.
(6) ابن حبيب، تذكرة النبيه 322/3-325، ودرّة الأسلاك ص454.

37. القاضي شمس الدين محمد بن زين الدين خلف بن كامل الغزي (ت770هـ)⁽¹⁾.

ذكر ابن حبيب أنه لازمه بالمدرسة العادلية الكبرى مدة إقامته بدمشق، وسمع شيئاً من فوائده.

38. الشيخ بدر الدين محمد بن جمال الدين أبي بكر محمد بن الشريشي الدمشقي (ت770هـ)

⁽²⁾. اجتمع به ابن حبيب لما ورد حلباً زائراً، وسمع شيئاً من فوائده.

39. نور الدين أبو الحسن علي الزرندي المدني الحنفي (ت772هـ)⁽³⁾.

قال ابن حبيب: "لقبته بحلب، واجتمعت به، وسمعت قراءته، وكتبت على جزء من نثره ونظمه

يشتمل على المفاخرة بين حرمي مكة والمدينة أسطواراً".

40. تقي الدين أبو المعالي محمد بن شافع السلامي (ت774هـ)⁽⁴⁾.

ذكر ابن حبيب أنه التقى به في دمشق والقاهرة، وسمع فوائده.

41. جمال الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن قاضي الزيداني (ت776هـ)⁽⁵⁾.

ذكر ابن حبيب أنه اجتمع به في دمشق مرّات عدّة، وسمع من فوائده.

42. القاضي بهاء الدين أبو البقاء محمد بن القاضي سديد الدين السبكي (ت777هـ)⁽⁶⁾.

التقى به ابن حبيب بدمشق، وسمع شيئاً من فوائده.

43. القاضي محب الدين محمد بن القاضي نجم الدين يوسف المصري (ت778هـ)⁽⁷⁾.

التقى به ابن حبيب في القاهرة، وعمل على خدمته، ونقل شرحه على التلخيص في علم المعاني

لجلال الدين القزويني، وقرأ عليه نبذة منه، والتقط من فرائد فوائده الشيء الكثير.

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/332، ودرّة الأسلاك ص453.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/333-334، ودرّة الأسلاك ص458.

(3) ابن حبيب، درة الأسلاك ق92.

(4) ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك 424.

(5) ابن حبيب، درة الأسلاك 724.

(6) ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك ص449-450.

(7) ابن حبيب، درة الأسلاك 142-143.

سادساً: رحلاته

حرص ابن حبيب على الترحال تحقيقاً لطموحه العلمي، ورغبةً في ملاقاتة الشيوخ والعلماء الأجلاء، وتوجّه إلى الديار الحجازية سعياً لأداء فريضة الحجّ. فأرّخ لعددٍ من الرّحلات التي قام بها لبعض البلدان، وقد أمدّتنا المصادر التاريخية بمعلومات عن رحلاته، فذكرت أنّه قام بستّ رحلات، هي:

1. رحلة إلى دمشق

سافر ابن حبيب إليها سنة (732هـ) وفي ذلك يقول: "في هذه السنة توجهت ربيعاً للمولى كمال الدين عمر بن الشيخ شرف الدين محمد بن عشائر الحلبي، ومعنا الشيخ علي بن الشيخ معتوق المقرئ، إلى دمشق المحروسة، وأقمنا بها أياماً نتملى برؤية محاسنها، ونطوف بحرم بساتينها ونتصفح وجوه المدارس، ونجتلي عرائس غزلانها الأوانس، ثم عدنا إلى حلب، وانقلبنا إلى أهلينا أحسن منقلب" (1).

2. رحلتان إلى الحجاز

في هذه الرحلة عزم ابن حبيب على أداء فريضة الحجّ، ومن ثمّ قام بزيارة المدينة النبوية الشريفة، وفي الوقت نفسه سعى جاهداً إلى طلب العلم، وكان ذلك سنة (733هـ). وفي ذلك يقول: "وفيها توجهت إلى الحجاز الشريف بصحبة الأخوين: كمال الدين محمد، وشهاب الدين أحمد والوالدة، وكان عامًا وافر البركة والخير..." (2).

أمّا الرحلة الثانية فكانت سنة (739هـ)، ولم يخبرنا عمّن رافقه فيها (3).

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه 233/2.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه 243/2.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 309-308/2.

3. رحلة إلى القاهرة

أشار ابن حبيب إلى أنه في العام (736هـ) قدم إلى القاهرة، وأقام بها شهرًا، وحرص أثناء مقامه فيها على الاتصال بأهل العلم والأدب⁽¹⁾.

4. رحلة إلى القدس الشريف

رافق ابن حبيب والدته في زيارتها للمدينة المقدسة حُبًّا في خدمتها ورعايتها أثناء هذه الرحلة، وصلبًا في المسجد الأقصى، وقاما بزيارة إلى المسجد الإبراهيمي الشريف في مدينة الخليل، وقد أُرِّخ ذلك ابن حبيب في العام (738هـ)⁽²⁾.

5. رحلة إلى الإسكندرية

ذكر ابن حبيب أنه سار إليها للقاء شيوخها ومكث هناك أسبوعًا، وكان ذلك سنة (736هـ)، فقال: "وفيها -أي تلك السنة- رحلت إلى الإسكندرية ولقيتُ بها شيخنا العلامة بهاء الدين محمد بن علي الأنصاري الشهير بابن إمام المشهد (ت753هـ)"⁽³⁾.

6. رحلة إلى طرابلس

في هذه الرحلة طالت إقامة ابن حبيب في طرابلس، فلبث فيها سنتين ونصف، حيث باشر بها كتابة الحكم والإنشاء، وكان ذلك في عهد الأمير سيف الدين منجك الناصري نائب السلطنة بها⁽⁴⁾. وكان ذلك سنة (756هـ).

(1) ابن حبيب، درة الأسلاك ق247.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه 297/2.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 269/2.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه 197/3.

سابعًا: وظائفه

شغل ابن حبيب وظائف عديدة تركزت بين الشام وحلب، وتقلَّب في عدد من المناصب، وهي:

1. اشتغل ابن حبيب في كتابة الحكم العزيز، وكتابة الإنشاء والتوقيع الحكمي، في كل من دمشق وطرابلس وحلب. وفي ذلك يقول ابن تغري بردي (ت874هـ): "كتب الشروط عند الحكام بحلب ... وياشر كتابة الحكم العزيز، وكتابة الإنشاء، والتوقيع الحكمي، وغير ذلك من الوظائف الدينية"⁽¹⁾. وأكد على ذلك في كتابه "النجوم الزاهرة" حيث قال: "ياشر كتابة الحكم وكتابة الإنشاء، وغير ذلك من الوظائف الدينية"⁽²⁾.
2. باشر ابن حبيب العمل في شهادة دار الضرب بحلب في العام (748هـ)، بناءً على المرسوم الذي أصدره نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر⁽³⁾.
3. عمل ابن حبيب لدى الأمير سيف الدين منجك الناصري نائب السلطنة في حلب، وعمل مباشرًا لشهادة ديوانه. وقد أشار ابن حبيب إلى فضل الأمير قائلاً: "وله إحسان علي، وياشرت الشهادة في ديوانه بحلب"⁽⁴⁾.
4. عمل ابن حبيب شاهدًا في ديوان القاضي تاج الدين عبد الوهاب السبكي الشافعي الحاكم بدمشق، فنال إعجابه وأحسن إليه، وكان من جملة موقَّعي الحكم العزيز عنده⁽⁵⁾.

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي 115/5-119.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 189/11-190.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 97/3.

(4) ابن حبيب، المنتقى من درة الأسلاك 422.

(5) ابن حبيب، درة الأسلاك، (حوادث سنة 764هـ).

ثامناً: آثاره المخطوطة والمطبوعة

صنّف ابن حبيب عدداً كبيراً من المؤلفات نثرًا وشعرًا في موضوعات شتى، فله مصنّفات في التاريخ والأدب والعلوم الشرعيّة. وقد حققت بعض مصنّفاتّه، فيما ما زال بعضها الآخر مخطوطاً، وقد استطعت معرفة عدد منها وهي واحد وعشرون كتاباً .

وستحدّث في هذه الجزئية من الرسالة عن آثاره المخطوطة والمطبوعة.

أولاً: المؤلفات المخطوطة

1. أخبار الدول وتذكار الأول في التاريخ

عرف هذا المصنّف أيضاً باسم: "جهينة الأخبار في ملوك الأمصار". إذ ركز ابن حبيب فيه على ذكر أخبار الدول والأنبياء والحكام، وكان ذلك في سنة (765هـ) إذ قال: "أنشأت كتاباً مسجوعاً في التاريخ سميته: أخبار الدول، وتذكار الأول، يشتمل على ذكر زمرة من الأنبياء عليهم السلام، وعلى سرد حكام بني إسرائيل وملوك الفرس، والقبط واليونان والروم واليمن والحجاز والشام وعلى وصف خلفاء الدولة الإسلامية وملوكها، جامعاً على سبيل الاختصار من طلوع شمسها ودلوها"⁽¹⁾.

ومن هذا الكتاب نسختان مخطوطتان رقم (1154) تاريخ، ونسخة أخرى برقم (304) بدار

الكتب المصرية.

2. إرشاد السامع والقاري من صحيح أبي عبد الله البخاري

قال ابن حبيب في سنة (754هـ): "وبها انتقيت من كتاب الإمام البخاري مؤلفاً يشتمل على

نحو ألف حديث محذوف الإسناد، من غير تكرار"⁽²⁾.

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 279/3، وتذكرة النبيه 18/1-19، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 361.

(2) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 172/3-173، ودرّة الأسلاك ص 386، والمنتقى من درّة الأسلاك 292.

3. أعلام الإعلام بأحوال شيخ الإسلام الشيخ الإمام

هذا الكتاب عبارة عن ترجمة للإمام قاضي قضاة الشافعية بدمشق الإمام علي بن عبد الكافي السبكي تقي الدين أبي الحسن الشافعي عاش ما بين (756-683هـ)، ولقد استوفى ولده عبد الوهاب في كتابه "طبقات الشافعية الكبرى" أسماء كتبه وأقوال العلماء فيه. قال: "ذكره الأديب الفاضل بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب في كتاب وضعه يختص بمناقبه، سماه "أعلام الإعلام"⁽¹⁾.

4. تاريخ ابن أبي سعيد⁽²⁾

مخطوط يوجد في بروسه حراتشي زاده، بروكلمان ج 6 (11-10).

5. تحية المسلم من شعر ابن المعلم

وقف ابن حبيب في العام (748هـ) على ديوان الشاعر الشيخ نجم الدين محمد بن علي ابن فارس الواسطي، المعروف بابن المعلم، وانتقى منه مُجَلَّدًا لطيفًا⁽³⁾.

6. التوشيح في شرح الحاوي

جمع ابن حبيب سنة (757هـ) بين توضيح الحاوي للإمام العلامة قطب الدين القالي، وهو كتاب "إظهار الفتاوي من أغوار الحاوي" للإمام هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم، شرف الدين ابن البارزي" (ت738هـ)، وبين زوائد مفنّدة من إظهار الفتاوي للبارزي الشافعي، تغمده الله برحمته، في كتاب سمّيته: "توشيح التوضيح"، أستعين به على كشف بعض أسرار الحاوي للإمام الحبر العلامة نجم الدين عبد الغفار القزويني الشافعي⁽⁴⁾.

(1) ينظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 161/10.

(2) ينظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (11-10)، ص137.

(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 103/3، ودرّة الأسلاك ص355، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 233.

(4) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 201/3، ودرّة الأسلاك ص395، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك ص41.

7. رسالة في النحو

رسالة صغيرة من تأليف الحسن بن حبيب، أبي القاسم تتكون من سبع أوراق. ومنها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق ذكرها الأستاذ ياسين محمد السواس في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق (المجاميع)⁽¹⁾، ولم يرد لها ذكر في أي من المصادر والمراجع الأخرى.

8. شغف السامع في وصف الجامع

ذكر ابن حبيب أنه ألف كتابًا في العام (760هـ)، وأطلق عليه اسم: شغف السامع في وصف الجامع، يشتمل على فضل الشام، وأخبار دمشق، وأوصافها، وذكر جامعها الأموي، وذكر محاسنه⁽²⁾.

9. الفوائد المنتقاة من تاريخ صاحب حماة

ذكره بروكلمان، وتوجد منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم (1058). ويخط ابن حبيب: "الفوائد المنتقاة من تاريخ صاحب حماة" في مكتبة أحمد الثالث باستانبول، ضمن مجموعة (2475)، ومنها في معهد المخطوطات العربية برقم (ف372) تاريخ⁽³⁾.

10. قصيدة طائية

توجد نسخة منها مخطوطة بالإسكندرية أدب رقم (129).

11. قواعد إبراهيم

الكتاب عبارة عن منتقى مختصر انتخبه ابن حبيب من ديوان الشيخ أبي إسحاق إبراهيم ابن عثمان بن محمد الغزي (ت524هـ)، وكان ذلك سنة (755هـ)، وأطلق عليه اسم "قواعد إبراهيم"⁽⁴⁾، ذكره حسن عبد الهادي في ديوان ابن حبيب.

(1) طبعة دمشق، مجمع اللغة العربية سنة 1984م، القسم الأول ص39 رسالة رقم (3) من المجموع رقم (6)، عدد الأوراق (7) ورقات (66-63).

(2) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 220/3-224، وتذكرة النبيه 22/1.

(3) ينظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (10-11)، ص136.

(4) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 26/1 + 181/3، ابن قطلوبغا، المنتقى من درة الأسلاك، ص39.

12. كشف المروط عن محاسن الشروط

كتاب يتناول أشكال الإجراءات القانونية، ويوجد مخطوطاً في برلين برقم (4964)، والقاهرة برقم (266/3)، والقاهرة برقم (535/1)، والسليمية برقم (569)، وتيمورق فقه برقم (312)، ومنه قطعة في توينجن برقم (128)⁽¹⁾.

13. الكوكب الوقاد من كتاب الاعتقاد

هذا الكتاب عبارة عن منتقى من "كتاب الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد" للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي⁽²⁾.

14. المختار

ذكر ابن حبيب أنه جمع من نظمه سنة (759هـ) كتاباً رتبته على حروف المعجم سماه: "المختار"⁽³⁾.

15. مختصر المنار في الأصول

قام بشرحه القاري الهروي، علي بن سلطان محمد القاري، نور الدين الفقيه، نزيل مكة المتوفى سنة (1014هـ)⁽⁴⁾.

16. مروج الغروس في خروج بيبغاروس

مقامة وضعها ابن حبيب سنة (753هـ). بمناسبة خروج الأمير سيف الدين بيبغاروس القاسمي، نائب السلطنة بحلب⁽⁵⁾.

توجد منها نسخة بمكتبة خدابخش - بتة بالهند، ومنها صورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة (1224) تاريخ.

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 22/1، وبروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (10-11) ص 136، حاجي خليفة، كشف الظنون ص 1495، إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين ص 287.
(2) ينظر: تذكرة النبيه 202/3 + 22/1-23، ودرّة الأسلاك ق 333، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 307.
(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 23/1 + 214/3.
(4) ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، 601/5.
(5) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 23/1، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 280.

17. معاني أهل البيان من وفيات الأعيان

الكتاب عبارة عن مختصر لتراجم عدد من أهل الأدب انتخبه ابن حبيب من وفيات الأعيان لابن خلكان، وسمّاه: "معاني أهل البيان من وفيات الأعيان"⁽¹⁾.

18. مقياس النبراس

ذكر ابن حبيب أنّه وضع كتابًا سنة (766هـ)، وسمّاه: "مقياس النبراس"، ورتّبّه على حروف المعجم⁽²⁾.

19. نصوص نثرية في مدح الذات الإلهية

ذكره بروكلمان، وأشار إلى وجود نسخة منه في مكتبة برلين برقم (2285)⁽³⁾.

20. نوح الفاقد

نظم ابن حبيب سنة (736هـ) قصائد معشرات مرتبة على حروف المعجم سمّاه: "نوح الفاقد"⁽⁴⁾.

21. نفحات الأرج من كتاب تبصرة الفرج لأبي الفرج ابن الجوزي

نسبه ابن تغري بردي لابن حبيب⁽⁵⁾.

ثانيًا: المطبوعة

1. تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه

يعدُّ هذا الكتاب من أهم مصنّفات ابن حبيب الحلبيّ، وهو كتاب حوادث تاريخية وتراجم، أنّ فيه مؤلفه للفترة ما بين سنة 678-770هـ، وهي فترة حكم الملك المنصور قلاوون وأولاده من بعده، ويقع

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 1/23-24 + 83/3، ابن قطلوبغا، المنتقى من درّة الأسلاك 219-220.

(2) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 1/24-25 + 285/3-287.

(3) ينظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي (القسم السادس) (10-11)، ص 136.

(4) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 2/270.

(5) ينظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي 5/116.

في ثلاثة أجزاء طبعت في القاهرة بتحقيق أ.د. محمد محمد أمين. ج1، سنة1976م، ج2، 1982م، ج3، 1986م.

2. درّة الأسلاك في دولة الأتراك

يعتبر هذا الكتاب من أشهر كتب ابن حبيب على الإطلاق، ويُعرف أيضًا باسم "تاريخ ابن الحبيب"، وقد رتبّه مؤلّفه على السنين، وأرخ فيه الحوادث منذ قيام الدولة التركيّة في مصر والشام سنة (648هـ) إلى سنة (778هـ)، كما ترجم لوفيات المشاهير الأعلام في مصر والشام وغيرها من البلدان. وقد ذيل عليه ولده أبو العزّ طاهر بن الحسن بن حبيب إلى سنة (802هـ).

طبع في دمشق، مطبعة جامعة دمشق، سنة (1967م)، وهذه الطبعة نادرة، وهناك المنتقى من درّة الأسلاك في دولة "ملك" الأتراك. انتقاه مؤلف مجهول - تحقيق: عبد الجبار - زكّار وقدم له: سهيل زكّار.

3. دليل المجتاز بأرض الحجاز

أرجوزة تشتمل على ذكر منازل الحج، وضعها ابن حبيب في أثناء رحلته الأولى إلى الحجاز سنة733هـ، وكان في صحبة أمه و أخويه: كمال الدين محمد، وشهاب الدين أحمد. حقّقها الشيخ حمد الجاسر تحت عنوان "دليل المجتاز بأرض الحجاز"، ونشرت في "مجلة العرب" ج6، 5، سنة1977م. في الصفحات (414-406).

4. ديوان الشُّدور

جمعه ابن حبيب لنفسه سنة (767هـ) وهو يضم مقطعات شعره، وسماه: "الشُّدور"، وقد حقّقه حسن محمد عبد الهادي. وصدر عن دار الكتب العلمية ببيروت، سنة(2019م).
5. مجموع شعره (موضوع الدّراسة)، وقام بجمعه ونشره حسن محمد عبد الهادي.

6. مقامة الخيل والإبل

جاءت هذه المقامة في كتاب نسيم الصِّبا⁽¹⁾.

7. مقامة الوحوش

وردت هذه المقامة ضمن كتاب نسيم الصِّبا⁽²⁾.

8. المقامة الطردية (في رمي البندق)

وجدت هذه المقامة في كتاب نسيم الصِّبا⁽³⁾.

9. المقتفى من سيرة المصطفى

وضعه ابن حبيب في سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطبع هذا الكتاب، وحققه: د.

مصطفى حسين الذهبي، ونشرته دار الحديث بالقاهرة، سنة (1416هـ-1996م).

10. النجم الثاقب في أشرف المناقب

يبحث هذا الكتاب في مناقب رسول الله - صلى الله عليه وسلم، واشتمل على ثلاثين فصلاً.

طبع هذا الكتاب بتحقيق: د. مصطفى الذهبي، ونشرته دار الحديث بالقاهرة سنة (1416هـ-1996م).

وحقق مرة أخرى بقلم: بلعمري محمد فيصل الجزائري، وطبع في دار الكتب العلمية-بيروت، سنة

(2010م).

11. نسيم الصِّبا (فصول الربيع في أصول البديع)

طبع أكثر من مرة في الإسكندرية، وبولاق، والآستانة، وبيروت. وطبع حديثاً محققاً بقلم أ. محمود

فاخوري في مدينة حلب.

(1) ينظر الفصل الثامن عشر من كتاب نسيم الصبا، ص 91-94.

(2) ينظر الفصل التاسع عشر من كتاب نسيم الصبا، ص 95-100.

(3) ينظر الفصل الثالث والعشرين من كتاب نسيم الصبا، ص 115-120.

تاسعًا: صلته بمؤرخي عصره

1- اتَّصل ابن حبيب بعدد من مؤرخي زمانه، وبخاصَّة من كانوا في مصر والعراق والشام. وقد يتحدث شاعرنا عن العلاقة التي كانت تربطه بالمؤرخ شهاب الدين أحمد النويري (ت733هـ) صاحب كتاب "نهاية الأرب"، وقد أفصح عن ذلك في كتابه "تذكرة النبيه"، مبيِّنًا أنه وقف على الكتاب، وأنه نقل منه وانتفع به⁽¹⁾.

2- والتقى ابن حبيب بالمؤرخ المشهور علم الدين البرزالي الأشبيلي الدمشقي (ت739هـ) ونقل عن كتابه "المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي"، فقال: "رأيت الشيخ علم الدين بدمشق، واجتمعت به مرات، وسمعت من فوائده، وبقراءته على عدة من مشايخ الحديث بها، ووقفت على تاريخه ومعجمه، وهما أكثر من عشرين مجلدا، ونقلت ما ملكت به من القول دُرًّا، ومن الخط عسجدا"⁽²⁾.

3- واتَّصل ابن حبيب بالمؤرخ والأديب شهاب الدين بن فضل الله العمري (ت749هـ)، ومدحه في قصيدة طويلة، وأثنى العمري على شيخه في كتابه "مسالك الأبصار"⁽³⁾.

4- أمَّا المؤرخ الشاعر زين الدين عمر ابن الوردني (ت749هـ)، فكانت لشاعرنا علاقة وطيدة لا بل قوية معه، وقد أوقفه عندما التقى به سنة (730هـ) على مقطَّعات من ديوان الشُّذور، فكتب عليها أسطارًا⁽⁴⁾.

5- ولابن حبيب علاقة قوية مع الأديب والمؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت764هـ)، إذ التقى به مرَّات في دمشق والقاهرة، وسمع كثيرًا من فوائده، وقد وقف ابن أيبك على كتاب ابن حبيب، المعروف بـ "تسيم الصبا" فكتب تقريرًا عليه، قال: "وقفت على هذا

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 2/246.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه، 2/302.

(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/126.

(4) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 3/131.

المصنف الموسم بنسيم الصبا، والتأليف الذي لو مر بالمجنون لما ألف ليلاه، ولا مال إليه ولا صبا، والإنشاء الذي إن شاء قائله جعل كلام غيره في هبات الهواء هبا، والنثر الذي أغار قائله على سبائك الذهب الإبريز وسبى، والكلام نبا عنه الجاحظ جاحدا، وما له لا ذكر ولا نبا... (1).

6- ولابن حبيب اتصال بقاضي القضاة تاج الدين السبكي (ت771هـ)، إذ عملا معاً في دمشق، وكانت تربطهما صداقة قوية، وهذا ما تظهره القصيدة التي كتبها شاعرنا عندما عاد السبكي إلى دمشق بعد زيارته للقاهرة (2).

وكتب تاج الدين السبكي تقریظاً على كتاب "نسيم الصبا" لابن حبيب، فأثبت ما نصّه: "الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. حدقت نحو الحدائق، وفوقت سهمي تلقاء الغرض الشائق، وطرقت إلى ما يضي أخا الحجى أسهل الطرائق، فما علل صداي كنسيم الصبا، ولا كمثلته سهما صائبا صبا به من لا صبا، ولا نظرت نظيره حديقة تنبت فضة وذهبا" (3).

عاشراً: مكانته العلميّة وآراء العلماء فيه

أشاد معظم الذين ترجموا لابن حبيبٍ بذكائه وألمعيته، وبسعة ثقافته، وعميق اطلاعه، وغزير علمه، ومعرفته الواسعة في جميع المعارف والعلوم التي أتقنها، وقد امتدح نفرٌ من الأعلام شخصيّة ابن حبيب كثيراً، وعلى وجه الخصوص بوصفه مؤرخاً فذاً، وشاعراً رائعاً، وناثراً فائقاً، ومحدثاً، وفقهياً متقناً وقد عثرت على أقوال ثمانية من علماء عصره فيه وهم:

1- أثنى زين الدّين عمر بن الوردي على بعض من أشعار ابن حبيب، فكتب تقریظاً بخطّ اليد، و قال: "تأملت هذه النبذة التي رقّ من قائلها الطباع، وافتخرت بنظرها الأبصار على الأسماع،

(1) ينظر: ابن حبيب، نسيم الصبا، ص14.
(2) ينظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 258/10.
(3) ينظر: ابن حبيب، نسيم الصبا، ص14.

فوجدتها مشتملة على مبادي القوافي في الفوائق، والمعاني الرواقي الروائق، فنبتتها بدري، وكوكبها دري، هاجت لي ذكرى حبيب"⁽¹⁾.

2- جمال الدين بن نباتة المصري، فقد أشاد ببراعة ابن حبيب في النظم، وكتب تقریظاً لديوان "الشذور" بعد أن اطلع عليه، فأثبت عليه بخطه: "وقفت على هذه الأبيات الحسنة المباني، المأهولة بعقائل المعاني، المنسوبة إلى حسن، لولا تأخر عصره وعفته، ما شككت أنه الحسن بن هاني، وتأملتها تأمل ناقد لتبرها...."⁽²⁾.

3- صفي الدين الحلبي على مقطعات من نظمه في ديوان الشذور، فلما وقف عليها، كتب عليها ما يقارب من عشرين سطراً، منها: "لمحت هذه الملح الأدبية، والشذور الذهبية، لمح معتبر لمعانيها، مختبر لمعانيها، مختبر لمبانيها، فرأيت بها من التوجيه، ما يعجز عنه ابن الوجيه، وينبه على فصاحته ابن النبيه . . ."⁽³⁾.

4- ابن فضل الله العمري (ت749هـ) إلى مكانة ابن حبيب ناعثاً إياه بأروع الصفات، يقول: "هو الشيخ الجليل، الفاضل، الأديب، العدل، الرضي، بدر الدين أبو محمد ... وهو دمشقي الأصل، حلبي المولد والمنشأ، ذهبي المسجد إن نظم أو أنشأ، أديب أي أديب، وحسن بن حبيب"⁽⁴⁾.

وأثنى عليه ابن فضل الله ثانية في كتابه "مسالك الأبصار"، فقال: "أديب أي أديب وحسن بن حبيب. قدم علينا مصر قدوم المتلوم، وزارنا زيارة الخيال أجفان المهوم، فملاً زوايا المسامع وأودع، ثم سلم حتى ما ودع. وهو حلبي المولد والمنشأ، ذهبي المحتد إن نظم أو أنشأ.

(1) ينظر: ابن الوردي، الديوان ص 62-64.

(2) ينظر: ابن حبيب، ديوان الشذور ق206.

(3) ينظر: ابن حبيب، ديوان الشذور ق206.

(4) ينظر: ابن فضل الله العمري، ذهبية العصر 314.

وأُتشد بعد الحالة الكلام شيئاً من مقطعات شعري⁽¹⁾.

5- برهان الدين الزركشي (ت794هـ): "شيخ الأدب في عصره، الأديب الفاضل الناظم البليغ ... شعره رائع، ونثره فائق، كالشهد في حلاوته، والدر في طراوته، غواص على المعاني المبتكرة، حراص على الألفاظ الشريفة المبتكرة، يغوص في بحر الدر بشباكه الرقيقة، فيظهر من جواهر بديهته جمان عقيقه، فاق أدباء زمانه، وشهد له أشياخه بالتقدم على أقرانه⁽²⁾.

6- وأشاد ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) به كثيراً، فقال: "له عمل كثير في الحديث، ونشأ مُحبباً في الآداب. وله درة الأسلاك، وهو يدل على اطلاع زائد، واقتدار على النظم والنثر، لكنّه ليس في الطبقة العليا منهما"⁽³⁾. وأتى على ذكره ثانية في كتابه "إنباء الغمر"، فقال: "اشتغل ابن حبيب وبرع إلى أن صار رأساً في الأدب والشروط، ثم انتقى وخرج وأرخ، وتعانى في تواليفه السجع، وكتب الشروط على القضاة، وناب في الحكم ووقع في الإنشاء وصنف فيها، واشتهر بالأدب، فنظم ونثر، وجمع مجاميعاً مفيدة، ثم لزم منزله بأخيه مقبلاً على التصنيف والإفادة"⁽⁴⁾.

7- وقد شهد ابن قاضي شهبة (ت851هـ) ببراعته في قرص الشعر، فذكر أنه: "قال الشعر الحسن"، وأردف قائلاً: "هو المسند الأديب المنشئ المؤرخ بدر الدين ابن المحدث زين الدين. أخذ الأدب عن ابن نباتة وغيره، وكتب الشروط، وقال الشعر الحسن، وصنّف النّصانيف اللطاف، وله شعر كثير"⁽⁵⁾.

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 126/3.

(2) ينظر: الزركشي، عقود الجمان (مخطوط إستانبول) ق101.

(3) ينظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة 18-17/2.

(4) ينظر: ابن حجر، إنباء الغمر 163-162/1.

(5) ينظر: ابن قاضي شهبة، تاريخه 163-162/2.

8- أمّا ابن تغري بردي (ت874هـ)، فأشار إلى فضائله ووظائفه ومصنّفاته، ثمّ أشاد ببراعته في صنّاعتي النّظم والشّعْر، فقال: "كان له فضل، ومشاركة جيدة، واليد الطولى في النّظم والنثر"⁽¹⁾.

وفاته:

توفي الشيخ الإمام الأديب المؤرخ الفقيه الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، بدر الدين في داره بحلب يوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة (779هـ)⁽²⁾.

(1) ينظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي 115/5.
(2) ابن حبيب، درّة الأسلاك (مخطوط بودليانا) ق152.

الدّراسة الموضوعيّة

أولاً : المديح النبوي

ثانياً : المديح

ثالثاً : الإخوانيّات

رابعاً : الوصف

خامساً : الحوادث الاجتماعيّة والكوارث

سادساً : وصف الجمال الإنساني

سابعاً : الغزل

ثامناً : الخمريات

تاسعاً : الزهد

أولاً : المديح النبوي

في سنة (733هـ)، توجه ابن حبيب الحلبي إلى الحجاز الشريف بصحبة أمه وأخويه كمال الدين محمد وشهاب الدين أحمد ووالدته، طلباً لأداء فريضة الحج، وفي هذه الرحلة نظم قصيدة رائية في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، وكذلك أرجوزة طويلة استغرقت (193) بيتاً، سماها "دليل المُجتاز إلى أرض الحجاز"⁽¹⁾، وفي هذه الأرجوزة حشد ابن حبيب كمّاً كبيراً من المعلومات التي تصف الطرق والمحطات التي يسير فيها الحجاج وصولاً إلى مكة، وضمّنها مدحاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - معتمداً في ذلك على ما ورد في كتب السيرة النبوية.

والملاحظ على شعر ابن حبيب أنّ أغلبه مقطّعات؛ لذلك تخلو قصيدة المديح النبوي عنده في أغلب الأحيان من آية مُقدّمت غزليّة، على نحو ما كان يفعل أغلب الشعراء، وإنّما قصر اهتمامه في هذا اللون من المديح على عدد من الموضوعات على النحو الآتي:

1- المُقدّمة الغزليّة

اعتاد شعراء المديح النبوي أن يقدموا لقصائدهم بمقدمات غزلية متفاوتة الطول، يظهرون فيها شوقهم إلى الديار الحجازية حيث ولد ونشأ وعاش الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحيث يرقد في روضة من رياض الجنة ، وقد قدم ابن حبيب لقصيدتين بمقدمة غزلية ، القصيدة الأولى رائية، وبلغت مقدمتها خمسة أبيات، حيث قال:⁽²⁾

[السريع]

أحبابنا والله من بعدكم	ما الربيع ربيع لا ولا الدار دار
كيف يُرجى الصبر عنكم فتى	فواد مُد سِرْتَم عنه سار
لولاكم ما اشتقت وادي مني	ولا إليه كنت أطوي الففار
يا لائم المشتاق في شجوه	دع لومته، فالحب ما فيه عار
حقّ عليه بعد أحبابه	أن يسهر الليل، ويبكي النهار

(1) ينظر: ابن حبيب، ديوانه 241-249.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 112-113.

والقصيدة الثانية نظمها ابن حبيب في رحلته الثانية إلى الحجّ في سنة (739هـ). يقول في مقمّدة قصيدته مستذكراً الذكريات الجميلة التي كانت تجمعها مع الأحبّة في قالب غزليّ من ثمانية أبيات. يقول فيها⁽¹⁾: [البسيط]

يا ربّة الخالٍ أو طيفٍ يُحيّيه	مَنْ لِمَشُوقٍ بِوَصْلِ مَنْكَ يُحيّيه
بعد البعادِ، ولا اللذاتُ تُلهيه	بعدتُ عنه، فلا الألمانُ تُطْرِيه
عُودي ولا تُشمتني فيه أعاديه	أشمتتُ لما ترحلتِ العداةُ به
يا عذبةَ الريقِ بالهجرانِ والتيه	عطفاً عليه، فقد عذبتُ مُهجتهُ
نشوانٌ منعطفاً سبجانٍ منشيه	وذاتٌ قد غدا من خمرٍ مُقلتها
وصاحبُ البيتِ أدري بالذي فيه	تدري بما في فؤادي من محبتها
أمست غلائل ذات الخال تحويه	عرّضَ بذكر النقا فهو الشبيه لما
يحكي ضلوعي، وذا دمعي يُحاكيه	والمحنى صفةً لي بعد العتيق، فذا

2- الشوق والحنين إلى الديار المقدّسة وآثار النبيّ عليه السّلام

قدّم ابن حبيب صورتين مختلفتين في التّعبير عن شوقه وحنينه للوصول إلى الحجاز الشّريف، فنجدّه في الأولى في أشدّ الشوق للوصول هناك، حيث عاش النبيّ - صلى الله عليه وسلم - المجتبي في أرض مهبط الوحي والرّسالة، فيطلب من حادي الرّكب أن يحثّ المسير دون توقّف، حبّاً في الوصول سريعاً إلى مكّة الطّاهرة، حيث الكعبة والمروتان وعرفات والحجر والخيف ومنى، وغيرها من البقاع المقدّسة، يقول⁽²⁾: [البسيط]

تقف، وسلّم على عُربٍ بذى سلّم	حُثّ المسيرُ إلى نحو الحجازِ، ولا
آثارَ أقدامٍ سرّ الكونِ في القدم	وانزلُ بمكّة خير الأرضِ مقتفياً
والعرفُ من عرفاتٍ موقِفُ الأمم	واجنحْ لكعبتِها والمزوتينِ بها
وكلُّ موضعٍ نُسكٍ حلّ في الحرّم	والحجرُ والحجرُ السّامي وخيفِ منى

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 233.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 210.

أمّا في الثّانية فنجد لديه رغبة في الوقوف على بعض الأماكن سائلاً مُستذكراً، فيطلب من حادي الرّكب أن يُعرِّج في طريقه على أراضٍ وقعت عليها أحداثٌ تاريخيّة كالحديبية التي على أرضها أبرم الصّلح بين المسلمين والمشركين في العام السّادس للهجرة، والبقاع التي وقعت فيها غزوة تبوك أو غزوة العسرة في السنة التاسعة للهجرة، فهذا الثُّراب الطّاهر داسته قدما رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وصحبه الّذين عملوا على نشر دعوة الإسلام. فقال⁽¹⁾: [الكامل]

قِفْ سَائِلًا أَرْضَ الْمَجَازِ، وَمَا جَرَى	مِنْهَا، وَسَالَ بِجَانِبِ الْمُنْهَاجِ
وَسَلِ الْحُدَيْبِيَّةَ النَّزْوَحَةَ بِنْرِهَا	وَتَبُوكَ عِنْدَ تَلَاظِمِ الْأَمْوَاجِ
وَبِقَاعِ جَيْشِ الْعُسْرَةِ اللَّاتِي هَمَّتْ	بِرَكَاتِ مَاءِ سَمَائِهَا الثَّجَاجِ
يُخْبِرُكَ عَنِ آيَاتِ أَشْرَفِ مُرْسَلِ	رَكِبَ الْبُرَاقِ، وَسَارَ لِلْمَعْرَاجِ

3- المعجزات

المعجزة أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوة الثبوة، ويقصدُ بها إظهار صدق من ادّعى أنه رسول من الله⁽²⁾.

وبالنظر إلى قصائد المديح النبوي في العصر التركي نجد أنها تكثر الحديث عن الإرهاصات التي سبقت بعثته عليه السّلام، وتزخر كذلك بالحديث عن معجزاته التي لا تُحصى بعدد، وقد عدّ كثيرٌ منها في باب الخوارق⁽³⁾.

ولا تخلو مقطوعة من مقطوعات ابن حبيب في المديح النبوي من إشارة سريعة إلى بعض الإرهاصات والمعجزات، مثل: حادثة شقّ صدره عليه السّلام حينما كان يرعى الغنم في ديار بني سعد، وخمود نيران فارس، وارتجاس إيوان كسرى وتصدّع شرفاته، وظلّ الغمامة، وغيرها.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 83.

(2) ينظر: الجرجاني، التعريفات، ص 217.

(3) ينظر: محمود سالم محمد، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ص 230.

ومن ذلك قوله⁽¹⁾: [السريع]

وَشُقَّ صَدْرُ المِصْطَفَى وهو في دارِ بني سَعْدٍ بلا مَرِيَّةٍ
كَشَقَّةٍ، وهو ابن عَشْرِ، وفي مِعْرَاجِهِ، وَقَبْلُ فِي البَعْثَةِ
وقال ابن حبيب واصفاً الإرهاصات التي رافقت مولده عليه السَّلام، مُتَكِّئًا في ذلك على

محفوظه التَّاريخي⁽²⁾: [الطويل]

وإِوانُ مِصرى أَسْقَطَتْ شِرفائَهُ وخُلَّتْ عُرا أبراِجِهِ المتبرِّجَةِ
ونيرانُ بيتِ الفِرسِ باخَ لهيبِها وكانت لَديهم أَلْفَ عامٍ مُوجَّجَةِ

ومنه ذلك حديثه عمَّا حدث معه- صلى الله عليه وسلم- حينما خرج تاجرًا في أموال خديجة

قبل البعثة، وساق أخبارًا دالَّةً على أنَّه نبيٌّ سيبعثُ قريبًا، وبخاصَّةً نبوءة الرَّاهبِ بحيرى، وظلَّ

الغمامة، وحديثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الحيوان، يقول⁽³⁾: [الطويل]

نَبِيٌّ بِحَيْرَى هَامَ فِي دُرِّ بَحْرِهِ وفي الوصفِ من آياتِهِ حَارَتِ الفِكَرِ
نَبِيٌّ أَظْلَأْتَهُ الغِمامَةَ إِذْ مَشَى وعن أمرِهِ جاءتْ إِلى نَحْوِهِ الشَّجَرُ
وخالِطَهُ ظَبْيِ الفِلاةِ وَضَبُّها ووافى إِلى الظامى بدَعوتِهِ المَطَرُ

وعند حديثه عن معجزاته نجده يذكرُ بعضًا منها بإيجاز دون إغراق في التفصيل، تعزو

الباحثة ذلك إلى أنَّ معظم أشعاره مقطوعات لا قصائد، وهذا ما دعاه إلى الاختصار بخلاف غيره من

الشُّعراء المختصين في فنِّ المدائح النَّبويَّة. ومن هذا ذكره لحادثة الإسراء والمعراج، حيث ركب البُرَّاق،

صلى الله عليه السَّلام، وارتقى إلى السَّبْعِ الطَّباق، وحُصِّ بشرفِ المنزلة الرَّفيعة بجوار الخالق، عزَّ

وجل، ونال شرفَ إمامة الصَّلاة بالإنبياء المصطفين جميعًا في المسجد الأقصى، وبهذا يكون قد نال

رتبةً لم ينلها أحدٌ قبله.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 73.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 82.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 111.

وقال⁽¹⁾: [الكامل]

رَكِبَ الْبَرَقَ مُحَمَّدٌ لَيْلًا، وَلَمْ
وَرَقَى لِيَحْظِيَ بِالنَّعِيمِ مِنَ اللَّقَا
وَرَأَى النَّبِيِّينَ الْكَرَامَ وَرَحَّبُوا
وَسَمَّا إِلَى رُتَبٍ هُنَاكَ يَحَارُ فِي
يُرَكَّبُهُ أَفْضَلُ مِنْهُ عِنْدَ الْخَالِقِ
وَالْقُرْبِ مَخْتَرِقًا لِسَبْعِ طَرَائِقِ
بِقُدُومِهِ تَرْحِيبَ خَلِّ صَادِقِ
أَوْصَافِهَا فَكَّرَ الْبَلِيغِ الْحَاقِقِ

ويُنَكِّي ابن حبيب على محفوظه الدّيني في الحديث عن ليلة الإسراء، وما خصّه خالقه فيها

من معجزات، إذ اخترق السّبع الطّباق غلًا، وحباه قرب منزلة منه جلّ شأنه، ومناجاته له، وغيرها من

المعجزات التي لا يمكن حصرها. يقول⁽²⁾: [الطويل]

فَسُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى بِهِ وَأَحْلَأَهُ
وَصَيَّرَ جَبْرِيلَ الْمُقَرَّبِ خَادِمًا
نَبِيًّا رَقَا نَحْوَ السَّمَاءِ لِفَضْلِهِ
وَنَاجَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ
وَكَمْ مِثْلَهَا مِنْ مُعْجَزَاتٍ عَظِيمَةٍ
مَحَلًّا عَالًا يَسْمُو عَلَى الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
لَهُ، وَحَبَاهُ بِالْحَمَائِمَةِ وَالنَّصْرِ
وَشَاهَدَ مَا فِيهِ تَحَارُ أُولُو الْفِكْرِ
وَأَتَّحَفَهُ فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ بِالْبِشْرِ
وَأَيَاتٍ غَايَاتٍ تَجَلُّ عَنِ الْحَصْرِ

وأما معجزة حنين الجذع فذائع مشهور في كتب السيرة النبوية وكتب الحديث، فقد روي أنّه

عليه السّلام، كان يخطب يوم الجمعة إلى جنب جذع، مسندًا ظهره إليه، فلمّا كثر النّاس: قال: "ابنوا

لي منبرًا"، فلمّا قام على المنبر يخطبُ حنّ الجذع حنين الواله إلى رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم،

فما زال يحنّ حتّى نزل إليه، فاحتضنه فسكت⁽³⁾. وكان حنينه حبًّا وشوقًا إليه عليه السّلام لمكانه من

الله عزّ وجلّ. عن هذه المعجزة يقول ابن حبيب الحلبي⁽⁴⁾: [الكامل]

الْجَذْعُ حَنَّ إِلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى
قَدْ كَانَ حَالُ الْقُرْبِ مِنْ أَنْوَارِهِ
فَغَدَا لِفَرْقَةٍ بَدْرِهِ مُتَّصِدًّا
مَنْ ذَا الَّذِي يَقْوَى عَلَى هَجْرَانِ مَنْ
بِاللَّهِ أَقْسِمُ أَنَّهُ مَعْدُورُ
فِي نِعْمَةٍ، إِقْبَالُهَا مَاثُورُ
يَبْدِي الْأَنْبِيَاءِ، وَقَلْبُهُ مَكْسُورُ
بَيْنَ الْبَرِّيَّةِ فَضْلُهُ مَشْهُورُ

(1) ابن حبيب، ديوانه ص174.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص127.

(3) ينظر: ابن حبان، الصّحيح، 436/14 حديث رقم (6507).

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص120.

ومن المعجزات التي أتى على ذكرها في بعض مقطوعاته، حديثه عن مخاطبته للطفل الوليد وحواره معه، وحديثه إلى الغزاة والضَّب، وتسبيح الحصى في يده الشريفة.

4- مولده

ذكر ابن حبيب تباشير مولده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أربع مقطوعات، بخلاف الموضوعات الأخرى التي أفاض ابن حبيب في الحديث عنها فيما يتعلَّق بشخصه عليه السَّلَام. ومن ذلك قوله مشيراً إلى تباشير الفرح التي عمَّت الدُّنيا بمقدمه وميلاده⁽¹⁾: [الطويل]

لمولد خير الرُّسل أحمد أصبحت وجوه الهدى وضآحةً مُتَبَجِّجَةً
وأشرفت الدنيا بأنوار بدره وعادت به أرجاؤها متأرججة

وفي مقطوعة أخرى نجده يشير إلى يمن طلعه وقدمه، إذ تبددت الظلَّماء، وبنصره سُرِّ الموحِّدون، وبِعزمه ذُلُّ الأعداء، فهنيئاً لأُمَّته مقدمه، إذ طابت نفوسهم، وكانوا خير أبناء لخير نبيِّ بُعث للنَّاس، يقول⁽²⁾: [الكامل]

يا رسولَ اللهِ يا عَلمَ الهدى تتشرفُ الألقابُ والأسماءُ
ويمن طالعك السعيدِ قدومهُ ذهبَ الظلام، وآبتِ الأضواءُ
وبنصرِ نضلكِ سرُّ كلِّ موحِّدٍ وبعزِّ عزمكِ زالتِ الأعداءُ
سُفياً لأُمَّتكِ التي طابت لهم بنبيهم بين الورى الأنبياءُ

ويظهر إشراق الدُّنيا بنور الحبيب المُصطفى، صلى اللهُ عليه وسلم، فميلاده أضاء الوجود، وأشرق نهاره مُتهللاً بِشراً، وفاحت الروائح الشَّدِيَّة والنَّسائم العطريَّة، وقد انعكس هذا على الطَّبِيعَة التي شاركت الإنسان بفرحة ميلاده، ففاح الطَّيب ناشراً عبقه، وكذلك الرِّياض تبسَّمت أزهارها ضاحكة فرحة مستبشرة، فقال⁽³⁾: [الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 82.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 52.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 83.

وَجْهَ الْوَجُودِ بِنُورِ أَحْمَدَ مُشْرِقٍ وَبِعَرْفِهِ أَرْجَاؤُهُ تَتَأَرَّجُ
الطَّيْبُ يُطَوِّى عِنْدَ فَائِحِ نَشْرِهِ وَالرَّوْضُ يَخْفَى زَهْرُهُ الْمُتَبَرِّجُ

ويكرّر ابن حبيب المعنى نفسه في بيت آخر في إحدى مقطوعاته، وقد عبّر من خلاله فرحة الوجود مجسّدًا إيّاه في هيئة إنسان تبلّج النور من وجهه فرحًا، وحملت الطيور الخبر وطارت مسرعة ناقلّة تهاني الفرح بميلاده عليه السّلام إلى بقاع الأرض كافّة، وفي ذلك يقول⁽¹⁾: [البسيط]

وَجْهَ الْوُجُودِ اكْتَسَى نُورًا لِمَوْلِدِهِ طَارَ طَيْرُ التَّهْنَانِي فِي نَوَاجِيهِ

5- الإشادة بنسبه الشريف

أكثر ابن حبيب من الحديث عن نسبه صلّى الله عليه وسلّم في أغلب مقطوعاته، وركّز على إبراز نسبه الزّكيّ، فله رتبة عالية الحسب، وحوى شرف المغارس والنّسب، محفوفًا بالمهابة والجلالة، جامعًا شمل الفضائل، وارتبًا شرف الرّفعة من قريش بين العرب. يقول⁽²⁾: [الكامل]

نَسَبٌ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ وَجَلَالَةٌ بِالمصطفى خَيْرِ السُّورَى أَقْصَى الأَرْبِ
نَسَبٌ أَضَاءَ الأَفُقَ مِنْهُ بِنُورِ مَنْ لَوْلَاهُ مَا طَلَعَ الهَلَالُ وَلَا غَرَبَ
نَسَبٌ رَفِيعٌ ضَمَّ جَامِعُ شَمْلِهِ أَعْيَانَ سَادَاتِ الأَعَاجِمِ وَالْعَرَبِ

وإذا كانت قريش تفخر بالمعالي والشرف والمجد والرّفعة بين القبائل، فحقّ لعشيرة آل هاشم بن عبد مناف الذي إليه تنتسب أسرة النّبي عليه السّلام، والذي كان سيّدًا من سادات قريش، ولهم أن يفخروا كذلك بالنّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، الذي يرجع نسبه إليهم، فهو هاشميّ قرشيّ عريق في الأصالة والنّسب، يقول⁽³⁾: [الوافر]

إِذَا افْتَخَرْتُ قَرِيْشٌ بِالمعالي وبالشّرْفِ الرّفيعِ لَدَى الكِرَامِ
فَهَاشِمُهَا خُلَاصَتُهَا وَمَعْنَى عِبَارَةٌ مَجْدُهَا بَيْنَ الأَنَامِ
وَسِرُّ صَمِيمِهَا مَنْ لَا يُسَامِي رَسُوْلَ اللهِ مَصْبَاحَ الظُّلَامِ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص127.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص55.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص234.

ويشيد ابن حبيب في مقطوعة أخرى بأصله الشَّريف، وفيها يشير إلى قبيلة كنانة التي ينتمي إليها النبي عليه السَّلام، فهم من سادات قريش، ولهم مجد أثيل، وفيهم النجدة والشجاعة، والكرم والغوث في الشَّدائد، يقول شاعرنا مضمَّنًا بيتين قالتهما أم حكيم بنت عبد المطلب في رثاء أبيها⁽¹⁾.

[الوافر]

أصول المصطفى أصحاب مجد	لهم شرف يخص لدى الثقات
فما منهم فتى إلا ويرجى	لفتك شدايد أو مفضلات
(وصولا للقراية هيرزيا ⁽²⁾)	وغيثا في السنين المحلات
(عقيل بني كنانة والمرجى	إذا ما الدهر أقبل بالهبات)

6- صفاته

تباينت نظرة الشعراء في الحديث عن صفات الرسول، صلى الله عليه وسلم، فمنهم من تحدَّث عن صفاته المعنويَّة، ومنهم من قصر حديثه على الماديَّة منها، ويرجع السبب في هذا التوسع في الحديث عنصفاته إلى ما ورد في السيرة النبويَّة الشريفة، فكانت مرتعاً خصباً لهؤلاء الشعراء، فوقفوا عليها واستوعبوا الصورة الكاملة لحياته، عليه السَّلام، وبدلوا جهدهم في رسم أدقِّ التفاصيل لها⁽³⁾.

وقد استطاع ابن حبيب أن يوظف محفوظه من السيرة النبويَّة في كثير من مقطوعات، وقد

أفادته ثقافته الواسعة وبراعته في علم الحديث كثيراً في هذا الجانب، ويظهر ذلك في قوله⁽⁴⁾: [الكامل]

أسماؤه وصفاته معلومة	عند الرواة، وعرفه معروف
وخلاله ماثورة وخصاله	مسطورة، وجلاله موصوف
أكرم به سمحاً عطاف نواله	أبدأ على قصاده معطوف
براً أميناً صادقاً صدقاته	المن عنها، والأذى مصروف

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 73-74.

(2) هيرزي: الأسد والحاقد في أموره، القاموس المحيط، مادة هيرز.

(3) ينظر: صلاح عيد، المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النبوة حتى البوصيري، الصفحات 189-203.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 165.

تجدر الإشارة إلى أنه من الصُّعوبة بمكان حصر مناقبه، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي كثيرة جداً، ومن المستحيل أن يحيط بها محيط، أو يحصيها عادٌّ، وقد أكَّد ابن حبيب على هذا بقوله(1):

[السريع]

مَنَاقِبٌ لَا لَيْسَ تُحْصَى، وَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُحْصِيَ مَوْجَ الْبَحَارِ

وعند الحديث عن أبرز الصفات التي وردت في مقطوعات ابن حبيب، نجد أن الحديث عن الجانب المادي لا يظهر إلا في بيتين ضمن مقطوعة ترد فيها الصفات المعنوية بشكل كبير، من حيث الإشارة إلى فضله وعدله وإحسانه وجوده وكرمه وسماحته، وغيرها من السجایا، فيقول(2):

[الكامل]

أوصافُ خيرِ الخلقِ ليسَ لِنِدَّهَا
القَدُّ مُعْتَدِلٌ، عَلَيْهِ جَلَالَةٌ
فَاقَ النَّبِيِّينَ الْكَرَامَ بِخُلُقِهِ
الْفَضْلُ فِي الْأَزْمَاتِ مِنْهُ يُرْتَجَى
وَلَهُ الْمَقَامَاتُ الْمُعْظَمُ أَجْرَهَا
أَكْرَمَ بِهِ سَمْحًا جَوَادًا لَمْ يَزَلْ
مُتَفَرِّدًا بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي
نِدُّ، وَأَنْجَمُ نَعْتِهِ لَا تُحْصَرُ
وَالطَّرْفُ أَدْعَجُ، وَالْمَحْيَا أَزْهَرُ
وَيُخْلَقُ لَهُ، لَكِنَّهُ لَا يَفْخَرُ
وَالْعَدْلُ وَالْإِحْسَانُ عَنْهُ يُؤَثَّرُ
وَلَهُ الْوَسِيلَةُ وَاللُّوَا وَالْكَوْثَرُ
مِنْ رَاحَتِهِ نَدَى الْمَكَارِمِ يَقْطَرُ
مِنْ طَيْهَا عَرْفُ الْهَدَايَةِ يُنْشَرُ

وفي مقطوعة أخرى يمضي الشاعر مُتحدِّثًا عن وفائه وبشره وصدقه وعطفه ولطف معاملته

وجليل تواضعه، فيقوم بنفسه على خدمة الضيفان تواضعًا، ولا يقول إلا الحق(3). [مجزوء الكامل]

كَانَ الرَّسُولُ الْمَصْطَفَى
وَأَجَلَّهُمْ قَدْ دَرَا وَأَكْرَمَهُمْ
وَأَسْرَهُمْ بِشَرًّا وَأَنْدَرَهُمْ
مُتَأَطِّفًا مُتَعَطِّفًا
يَسْرَعِي لخدمته ضَيْفَهُ
وَالْحَقُّ يَتْبَعُ دَائِمًا

أَوْفَى الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَهُ
رَمَهُمْ بِخَالِصِ وَدِّهِ
جَزَهُمْ لَصَادِقِ وَعْدِهِ
مُتَوَاضِعًا فِي مَجْدِهِ
وَيَسْرَعِي السَّمَاخَ بِرِفْئِهِ
فِي حَافِيهِ أَوْ عَقْدِهِ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 113.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 118-119.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 98.

ولا ينسى ابن حبيب أن يشير إلى بأسه وشجاعته، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبأسه في الحرب معروف، وشجاعته لا تنقصها حماسة، كيف لا وهو أَوَّلُ مَنْ يَتَقَدَّمُ الجيوش، تشهد له ساحات الوغى بصبره وشجاعته وثباته، ولولا تشجيعه وصموده وإقدامه لما تشتت الأعداء في بقاع الأرض هرباً منه.

يقول⁽¹⁾: [الكامل]

رُكِبْنَ فِي مَنْ وَجْهَهُ يَجْلُو الْغَسَقُ	بِأَسْ وَشِدَّةَ نَجْدَةٍ وَحِمَاسَةٍ
سَبَقَ النَّبِيِّنَ الْكِرَامَ بِمَا سَبَقُ	ذَاكَ النَّبِيُّ الْمَصْطَفَى الْهَادِي الَّذِي
وَأَحْلَهُمْ سَجْنَ الْحَفِيظَةِ وَالْحَنْقُ	كَمْ شَتَّ شَمْلَ الْمُشْرِكِينَ بِسَيْفِهِ
فَتَفَرَّقَا لَمَّا رَأَوْهُ مِنَ الْفَرَقِ	كَمْ أَلْبَسُوا وَتَجَمَّعُوا لِلْقَائِهِ
يَوْمَ الْوَعَى عَزْمًا وَإِقْدَامًا صَدَقُ	مَنْ قَالَ إِنَّ مُحَمَّدًا أَوْفَى الْوَرَى

وقد أكد ابن حبيب الحلبي على إقدامه وشجاعته في الحرب بقوله⁽²⁾: [الكامل]

لِقَتَالِ أَهْلِ الشُّزُكِ مِنْ غُطْفَانِ	سَارَ النَّبِيُّ بِنَفْسِهِ وَبِصَاحِبِهِ
سَيْفًا وَجِيْدًا كَيْفَ يَأْتَلْفَانِ	هَرَبُوا، وَلَوْ ثَبَتُوا الْغَدَاةَ لَعَايِنُوا

وقد خصَّص ابن حبيب مقطوعاتٍ أخرى للحديث عن أدبه وحلمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلاهما مستوحى من الآخر، فكان ذا خلقٍ رفيع، مهذباً لا يقول فحشاً، فقد أدبه رَبُّ الْعِزَّةِ فَأَحْسَنَ

تأديبه، وكان جميلَ الأخلاق، كريماً معطاءً، حَسَنَ الرَّفْقَةِ وَالْمَعْشَرِ. يقول⁽³⁾: [السريع]

أَخْلَاقُهُ الْحُسْنَى وَتَهْذِيبُهُ	آدَابُ خَيْرِ الرُّسُلِ قَدْ قَارَنَتْ
وَلَوْ أَثَارَ الْفَكَرُ تَلْهِيبُهُ	لَا يَحْصُرُ الْخَاطِرُ أَوْصَافَهَا
أَدَبُهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبُهُ ⁽⁴⁾	وَكَيْفَ لَا، وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ إِذْ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 170-171.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 221.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 58.

(4) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

وقال ابن حبيب الحليمُعدداً صفاته الخُفِيَّة، واصفاً إيَّاه بأروع الصِّفَات⁽¹⁾: [الهج]

رسولٌ حاز آياتِ	وغاياتِ من السَّبْقِ
أُمِينٌ جاءَ بالإيما	ن، والإحسانِ والصدقِ
جميلاً الخُلُقِ والأخلاقِ	ق، جُمُ الرفدِ والرَّفْقِ
أفادَ الجِنَّ والإنسا	ن، علماً باسمِ البَرَقِ
بِهِ أَضْحَتْ مَنِيرَاتِ	نواحي الغُربِ والشَّرْقِ

ولم ينس ابن حبيب أن يشير إلى وقاره وتواضعه، فلم يكن متكبراً على أحد، وكان خير ذخِر عند الشَّدائد، سريعاً إلى من يستنجد به، وقد فاق الأنبياء جميعاً بما خصَّه به الله سبحانه وتعالى من

جليل الصِّفَات. يقول⁽²⁾: [المجتث]

أُكْرِمَ بِهِ ذَا وَقَارِ	يمشي على الأرضِ هَوْنًا
عِنْدَ الْمَهَمَّاتِ ذُخْرًا	وفِي الْمَلَمَّاتِ عَوْنًا
سَادَ النَّبِيِّينَ طُرًّا	علمًا وَفَضْلًا وَصَوْنًا
لَأَنَّ بَيْنَ غُلَاهُمُ	وَبَيْنَ غُلِيَاهُ بَوْنًا

وتتكرَّر المعاني نفسها التي سبق ذكرها في مقطوعة أخرى، فقال⁽³⁾: [البسيط]

كان النبيُّ الذي واقَتْ شمائله	بالحلم مؤتزرًا والصبِر مُشتملاً
يعفو ويصفحُ فضلاً بعد مقدرة	ويحبس النفسَ عند الشرِّ محتَملاً
وما يُقابلُ من يأتي بمظلمةٍ	في حقِّه معرضاً عن قول مَنْ جهلاً
وكم عَداً أمراً بالعرفِ مجتهداً	وكم أنالَ، وكم أعطى، وكم بذلاً
تفضيلُ تفضيله لا ينتهي أبداً	يا ذا الولاءِ فخذُ أوصافه جَملاً
مَنِي عليه سلامٌ بنشره عَطِرٌ	ما سارَ بدرُ الدجى في الأفقِ منتقلاً

ويمضي ابن حبيب مُتحدِّثاً عن فصاحته صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبلاغته، فهو أفصح من نطق

بالضَّاد؛ لأنَّه أوتي جوامع الكلم، ولم يكن فاحشاً في كلامه، ولم يكن سبَّاباً ولا لعاناً، بل لا يقول إلا ما

كان جوهرًا، ولا يتخير من الألفاظ إلا ما كان دررا. وفي هذا يقول⁽⁴⁾: [البسيط]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 174.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 215.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 187.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 172.

محمد أبلغ الغُربَ الذين مَضَوْا نعم، وأفصحَ مَنْ بالضَّادِ قد نطقًا
جوامعُ الكلمِ المأثورِ طيبَها آتاهُ مَنْ أوجدَ الإصباحَ والعَسَقًا
للهِ ألفاظُهُ اللائِي لنا نَشَرْت جواهرِ العلمِ من تبيانِها نَسَقًا

وفي مقطوعة أخرى يتحدث عن زهده وقناعته صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأبى أن ينساق وراء الدنيا وأهوائها، وأعرض عن متاعها الزائل، وابتعد عن لذاتها، مختارًا طريق الهدى منهاجًا وشرعةً،

لينال الحظوة بجانب العزيز الكريم. يقول (1): [الوافر]

نبيِّ وأفتِ الدنيا إليه وجاءتْهُ مفاتيحُ الكنوزِ
ومالتْ نحوهُ فأبى عليها وقابلَها بإفراطِ النُّشورِ
تجنَّبَها، وأعرضَ عن جَنَها ولأدِّ بجانبِ الملكِ العَزيزِ

وختامًا يؤكد ابن حبيب أن شمائله وفضائله وصفاته، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لا يمكن أن

تُحصَر، فهي تفوق حَبَّاتِ الرَّمْلِ أو الحصىِ عدداً، لا بل تزيد عند ذلك وأكثر، فهو المُقدَّم رتبةً في كلِّ

شيء. وفي هذا يقول (2): [الكامل]

يا راغباً في حَصْرِ فضلِ محمدٍ خَفَّضَ عليك، ففضلُهُ لا يُحصَرُ
إن قلتَ مِثْلَ الرَّمْلِ أو مِثْلَ الحَصَا أو مِثْلَ قَطْرِ الغَيْثِ فُننا أَكثَرُ
أكرمِ به مولىً علياً قَدْرُهُ مُتَقَدِّماً كُلُّ لِه يَتَأخَّرُ
ذا رُتَبَةٍ عند الإلهِ عَظيمةِ مَعروفُها بين الوَرى لا يُنكَرُ
صَلَّى عليه اللهُ ما هَبَّ الصَّبا من نحوِ روضَتِهِ الخَظيرةِ يَخْطُرُ

7- لزوم محبته النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم

كغيره من شعراء المدائح النبوية أظهر ابن حبيب محبته للرسول الكريم بشكل واضح وبخاصة

في أثناء رحلته حاجاً إلى الديار المقدسة، فهام به وامتزج حبه بهديه، والسَّير على سُنَّته، وانعكس

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 135.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 120.

كذلك على حبه لآله الأَطهار، وعترته الطَّيِّبين الأخيار، رغبة في النَّجح في الآخرة، والبعد عن النَّار،

يقول ابن حبيب داعياً قارئ أشعاره ألا يحيد عن هدي النَّبي، ويلزم محبته ذريته⁽¹⁾. [الكامل]

لا تَعُدُّ عن سُنَنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ
وَقَرِّ وَعَظَّمْ قَدْرَ عَشْرَتِهِ وَمَنْ
وَاسَأْلكَ سَبِيلَ كَرَامَةِ الزَّوْجَاتِ وَالـ
وَارْفَعْ لأهْلَ البَيْتِ رَايَاتِ الوُولا
وَالزَّمْ مَحَبَّةَ آلِهِ الأَطْهَارِ
يُنَمِّي إلى الذُّرِّيَّةِ الأَخْيَارِ
أولادِ والأَعْوَانِ والأَنْصَارِ
تَجِدِ الوَقَايَةَ من عذابِ النَّارِ

وفي مقطوعة أخرى يقول ابن حبيب في لزوم محبته الرَّسول⁽²⁾: [المنسرح]

يا صاحبَ العِزِّ والقَبولِ وَمَنْ
يا مَنْ له مَجْلِسٌ حَوَى شَرَفاً
ويظْهَرُ العِلْمُ في جِوَانِبِهِ
حُبُّكَ يا أَشْرَفَ الخلائِقِ في
أنتَ الَّذي تُبْطِلُ الوَعِيدَ كما
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ ما خَطَرَتْ
حَيَّرَ أَهْلَ العُقُولِ مَعْجَزُهُ
بِالقَطْرِ من سَحْبِهِ يَطْرَرُهُ
والدَّرُّ من فيضِ فيه يُبِرَرُهُ
قَلوبِ أَهْلِ الرَّشادِ مَرَكزُهُ
وعَدَّ المَرَجِي بِذَلِكَ يُنْجِزُهُ
رِيحُ بَغْصَنِ النَّقَا تَهْزِزُهُ

8- الحديث عن الشَّفاعة

يُرادُ بها "السؤال في التجاوز عن الذَّنوب، من الذي وقع الجناية في حقه"⁽³⁾. وبما أنَّ الشَّفاعة

ركيزة أساسية في المدائح النَّبوية، وبما أنَّ الرَّسول الكريم مخصوص بالشَّفاعة يوم تقوم السَّاعة، فإنَّ

ابن حبيب لا يرجو نوالاً من مدائحه أو عطاءً، وإنَّما يرجوه هو مغفرة الذَّنوب. قال متوسلاً برسول الله،

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رغبة في الحصول على مغفرة الله، وأملاً في شربة ماء من حوضه المورود،

حيث تردُّ أُمَّتُه عليه عطشى، ثُمَّ يشفع لهم عند الصراط. قال⁽⁴⁾: [السريع]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 124.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 134.

(3) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص 1037.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 183.

يا خاتم الرُّسُل، ويا مَنْ لهُ
يا معدنَ الجودِ وبحرَ النَّدَى
يا مَنْ إذا ما أَمَّه قاصِدٌ
كُن لي شفيعاً في ذنوبي فقد
وانظر لحالي، واسقني شَرِبَةً
إني تطفألتُ على مادي
إذا قلتُ في مدحك ما قُئتُهُ
فأقبلهُ مِنِّي، وأننني به
فضاك لا يحصرهُ واصِصفُ

ظِلُّ على من يرتجيه ظليلُ
يا صاحبَ القَدْرِ النَّبِيهِ النَّبِيْلُ
يلقاهُ بالوجهِ الجليِّ الجليلُ
أُقيتُ منها تحتَ حِمْلِ ثَقِيلُ
من حوضِكَ الحالي تروي الغليلُ
وصَفِّ معاليك الأثيرِ الأثيلُ
وهو قليلٌ من كثيرٍ جزيلُ
جائزةٌ حائزةٌ للجميعِ
إنَّ الدراري حَصْرُها مُستحيلُ

ويعترف ابن حبيب في مقطوعة أخرى بذنبه، فيخاطب رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاصداً إيَّاه وراجياً ألا يردَّه خائباً، متوسلاً طالباً شفاعته، مُقرّاً معترفاً تائباً طالباً المغفرة عن ذنوبه التي اقترفها. يقول⁽¹⁾: [السريع]

يا خيرَ مبعوثٍ له طلعةٌ
جئتُ إلى ناديك أرجو القِرَى
كُن لي شفيعاً، فازتكاب الهوى
نورُ الهدى منها أقرَّ العيونُ
من غيثِ كفيك المغيثِ الهُتونُ
أوقعتني بين الشَّجا والشُّجونُ

ثانياً: المديح

يرتبط هذا اللون من المديح بمناسباتٍ خاصَّة، كالتَّهنئة بالأعياد الدِّينية، أو بقدم مولود، أو بعيد من الأعياد، أو بشفاء من المرض، وغيرها من المناسبات، ولم يترك الشعراء واحدةً منها دون أن ينظموا فيها شعراً في التَّهنئة، وسرعان ما تنقل بالتَّهنئة إلى المدح، رغبة في الحصول على النِّوال. ومن ذلك إلى قول ابن حبيب في الجمع بين مناسبتين تحقِّق فيهما الفرح والسُّرور للأُمَّة: الفرح بحلول عيد الفطر، والفرح بشفاء السلطان الملك الأشرف⁽²⁾. [الرجز]

يا مِلَّةَ الإسلامِ بُشْرَاكِ أَتَتْ
عيدانٍ قد عادا بفضلِ حقِّ أنْ
في عيدكم عافية السُّلطانِ
تَسُدُّوا به ألسنة العيدانِ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 213-214.
(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 224.

وله مقطوعة في مدح السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، حينما خرج لقتال المغول سنة (702هـ)، في جيش لا يعرف له أول من آخر، وهزمهم شرَّ هزيمة، وجال بسيفه في رقابهم، ففرح المسلمون بهذا النصر العظيم، وعمَّ الوجود السرور والفرح، وانجاب الظلام عن العباد. يقولُ مُصَوِّراً شجاعته وبأسه حيث كان يتقدَّم الجيش فرداً، وأخذ يضرب رقابهم بسيفه البتَّار، وهو دائم التأييد بالنَّصر الذي تحقَّقه سيوفه الحادَّة التي بها أفنى المغول، وجرَّعهم كؤوس المذلَّة والهوان. يقول (1):

[الكامل]

مَلِكٌ سَمًا نَحْوِ السَّمَاكِ تَرْفَعًا فَمَحَاؤُهُ فَوْقَ السُّهَى وَالْفَرْقَدِ
ضَرَابُ أَعْنَاقِ الْعِدَا، فَحَسَامُهُ لِّلْمَعْتَدِي، وَنَوَالُهُ لِّلْمَجْتَدِي
وَتَرَاهُ أَوَّلَ طَاعِنِ يَوْمِ الْوَعَى وَالْخَيْلُ تَعْتَرُ بِالْوَشِيحِ الْأَمْدِ
النَّاصِرُ الْمَنْصُورُ دَامَ مَوْيِّدًا يُفْنِي الْمَغُولَ بِلَهْذِمٍ (2) وَمُهَنَّادِ

لعلَّ أطولَ مِدْحَةٍ نظمها ابن حبيب في المديح الإنساني كانت في شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت749هـ)، إذ استغرقت ستين بيتاً، واستهلها بمقدِّمة غزليَّة عبَّرَ من خلالها عن شوقه وحنينه للقيا ممدوحه، وقد أطل الشَّاعر في هذه المقدمة، فبلغت عشرين بيتاً، قبل أن يلج إلى غرضه الرَّئيس، حيث أشاد بشجاعته وكرمه، وعبَّرَ عن سعادة مصر بتلك الزَّيارة الميمونة، فشاركته الطبيعة الفرح، فالرَّوض أنبت، والأزهار ضحكت، والأمواه أغدقت، والورود فاح شذاها، والأطيار غنَّت، والغزلان مرحت، والنيل فاض ماؤه كرماً وحباء.

وأشار إلى فضائله التي عمَّت الجميع، إذ أمَّه المعتفون فأفاض عليهم من جوده العميم، وانتقل بعد ذلك ليشير إلى براعته في تدبيره لديوان الإنشاء، وإجادته للكتابة، وهذا شأن آل فضل الله العمري، الذي عرفوا بانحدارهم من أسرة عريقة تنتمي إلى العلم، واشتهروا بعطائهم المفرط. يقول (3): [البسيط]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 99.

(2) اللهذم: القاطع من الأسنة، القاموس المحيط، لهذم.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 69-70.

شمسُ المفاخرِ، والعلباءِ نيرةً
أنت الذي عنه أخبارُ المكارمِ قد
أنت الهمامُ الذي آفاقُ همتهِ
لا أشتهي لعداك الموتَ عن كذبِ
بالله أحلفُ صدقاً ما همُ بشرِّ
يا مَنْ إذا حلَّ أرضاً أنبتتْ وزهتْ
قد أصبحتْ مصراً للأبصارِ مفتنةً
أنفاسُها عبقَّتْ أزهارها رمقتْ
ومنبَرُ اللّهُ منصوبٌ بروضتها
والنيلُ قد عادَ محمراً بها خجلاً
لولا أيديك ما زادتْ أصابعه
أنت الخصبُ بها ليس الذي ذكروا
لولاك ما يممّ العافون ساحتها
دبرت إقليمها تدبيرَ مُقتدرِ
لله أقلامُ فضلٍ منك قاطعةً
يا ساكني مصرَ هنيئتمُ بشخصِ فتى
من فتيةٍ فات نجمُ الأفقِ شأوهمُ
قومٌ أقام لأهل العلمِ نائلهمُ
سماءُ سُوددهمُ بالحمدِ قد رُفعتْ
كم بالندي جبروا في الناسِ مُنكسراً
كم أنقذوا مُقتراً يمتازُ أنعمهمُ
بشخصِ أحمدِ رُسلِ الجودِ قد ختمتْ
زالوا فبرحَ بالعافينَ فقُدُّهمُ
يا كعبةَ القصدِ ما طاف العفاةُ بها
ها قد أتيتُ نذاك الطلقِ واضحهُ
أشكو إليك خمولاً في خمائله
وبعد أن شمتُ برقاً من حماك فقد
وقد تهجمتُ في مدحِ أتيتُ به
أنت الذي في الورى مداحُ سُودده

أضحت، ولولا شهاب الدين ما وضحت
صحت، ومن خمر كاسات السقامِ صحت
نجومها لشياطين العداةِ دحت
فإن كُذُنَ الأسي أكبادهم دبحت
لكنهم أكذب في الحيِّ قد نبحت
وبالمياهِ على وجهِ الفلا نضحت
لم لا ومنك بعين القربِ قد لمحت
أطيأها نطقت، غزلانها مرحت
لذا عدتْ مُشتهى من نفسه تزحت
إذ شَبَّهوه بنعماك التي طفحت
ولا الخلائقُ منه بالوفا فرحت
يا مَنْ سَمَّا كَفَّه بالجدِ قد سمحت
ولا خواطرُ أهليها بها انفسحت
أقلامه بمياه الرزقِ قد رشحت
عود القتا فضلت سَهَم القتا فضحت
أقام فيكم وذكري جوده تزحت
أفعال أمرهم نحو السيفِ نحت
سوقاً بضائعهم في ريعه رِحت
وأرضُ أنعامهم للوفدِ قد سطحت
حوادثُ الدهرِ في أحواله فدحت
من نارِ فرطِ همومِ وجهه لَفحت
وبالأفاضلِ من أسلافه فُتحت
وألسنُ الشكرِ ما زالت، وما برحت
إلا وفي بابها حاجاتهم نَجحت
إذ أوجهُ الدهرِ والأيامِ قد كلحت
ريحُ المتاعبِ والأنكادِ قد نفحت
نأى، وعن كاهلي أنقالها طرحت
سُحِبُ القصورِ على أبياته سَفحت
تزدادُ فخراً وتشريفاً إذا مدحت

ولابن حبيب مقطوعة مدح فيها الشيخ علاء الدين أبا الحسن علي التنوخي المعري (ت732هـ)، أشاد فيها ببراعته في نظم الفرائد الفقهية التي جرى فيها أبا تمام، مقتفياً طريقة والده في هذا اللون من النظم⁽¹⁾، يقول في مدحه: [الطويل]

فتى فاق في نظم الفرائد قايضاً على طارف الفضل العزيز وتالده
وجارى حبيباً في بدائع شعره ولا غرو أن يحذو حذو والده

أما ممدوحه بدر الدين محمد بن عبد الله بن المجد المرشدي، فيشيد بعلمه ومعرفته، ويطلب ممن يبتغي علماً أن يتوجه إلى الصعید طالباً لقاءه والإفادة من علمه، ومن يحل بمنزله الرّحب الواسع يجده عامراً بالصيُوف الذين قدموا إليه من شتى بقاع الأرض، من تهامة والشّام ونجد، ولم يفته الإشادة بجوده وكرمه، فمن رام النّجح والرّشد في مبتغاه، فما عليه إلاّ قصده. يقول⁽²⁾: [الرجز]

يمّم إلى أرض الصّعيد واجتمع بالمرشدي شيخ مصر تسعد
وانزل به تلق مَحلاً أهلاً بمتهم ومشيم ومُنجد
أكرم به من عارف رَحْب الدُّرى جَمّ القري، والجودُ عذّب الموردِ
يا ذا الذي يطلب رُشد نفسه عليك فما تبتغي بالمرشدي

وكتب ابن حبيب الحلبي قصيدة مدح فيها القاضي تاج الدين السُّبكي عندما قدم الديار المصرية زائراً من دمشق. وتتمحور مضامينها حول التّرحيب بأوبته من الشّام، والبشر بمقدمه، إذ فرح الغمام، وانهلّ المطر فرحاً واستبشاراً بهذه الزّيارة، وانتقل بعد ذلك متعدداً صفاته، فهو قاض ثبت، ولا يحدد عن الشّرع والحقّ، مؤيد في أحكامه، جواد في عطائه، ينحدر من أسرة عريقة، اهتم أفرادها بالعلم، ومنهم القاضي السُّبكي الذي اشتهر بكثرة التّصنيف، وكان مجلسه عامراً على الدّوام بطلبة العلم. وفي ذلك يقول⁽³⁾: [الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 98.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 103.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 206-207.

ومسرةً بخصوصه وعمومه
 بنزوله، واخضر لون هشيمه
 بالنور من أعلامه وعلومه
 ينفي عن المقهور ظلم خصومه
 ويكف عن ذي الحق كف غريمه
 شرف الألى معنى الزمان كريمه
 يُسدي عقود الدر من منظومه
 يُبني الحلال على قواعد خيمه
 فسطاط مصر، وطاب عزف نسيمه
 يختال في جناتيه ونعيمه
 بإياب فياض النوال عميمه
 والأفق زين فرحة بنجومه
 منطوقه الحالي، ومن مفهومه
 أوراقها ثمر زها بكرومه
 خجالت رامج الخط من تقويمه
 أيامه عز كعز حميمه
 شم تغار الشم من تفخيمه

قدم الغمام فمرحباً بقدميه
 أهلاً بغيث صيب أثرى الثرى
 أهلاً بغيث عارف يهدي الورى
 أهلاً بأوبئة حاكم متنبت
 ويؤيد الشرع الذي من قوله
 تاج الغلا معنى الوجود، ولفظه
 يبدي برود الزهر من منثوره
 يسمو ببيت خزرجي عامر
 بمسيره عذبت مياه النيل من
 والشام لما شام بارقه عدا
 والكون أضحى ضاحكاً مستبشراً
 وبزعران الأفق راح مخلقاً
 قاض له لفظ يبين الحق من
 وله التصانيف التي للفضل من
 وله طريق مستقيم واضح
 للسنة الغراء والفصا في
 ولمجلس الحكم العزيز بشخصه

وقال ابن الحبيب الحلبي مادحاً شمس الدين الذهبي، مُشيداً بعلومه، واصفاً إياه بالشمس التي

أشرقت أنوارها، وقد أحبه أهل العلم والأدب لما امتاز به من راحة العقل والفهم، فجميعهم يميلون إليه
 ويحبونه، وجاء اللقب موافقاً لوصفه، فهو الذهب الإبريز الذي يميل إليه الناس جميعهم. قال (1):

[الرجز]

لحببه أهل التقى والأدب
 وكيف لا يميل نحو الذهبي

شمس علوم أشرقت أنواره
 وأي ذي فهم إليه يميل

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 61.

وقد مدح ابن حبيب نائب حلب والشاماً الأمير سيف الدين إشقتمر الناصري بن عبد الله المارديني (ت776هـ)، الذي غزا سبيس وفتحها في السنة التي مات فيها، وكان فتحاً عظيماً، سرَّ به الملك الأشرف شعبان. وفيه يقول⁽¹⁾: [السريع]

الملك الأشرف إقباله
لما رأى الخضراء في شامه
وعاين الشهباء في مكمه
ساق إلى سوق العدى أذهماً
يُهدى له كل عزيز نفيس
تختال، والشقراء عجباً تميس
تجري، وتبدي ما يسر الجليس
وساعد الجيش على أخذ سيس

وقال ابن حبيب مادحاً السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت713هـ)، الذي أصدر مرسوماً بإجراء الماء من عين بلد الخليل -عليه السلام- إلى القدس الشريف. فروى العباد بصنيعه، وأغناهم عن المطر، وأعاد الحياة إلى نفوسهم العطاش. يقول⁽²⁾: [الكامل]

طوبى لمنك ليس يخصر أجره
رؤى الورى، وعن الحيا أغناهم
أجرى القناة بأرض بيت المقدس
وإليهم أهدى حياة الأنفس

وقد مدح ابن حبيب القاضي شهاب أحمد بن فضل الله العمري (ت749هـ)، وكانت بينهما صحبة تامّة وعلاقة جيدة، ونستطيع أن نتمثل بهذه القصيدة التي قالها ابن حبيب في ابن فضل الله العمري، حيث مدحه مُشيداً بمقدّمه الذي تزامن معه نزول الغيث، وقد فرحت الأرض وانهلَّ وجهها بشراً بزيارته، ومدح كرمه وعلمه، مبيّناً أنّه ملجأ لكل من طلب النجدة من الغفاة. قال⁽³⁾: [السريع]

أهلاً بغيث الجود عند القدوم
وحبذا سئل العطايا أتى
وافى ابن فضل الله في صحبة
وأب كالسيف إلى غمده
والأرض من أفراحه أصبحت
أكرم به من أروع ماجد
ومرحباً بالبحر بحر الغلوم
وطائر السغد عليه يحوم
مكتنفاً كالبحر بين النجوم
مبغماً من قصده ما يروم
تضحك تيهاً لبكاء الغيوم
سحاب كفيّه سُفوح نجوم

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص136.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص141.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص198.

لا عيبَ فيهم غيرَ جدوى يدٍ لم تستمعَ قولَ عذولٍ يَومٍ
يا ملجأَ العافينَ يا مَنْ لِحَا جاتِ أولي القصدِ سريعاً يقومُ
لا زلتَ طولَ الدهرِ في نعمةٍ بينَ الورى طيبُ شذاها نمومُ

ومدح ابن حبيب معاصره الشاعر شرف الدين حسين بن ريان الحلبي (ت770هـ)، فكان
جواداً ذا فضل على الناس، حريصاً على المكارم، أدبياً وناظماً ناثرًا بحرًا زخارًا في العلوم. يقول
شاعرنا في حقِّ ابن ريان قارئاً الاسم بالمُسمَّى، إذ روى صدى النفوس بعلمه، وأفاض عليها من جوده
وكرمه، فحقَّ له أن يُسمَّى ابن ريان⁽¹⁾. [الكامل]

أجرى عيونَ الفضلِ ما بينَ الورى مولى بإسداءِ المكارمِ قد سَمَا
وأفاضَ من بحرِ العلومِ سَحائباً قسماً لقد روى ابنَ ريانَ الظمَّأ

وقال ابن حبيب الحلبي مخاطباً الأمير سيف الدين أرغون الكامي (ت758هـ)، نائب السلطنة
في حلب"، حينما قصد "أبلستين" سنة (754هـ) باحثاً عن الأمير قراجا بن دلغادر مقدّم التركمان
للقبض عليه، فوُلّي الأخير هارباً منهزماً. ولمّا وصلتها جيوش الأمير سيف الدين أرغون، وجدوها قفرة
خالية، فهدموا حصونها وأسوارها. وفي ذلك يقول الشاعر مادحاً الأمير مشبهاً إياه بأسد شديد شجاع،
وقد سار معه التوفيق والتمكين لنزالها وقتالها⁽²⁾. [الكامل]

نازلتْأبلستين يا ليثَ الشَّرى ونزيتُكَ التوفيقُ والتمكينُ
بساط في يومِ كأمسٍ قد مضى عادتْ ودكُ بناؤها الموضوعون⁽³⁾
أقوتُ معالمها، وأقفرَ ربُّعها وكذا ديارُ الظالمينَ تكونُ

وأشاد ابن حبيب بآراء الأمير سيف الدين أرغون (ت758هـ) النَّاقبة وعزماته القويَّة، مشبهاً
إياها بالأسهم الصَّائبة، فأكرمَ به نائباً على الشَّام، إذ ساد فيها الأمن والاستقرار في عهده، وأبعد عنها
صروف الدهر ونوائبه. قال⁽⁴⁾: [الرجز]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 202.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 219.

(3) الموضوعون: وضم الشيء يضمنه فهو موضوعون ووضين: ثنى بعضه على بعض، وضاعفه ونضده. القاموس المحيط (وَضَن).

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 57.

آراءُ سيفُ الدين أرغون لها أسهمُ عزمٍ للأعادي صائبة
أكرمُ به على الشام نائِباً مؤيداً كشافاً كل نائِبَه

وفي مقطوعة ثالثة مدح ابن حبيب الأمير سيف الدين أرغون الكاملى (ت758هـ)، فأشاد
بمعروفه الذي أراح نفوس العباد، حينما أمر ببناء البيمارستان بخلب، داعياً الله أن يكرمه ويحسن نزله
إذ إنه تُوفِّي في السنَّة نفسها، لاهجاً أن يرتقي أعلى الدَّرَجان؛ لأنَّه أسدى إلى المرضى معروفاً سيظُلُّ
مقروناً بالشُّكر والدُّعاء له منهم جميعاً. يقول⁽¹⁾: [الرجز]

قولا لأرغون الذي معروفه بالعُرفِ قد أحيا النفوس والأرج
أنزلك الرحمنُ خيرَ منزلٍ رخبٍ، ورَقاكِ إلى أعلى الدَّرَجِ
بنيت داراً للنجاة والشفا ليس بها على المريضِ من حَرَجِ⁽²⁾

ثالثاً - الرثاء

أكثر ابن حبيب من النظم في هذا اللون من الشعر، وتعزو الباحثة ذلك إلى صلته الوثيقة
برجال العصر على اختلاف طبقاتهم، فنجده يرثي في المقام الأول الأهل، والملوك والأمراء، والنواب
من رجال الدولة، والقضاة والشيوخ والعلماء والفقهاء.

1- رثاء الأهل

يُلاحظُ أنَّ معظم الأشعار التي نظمها ابن حبيب في هذا اللون من الشعر كانت على شكل
مقطوعات لا تتجاوز السبعة أبيات. وعند الحديث عن رثائه للأهل والأقارب نجد له مقطوعتين:
الأولى قالها بعد وفاة والده زين الدين عمر (ت726هـ)، وقد خاطب أباه حينما حضرته الوفاة،
وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، مبشراً إياه بالخير من الرسول، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وشفاعته له،
جزاءً على ما قدَّمه من خدمةٍ لسنَّته النَّبويَّة الشَّريفة المُطهِّرة.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص81.

(2) اقتباس بالإشارة إلى الآية القرآنية: "ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم"، سورة النور، آية (61)، سورة الفتح، آية (17).

يقول(1): [مخرج البسيط]

لِوَالِدِي قُلْتُ حِينَ وَلى مُفَارِقًا نَفْسَهُ الْعَفِيفَةَ
أَبَشِرْ مِنَ الْمُصْطَفَى بِخَيْرِ يَا خَادِمَ السُّنَّةِ الشَّرِيفَةَ

فالشاعر -هنا- يبشّر والده خادم السنّة النبويّة بأن مصير نفسه العفيفة هو الخير من صاحب

السنّة الشريفة، محمد صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا التّانية فكانت في رثاء أخويه كمال الدّين محمد، وشرف الدين الحسن، اللّذين تُوفّيّا سنة (777هـ)، وقد بدا ابن حبيب حزينا كئيّبا لهذه الفاجعة التي خسر فيها اثنين من إخوانه في السنة نفسها، فشتت الدّهر شملهم بعد أن كان ثلاثتهم مجتمعين، فصار اثنان إلى القبر، وقد ضاقت الدّنيا بالشاعر بعدهم، فأحسّ بأنّه مُفارق أيضا، ولاحق بهما، وما عليه إلّا أن يجهّز نفسه للرّحيل. قال(2):

[الوافر]

ثَلَاثَةٌ أَخْوَةٌ كَانُوا جَمِيعًا فَصَارَ اثْنَانِ مِنْهُمْ لِلْحَفِيرِ
فِي أَهْلِ الْحِجَى قَوْلُوا بِنُصْحِ لَثَالِثِهِمْ تَأْهَبُ لِلْمَسِيرِ

2- رثاء الملوك والأمراء

نأى ابن حبيب بنفسه في هذا اللّون من الرّثاء بعض الشّيء عن البكاء والنّدب والحزن، وجعل اهتمامه قاصرا على ذكر مناقب المرثي التي تُخلّد ذكره أبد الدّهر، وهذا ما نجده في مرثيته للسلطان الملك المنصور المتوفّي سنة (689هـ)، ففارق الدّنيا بعد أن حقّق الفتوحات والانتصارات بجيشه القويّ، الذي حمى من خلاله ديار المسلمين، وشتت شمل أعدائه، وانهزموا صاغرين بين قنيل وأسير وفارّ هارب. وانتقل بعد ذلك ليحدّث عن شيمه الخالدة من كرمٍ وعونٍ وعدلٍ وإحسانٍ، وقد عبّر في

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 163.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 131.

البيت التأسع عن عظمة فقد هذا الملك، فبكته البلاد حزناً وأسفاً لرحيله، وقد شارك المطر الإنسان

الحزن على الفقيد، فانهأت سحبه منسكبة كلؤلؤ منثور. يقول⁽¹⁾: [الكامل]

مَلِكٌ عَنِ الدُّنْيَا نَأَى مِنْ بَعْدِ مَا
وَحَمَى ثَغُورَ الْمَسْلَمِينَ بِعِزِّهِ
كَمْ نَارٌ حَرِبَ شَبَّهَا فِي جَحْفَلٍ
مَا بَيْنَ مَقْتُولٍ تَرَى أَعْدَاءَهُ
فَدُمُ جَزِيلِ الْفَضْلِ، غِيثٌ نَوَالِهِ
عَوْنُ الْمَرْجِي مَنْهَلُ الظَّامِي هُدَى
الْعَدْلُ وَالْإِحْسَانُ مَحْسُوبٌ إِلَى
بَسْرِيرِهِ سَارُوا فِيهَا لِلَّهِ مِنْ
وَلْفَقْدِهِ بَكَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ بِهَا
حَيَّا الْغَمَامُ ضَرِيحَهُ وَجَبَاهُ مِنْ

فَتَحَ الْفَتْوحَ بِجَيْشِهِ الْمَنْصُورِ
وَسَبَا الْغُدَاةَ بِسَيْفِهِ الْمَشْهُورِ
بِذَوِي الْعَوَاسِلِ وَالظُّبَا مَعْمُورِ
فِيهَا، وَبَيْنَ مُقَيَّدِ مَأْسُورِ
يَرِبُو عَلَى الْمَحْسُوبِ وَالْمَحْصُورِ
مَنْ ضَلَّ أَمَّنَ الْخَائِفِ الْمَقْهُورِ
مَا يُجْتَلَى مِنْ نَعْتِهِ الْمَأْثُورِ
بِحَرِّ بَاطِبَاقِ الثَّرَى مَسْجُورِ
مِنْ أَمْرِ أَسْفَاً، وَمِنْ مَأْمُورِ
أَسْلَاحِهِ بِاللُّوْلُؤِ الْمَنْثُورِ

ورثى ابن حبيب الملك المهيب الشجاع الشهيد الأشرف خليل بن قلاوون الذي مات قتلاً سنة

(693هـ)، وقد تألم الشاعر كثيراً لطريقة مقتله غدرًا على نحو ما تذكر المصادر التاريخية، إذ ضربه

بالسيف على كتفه، فوق أرضًا، وعاجلوه بأخرى في دبره حتى أطلع من حلقه، ومثلوا بجنته، وتركوه

ملقى على الأرض يومين. وفيه يقول شاعرنا⁽²⁾: [الكامل]

تُبَّأَ لَأَقْوَامٍ بِمَالِكِ رَقَّهِمْ
وَأَفْوَهُ غَدْرًا، ثُمَّ صَالُوا جَمَلَةً
وَلَّى شَهِيدًا نَحْوَ رَوْضَاتِ الرِّضَى
وَمَضَى يَقُولُ لِقَاتِلِيهِ تَرَبَّصُوا

قَاتَلُوا، وَمَارَقُوا لِحَالَةٍ مَتْرَفِ
بِالْمَشْرِفِيِّ عَلَى الْمَلِيكِ الْأَشْرَفِ
يَخْتَالُ بَيْنَ مُزَهَّرٍ وَمَزْخَرَفِ
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَرَاصُ الْمَوْقِفِ

وعلى عادة الشعراء في تصوير سطوة الدهر في مقام الرثاء، بدا ابن حبيب ناقدًا عليه، فمن

طبعه الإساءة والسطوة والحقده، مع أنه لا مردًا لحكمه. وحزن لرحيل الأمير أرتنا بن صاحب الروم

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 125.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 166.

المعروف بالثوئين (ت753هـ)⁽¹⁾، الذي حلَّ به الردى، وتبدَّل سروره حزناً، وانتقل من سكن القصور إلى سجن القبور، وهذا ليس غريباً على الدهر وتقلباته فتارة يسرّ وأخرى يفجع. فسحقاً لصفوفه المؤلمة، وأحواله المحزنة، وفي ذلك يقول⁽²⁾: [المتقارب]

لحى الله دهرًا شديد السُّطَا حوادثه بظباها فرتنا
وبعد القصور ونيل السُّرو ر بسجن القبور ارتنا ارتنا

ورثى ابن حبيبالأمير سيف الدين سُودي الناصري (ت714هـ)، نائب السلطنة في حلب، إذ خدمه وعمل مباشرًا لديوانه، وأسبغ عليه من نعمه وإحسانه الشيء الكثير، فألمه رحيله، ونظم فيه بيتين، مركزًا فيهما على مناقبه التي بدَّ فيها نواب مصر والشَّام جميعًا، وساد عليهم وفاقهم علوًّا ورتبة، وقد أنجاه عدله وإحسانه من الغرق في متاع الدنيا وملذَّتها، مستحضرًا بذلك سفينة نوح التي أنجته ومن معه من الطوفان، قال⁽³⁾: [البسيط]

دَعْ ذِكْرَ نَوَابِ مِصْرَ وَالشَّامِ فَقَدْ جاز الغُلوَّ على ساداتهم سُودي
سفينةُ القصدِ في طوفانٍ منهله طافت به، واستوت منه على الجودي⁽⁴⁾

3- رثاء الثوَّاب من رجال الدَّولة

اقتضت طبيعة عمل ابن حبيب في مباشرة الدَّواوين وكتابة الإنشاء والتَّوابع أن يكون على اتِّصال برجال الدَّولة من سلاطين وأمراء ونقباء وقضاة وفقهاء، وغيرهم من أصحاب المناصب الرِّفيعَة ممَّن التقى بهم أو لم يلتقِ بهم بحسب الطُّروف التي اقتضتها طبيعة الأعمال التي كان يقوم بها، خلال تنقلاته بين البلدان. وكان شاعرنا قد كتب تعزية إلى ولديّ نقيب الأشراف بحلب، شهاب الدين

(1) الأمير أرتنا الحاكم بالبلاد الرومية، أبو سعيد ملك التتار، كان له ميل إلى المسلمين، واجتماع بأهل العلم، وفيه خير وإحسان، كسر القان سليمان، وأولاد تمرتاش، وأسر جماعة من أمرائهم، وغنم أموالهم، وعظم شأنه بذلك. ابن حبيب، تذكرة النبيه 169/3، وابن تغري بردي، المنهل الصافي 294/2.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 217.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 102.

(4) اقتباس من القرآن الكريم: "وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي". سورة هود، الآية 44.

أحمد بن محمد بن أحمد بن علي بن محمد الحلبي، حين وافته المنية بحلب سنة (778هـ) يقول
فيهما⁽¹⁾: [السريع]

مَضَى إِلَى اللَّهِ جَمِيلُ الثَّنَا لَمَّا قَضَى الْعُمْرَ مَدَى حَدِّهِ
فَلَا حُرْمَتًا مِنْهُ أَجْرًا، وَقَدْ كَانَ لَنَا أَسْوَةٌ فِي جَدِّهِ

وفي رثائه يقول أيضاً⁽²⁾: [الطويل]

جَرَّتْ أَعْيُنُ الشَّهْبَاءِ بَعْدَ شَهَابِهَا سَلِيلُ الْكِرَامِ السَّيِّدُ الشَّامِخُ الذَّرَى
فَقُلْ لِبَنِيهِ الطَّاهِرِينَ تَثَبَّتُوا لَكُمْ أَسْوَةٌ فِي جَدِّكُمْ سَيِّدِ الْوَرَى

تكشف هذه المقطوعة عن عظمة الفاجعة والمصيبة التي حلت بحلب، إذ إنَّها خسرت رجالاً
وسيداً كريماً لا يمكن تعويضه، فعمَّ المدينة الحزن، وذرف الجميع الدُموع عليه، وبطلب من بنيه أن
يكونوا خير أسوة له، ويتمسكوا بخلاله وسجاياه الرفيعة.

وحين بلغه وفاة نائب السلطنة بدمشق وحلب وحماة سيف الدين يلغاسنة (748هـ) نظم ببيتين
ركَّز من خلالهما على المعلم الديني الذي شيَّد في عهده بدمشق، وحمل اسمه "جامع يلغاسنة"، وكاذب
هو من زعم أنَّه رأى مثيلاً له على وجه الأرض. يقول⁽³⁾: [الكامل]

يَمُّ دِمَشْقَ وَمِلَّ إِلَى غَرْبِهَا وَالْمَخُ مَعَانِي حُسْنِ جَامِعِ يَلْبَغَا
مَنْ قَالَ مِنْ حَسَدٍ رَأَيْتُ نَظِيرَهُ بَيْنَ الْجَوَامِعِ فِي الْبِلَادِ لَغَا

4- رثاء أهل العلم والأدب

يُلاحظ على هذا اللون من الرثاء أنَّه لم يكن مشوباً بالمدح بدافع التَّكسُّب، على نحو ما كان
يفعل الشعراء جميعاً، وإنَّما كان رثاءً صادقاً خالصاً من الرِّياء والنَّفَاق، فقصر الشعراء اهتمامهم على
تبيان فضل العلماء ممَّن تولَّوا مناصب في الدَّولة، أو لم يتولَّوا أعمالاً فيها، لذا ركَّزوا جهودهم على

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 101-102.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 237.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 162.

تبيان فضل أولئك العلماء وإظهار مكانتهم العلمية. وهكذا فعل شاعرنا في معظم مقطوعاته، فكان مُتَّسِمًا بالصدق، مبتعدًا عن المبالغة أو التكلف، وهذا ما سنتناوله بالعرض والتحليل في النماذج المنتخبة من أشعاره.

رثى ابن حبيب الشيخ الزاهد العابد محمد بن نبهان بن عمر الحلبي الجبريني (ت744هـ)، طالبًا ممَّن يأتي حليًا زائرًا أن يمرَّ بقبره مُسَلِّمًا عليه، فساكنه شيخٌ عظيمُ الشَّانِ، عُرِفَ بفضله وإحسانه، وتقاه وصلاحه، وورعه وزهده، وانقطاعه عن النَّاسِ في تلاوة القرآن، وكان يُطْعِمُ كُلَّ مَنْ يَرِدُ إليه، ونذر نفسه لخدمة النَّاسِ، يقضي ليله ساهرًا عابدًا متهجِّدًا. يقول فيه⁽¹⁾: [الطويل]

إلى حَلَبٍ يَمِّمُ وَعَرَجٍ مَبَادِرًا	لجبرين، فالملحودُ فيها له شانُ
ولِيَّ عِلْقٍ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْبِدًا	إلى أن مضى تلقاهُ روحٌ وريحانُ
يُقَالُ لَهُ نَبْهَانُ، أكرمِ بِهِ فَتَى	بمنزلة غيثِ الكراماتِ هَتَّانُ
ومن نسله فيها أقامَ محمدٌ	ليذُلَ قِرَى يتلوهُ حُسْنٌ وإحسانُ
تقيي، نقيي، صالحٌ ومتورعٌ	زكِيٌّ له عَزْفٌ زكِيٌّ وعِرْفانُ
أراكم نفوسَ الورى مستريحةً	وخاطرُ في خدمةِ النَّاسِ تعبانُ
وكم في دُجَى لَيْلِ التهجدِ أَعْيُنُ	مِنَ القَوْمِ نَامَتِ، وابنُ نَبْهَانَ نَبْهَانَ

وحيثما بلغه خبر وفاة الشيخ أبي محمد عيسى بن عيسى العليمي سنة (707هـ). قال

فيه⁽²⁾: [السريع]

نَجْمُ الهُدَى عَبَسَ إِذَا مَا بَدَا	يُشْرِقُ مِنْ أَنْوَارِهِ الرِّيْعُ
أَفْدِيهِ شَيْخًا عَالِمًا زَاهِدًا	أَقْوَالُهُ يُصْغِي لَهَا السَّمْعُ
وَالْعُرْفُ مِنْ أَخْبَارِ عِرْفَانِهِ	يَحْيَا بِهِ الْمُفْرَدُ وَالْجَمْعُ
إِنْ قُلْتُ قَدْ أَصْبَحَ دَا هَيْبَةً	أَقُولُ عَبَسَ قَلْبُهُ سَبْعُ

فالشيخ عَبَسَ يخالف معنى اسمه حينما يظهر للعيان، فيبدو مشرقًا منيرًا الطلعة، عاش حياته

زاهدًا، حريصًا على طلب العلم، كريمًا معطاءً، مهابًا قويًا شجاعًا.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 219-220.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 158.

تجدر الإشارة إلى أن ابن حبيب ركّز في مقامات رثاء القضاة على إبراز المكانة التي تمتّع بها المرثي، وبخاصة معارفه وعلومه. فانظر إلى قوله بعدما تنهى إلى مسامعه نبأ وفاة قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم الرسعني الشافعي الحاكم في حلب سنة (742هـ):⁽¹⁾[السريع].

مَسَائِلُ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْوَرَى فِي حَلْبٍ، أُسْكِتَ سَحْبَانُهَا
وَكَيْفَ لَا يَسْكُتُ عَنْ ذِكْرِهَا دَلِيلُهَا غَابَ وَبُرْهَانُهَا

فالبيتان يشيران إلى تمكّن هذا القاضي من علم الأحكام الشرعيّة، وبشبهه الشاعر المرثي بفصاحته وبلاغته بسحبان وائل، ولذا فقد ساد حلباً الصمت، فتعطّلت فيها الأحكام بعد هذا القاضي العارف العالم، فلا دليل قائم، ولا برهان بائن بعد وفاة القاضي برهان.

وقال ابن حبيب في رثاء قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن كمال الدين أبي حفص الحلبي (ت752هـ)⁽²⁾: [الوافر]

لَقَدْ عُمِّرْتُ فِي الْأَحْكَامِ دَهْرًا أَرَوِّي النَّاسَ طُرًّا مِنْ مَعِينِي
وَمَاذَا يَدْرِي الْأَقْوَامُ مِنِّْي وَقَدْ جَاوَزْتُ حَدَّ الْأَرْبَعِينَ⁽³⁾

فالشاعر -هنا- يشير إلى هذا القاضي الحاكم العادل الذي قضى حياته في خدمة القضاء، فنهل الناس جميعاً من معين خبرته وتجربته، ولا شك في أنّهم قاطبة لا يعرفون شيئاً من علمه وعمله الذي أرى على أربعين عاماً.

وقال ابن حبيب بعد وفاة الإمام الفقيه زين الدين عمر الباريني الشافعي (ت764هـ)، مشيراً إلى تغيّر حال العلوم في حلب، إذ خسرت عالماً جليلاً، وشاعراً وأديباً وفقهياً عزّ وجود أمثاله، وأصبحت مدارسها مقفّرة، من بعد ما كانت عامرة بشيخها الجليل عمر. يقول⁽⁴⁾: [الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص220.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص222-223.

(3) بدر الدّين العيني، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية 115/1-116 والبيت لسحيم بن وثيل الرياحي. وصدّره: "وماذا يبتغي الشعراء مني".

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص106.

حَلَبٌ تَغَيَّرَ حَالُهَا لَمَا اخْتَفَى من فضل زين الدين عنها ما ظَهَرَ
ومدارسُ العلماء منها أقفرت من بعد عامرها أبي حفصٍ عَمَرَ

وأظهر ابن حبيب حزناً عميقاً لرحيل صديقه كمال الدين عمر بن محمد الحلبي (ت750هـ)،
وعدّد مناقبه من طيب المعشر، والتقى والدين، والأمانة، وحبّ الخير، مشيراً إلى أنّه قلّ له نظيرٌ أم
مشابهة، يقول⁽¹⁾: [مجزوء الكامل]

عندي أقام الحزنُ مُذُ رَحَلَ الكمالُ إلى المقابِرِ
لِمَ لا، وقد فارقتُ مَنْ هـ صاحباً حَسَنَ المآثِرِ
رِيَّانَ من ماءِ الديانةِ والـ أمانة في طريقِ الخيرِ سَاهِرِ
عُشْرُ اكتتابي ليس يُـو جَدُّ عند جمعِ بني العشائرِ

وقال شاعرنا بعد موت فخر الدين أبي عبد الله محمد المصري (ت751هـ)⁽²⁾: [الطويل]

مضى فخر مصرٍ والشامِ ومن مَحَا بصبحِ الهدى من علمه ظلمةُ العصرِ
فبعداً لِحُتْفٍ هَدَّ أركانَ جَلْقِ وأذهبَ عن أكياسِها الذهبِ المصريِ

فالببتان يشيران إلى فضل هذا الشيخ الذي أضاع مصر والشام بنور علمه، ومحا ظلمة الجهل
التي سادت عصره، فسُحِقاً لموتِ قَوْضِ أركانِ دمشق وهدها، وأذهب رجلاً كالذهب الإبريز المخبوء
في خزائنها، وفي هذا إشارة إلى علومه ومعارفه التي ولا تتنمّن بالذهب.

ويُركِّزُ الشاعِرُ كثيراً على إظهار ما حلَّ بالمدينة التي كان يُدرِّسُ أو يقضي فيها الشيخ،
فيرسم صورةً متشحة بالسواد، يعبر فيها عن الفراغ الذي أحدثه الرَّاحِلُ، ومن ذلك حديثه عن وفاة
الشيخ، العالم، المُدرِّس، القاضي شمس الدين بن النقيب (ت745هـ)، الذي تصدر للتدريس في عدد
من مدارس الشام، فبرحيله انكسفت شمسها، وأظلمت أرجاؤها، كيف لا وقد كان المُتوقِّفُ شمسها
ونورها. يقول بعد وفاته⁽³⁾: [الرجز]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص107.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص129.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص137.

لَمْ أَنَسْ قَوْلَ عَارِفِ ذِي نَظَرٍ يُلْهِبُهُ نَوْرُ جَلِّقٍ وَأُنْسُهَا
مَا لَدِمَشْقَ أَظْلَمَتْ أَرْجَاؤُهَا فَقَلَّتْ: غَابَ ابْنُ النَّقِيبِ شَمْسُهَا

وتتكرّر المعاني نفسها في مقطوعة أخرى عبّر من خلالها عن الظلام الذي خيم على المدرسة العادليّة بعدما مات شيخها شمس الدين محمد بن زين الدين خلف بن كامل الغزي (ت770هـ)، فلازمتها الظلمة وانطفأت أنوارها حزناً وحداداً على الفقيد، وخلت مجالسها من الأنوار بعدما غاب شيخها الشّمس الغزيّ. يقول ابن حبيب حين بلغته وفاته⁽¹⁾: [الكامل]

العادليّة أَظْلَمَتْ أَرْجَاؤُهَا مِنْ بَعْدِ حَاكِمِهَا وَنَاظِمِ دَرْسِهَا
لَمْ لَا يَلْزِمُهَا الظُّلَامُ وَتَنْطَفِئُ أَنْوَارُ مَجْلِسِهَا لِغَيْبَةِ شَمْسِهَا

وبعد وفاة الشّيح الفقيه عبد الوهاب السبكي (ت771هـ) في القاهرة، قال ابن حبيب في رائيًا

له⁽²⁾: [المقارب]

تَغَمَّدَ اللهُ سَبْحَانَهُ بِأَنْوَاعِ رَحْمَتِهِ وَالرِّضَا
وَأَسْكَنَهُ جَنَّةَ رَحْبَةٍ تَضِيءُ لِيَدِيهَا وَجْوهَ الْقَضَا
لَقَدْ كَانَ بَحْرًا جَزِيلَ الْحَيَا لَهُ عَزَمَاتٌ إِذَا اسْتَهَضَا
وَمَجْدٌ غَنِيٌّ أَغَاثَ الْوَرَى فَمُلُّ غَدَا مِنْهُ مُسْتَقْرِضَا
وَجُودٌ مَدِيدٌ إِذَا مَا سَخَا وَرَأْيٌ سَدِيدٌ إِذَا مَا قَضَى
أَيَا مَاضِيًّا لَمْ نَزَلْ بَعْدَهُ نَقُولُ: عَفَا اللهُ عَمَّنْ مَضَى
وَيَا مَنْ نَأَى عَنِ دِيَارِ الْفَنَا وَعَنْهَا بَدَارُ الْبَقَا عَوْضَا
عَلَيْكَ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَا سَلَامٌ يُعْطَرُ جَيْبَ الْقَضَا

في هذه الأبيات يدعو الشاعر بأن يتغمّده الله بوسع رحمته ورضوانه، وأن يحسن نزله ويسكنه فسيح جنّاته، وانتقل بعد ذلك متحدّثاً عن صفاته من كرم، وعزم، وغوثٍ ونجدة، ورأيٍ سديد. وبعث من دمشق إلى روحه الطاهرة سلامًا مُعطرًا بعد أن نأى عن الدّار الفانية إلى دار البقاء.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 141.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 148-149.

وحيثما توفي بمصر الحافظ تقي الدين أبو المعالي محمد بن جمال الدين بن هجرس المصري

سنة (777هـ). قال ابن حبيب بعد موته، وهو يومئذٍ بدمشق⁽¹⁾: [الخفيف]

خادمُ السُّنةِ الإمامِ تقي الد
حافظُ ما أتى من الكَلِمِ الطيبِ
عالمٌ لازمُ الديانةَ لا يعو
كم له من روايةٍ وكلامٍ
ولكم رايةً لفضلٍ ومجدٍ
دين، ولي، والموتُ ما فيه شافع
يب، ينفي عنه الأذى ويُدافع
دل عنها شيخاً وكهلاً ويفاع
في الأحاديثِ والأسانيدِ نافع
أصبحت ذات رفعةٍ بابين رافع

فالمرثيُّ حافظٌ جليل القدر، وجاء وصفه موافقاً لقبه، فهو معروف بالتقى، حسن الأخلاق،

يدفع الأذى عن النَّاسِ، محافظ على الدين، وله علمٌ في الأحاديثِ وأسانيدها، فضلاً عن فضائله،
فمثله جدير أن ينعى بابين رفعة.

وفي رثاء شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن علي الأصبحي العنَّابي (ت776هـ)

يستلهم ابن حبيب صورة الموت الذي يسلب النَّاسِ الحياةَ بسهامه القاتلة، وأسقت المنيةَ كذلك الآساد
كؤوس الموت، وعضت بنابها الشيخ العنَّابي. يقول بعد موت⁽²⁾: [الكامل]

إنَّ المنيةَ لم تزل قتالة
بكؤوسها صرْفاً سقت ورد الشرى
أهل الحياةَ بأسنهم الأسلاب
وبنابها عضت على العنَّاب⁽³⁾

رابعاً - الإخوانيات

كتب ابن حبيب إلى القاضي بدر الدين أبي عبد الله محمد بن القاضي تقي الدين أبي الفتح

السُّبكي (ت771هـ) مهناً إياه بمناسبة عودته من الحجاز الشَّريف⁽⁴⁾: [مجزوء الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 154.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 65.

(3) البيت مضمَّن من قول الواواء الدمشقي [البسيط]

وأمرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً، وعضت على العنَّاب بالبردِ ديوانه ص 84.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 56.

يا فوز أرياب الرّيا	قدم الغمام فمرحبا
م مُكْرَمًا ومُقْرَبًا	وافى الإمام إلى الشا
زله فجَلا الغيهبا	بدر العلوم بمن
نور الهدى منها سببا	من بعد رؤية حجرة
سعادة من به حل الحبا	وطواف بيت لبكبا
ث ليس يبرح صيبا	فرحت دمشق بقرب غي
ومش رقا ومغرّبا	والناس يهدون الدعا
هبت نسائم الصّبا	دامت له العلياء ما

تكشف المقطوعة مدحا ممزوجا بمحبة خالصة، عبّر من خلالها عن مشاعر الفرح بأوبة القاضي من الحجّ، وفرحت الشّام بهذه العودة الميمونة، وانهأت سحب الغمام فرحا بقدمه، وعاد مُكْرَمًا يتهلّل وجهه بشرا ونورا من البقاع المقدّسة، بعدما زار الحجرة الشريفة مقتبسا من سنا نورها، وتشرف بطواف البيت العتيق، وعبّر عن مشاعر دمشق التي غمرتها فرحة عارمة، وكذلك أهلها الذين جاءوا إليه مهتئين مُسلّمين، فهنيئا له ذلك الحجّ، وهنيئا له تلك الزيارة.

وبالنظر إلى المناسبات الخاصّة، فإننا نجد أنّ الشعراء قدّموا فيها التهنئة إلى المدح الشّخصي، مثل قول ابن حبيب مهنّئا صديقه فتح الدين ابن الشهيد حينما ولي كتابة السّرّ بدمشق سنة (764هـ)⁽¹⁾: [السريع]

بابن الشهيد الألمعي الأريب	كتابت السّرّ علا قدرها
(نصر من الله وفتح قريب)	وكيف لا تعلقو، وقد جاءها

هذه المقطوعة تكشف عن الصّحبة الصّادقة، التي عبّر من خلالها ابن حبيب عن المكانة التي يتمتّع بها صديقه، إذ علا قدر كتابة السّرّ في دمشق مكانا ورفعة بتوليئه لهذا المنصب، وكيف لا يكون ذلك، وقد جاءها النّصر والتّمكين من عند الله حينما ولي أمرها ابن الشهيد، وقد أجاد ابن حبيب

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 54.

توظيف الآية القرآنية ﴿وَأُخْرَىٰ تَحِبُّونَهَا ۖ تَصْرَمْنَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾⁽¹⁾، دالاً على مشاعر المحبة التي يُكنُّها شاعرنا لصديقه.

وكتب ابن حبيب تهنئة لأبي البقاء السبكي (777هـ) بولاية قضاء دمشق الذي تشرف بولاية

هذا القاضي الذي عرف عنه التقى والصِّلاح⁽²⁾. [الكامل]

شَرَفْتُ دِمَشْقَ بِحَاكِمٍ أَوْصَا فُهُ مِنْهَا الدِّيَانَةُ وَالصَّيَانَةُ وَالتَّقَى
وَلِسَانُهُ عَنِ كُلِّ فَنٍّ مُعْرِبٍ مَنْ ذَا الَّذِي إِعْرَابُهُ كَأَبِي الْبَقَا

وكتب ابن حبيب إلى صديقه ابن السكاكري (ت760هـ)، الذي عمل كاتباً للحكم والإنشاء

بحلب المحروسة، وكان عارفاً بعلم الشُّروط متقناً له، خبيراً بعلل المكاتيب الشرعية وبعدها تولّى منصب كتابة الدِّرج، يقول شاعرنا في تهنتته⁽³⁾:

أَيَا مَا جَدًّا فِي النَّاسِ نَسْخَةُ فَضْلِهِ مَقَابِلَةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْهُ بِالْأَصْلِ
لَقَدْ سُرَّ سِرُّ الدَّرَجِ لَمَا حَلَّتْهُ وَلِمَ لَا، وَمَنْ مَرَّكَ قَدْ فَازَ بِالْوَصْلِ

وأشار ابن حبيب إلى أنَّ صحبة قديمة كانت تجمع بينه وبين صاحب ديوان الإنشاء بدمشق

المولى ناصر الدين محمد بن الصاحب شرف الدين يعقوب الحلبي (ت763)، وكتب إليه شاعرنا في

معنى اقتضاه⁽⁴⁾: [الخفيف]

رَبِّعْ صَبْرِي يَا نَاصِرِي وَمِلَازِي عَادَ يَحْكِي فَوَادَ أُمِّ الْكَلِيمِ
لَا تُصَيِّرْ أَعْرَكَ اللَّهُ وَعَدِي مِثْلَ وَعْدِ ابْنِهَا وَدُمِّ فِي نَعِيمِ

ونظم ابن حبيب الحلبي مقطوعة عند سفر القاضي برهان الدين أبو سالم إبراهيم الصنهاجي

(ت778هـ) إلى الشَّام المحروسة وجنَّاتها، التي سيتبوأ فيها مقعداً رفيعاً عالياً، جزاءً لعدله في أحكامه،

(1) سورة الصَّف، الآية 13.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 172.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 191.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 206.

وقد أجاد الشاعر في الرِّبْط بين وصف دمشق وجنَّة النَّعِيم، التي سيدخلها بسلام، مستوحياً قوله تعالى:

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ (1)، يقول عند الوداع (2): [الخفيف]

سِرْ إِلَى جَنَّةِ الشَّامِ دَمَشِقِ حَاكِمًا عَادِلًا رَفِيعَ الْمَقَامِ
رَامَتِ الْقُرْبَ مِنْكَ، فَادْخُلْ إِلَيْهَا يَا أَبَا سَالِمٍ بِأَزْكَى سَلَامِ
ويشير ابن حبيب في مقطوعة أخرى له أنه اجتمع كثيرًا مع الرئيس أبي الحسن بن بدر الدين أبي عبد الله محمد بن فتیان الدمشقي (ت770هـ) كاتب الإنشاء بطرابلس. فكتب إليه مشيدًا بكرمه

وفضله، طالبًا ممن يمرُّ بطرابلس أن يأتي إلى منزله زائرًا، حيث يجد الكرم والحباء. يقول (3): [البسيط]

يَمُّ طَرَابِلُسَ اللَّاتِي مَسَاكِنَهَا تَجْرِي بِهَا أَعْيُنٌ حُفَّتْ بِأَشْجَانِ
وَكَاتِبُ السَّرِّ عَرَجٌ نَحْوَ مَنْزِلِهِ وَاعْدَلُهُ تَلَقَّ فِتْيَ مَنْ نَسَلِ فِتْيَانِ

ولابن ابن حبيب مكاتبات مع صاحبه شهاب الدين أبي العباس أحمد بن المسلم بن علان

القيسي الدمشقي صاحب ديوان حلب، فكانا يتراسلان بالشعر، ومن ذلك أنه بعث إليه هذا الكتاب (4).

[المجتث]

يَا طَالِبًا سَائِلَ سَائِبِ يُمْرُ مَرَّ السَّحَابِ
سِرْ نَحْوَ شَهْبَاءَ تَرْضِي قَلْبُوبَ أَهْلِ الطَّلَابِ
وَانزِلْ هِنَالِكَ، وَأَقْصِدْ بَابَ الْمَقَرِّ الشَّهَابِ
فَتَمَّ فَضْلٌ وَفَضْلٌ يُرِيكَ صَوَابَ الصَّوَابِ
وَنِيْلٌ نِيْلٌ عَزِيْزِ يَأْتِي بَغِيْرَ حَسَابِ
وَعَطْفٍ مَوْلَى رَأْسِ شَهْمِ جَمِيْلِ الْخَطَابِ
فِيهِ سَحَابٌ تَجَلَّتْ بَلْبَسِ ثَوْبِ الثَّوَابِ
وَمِنْهُ لِلصَّادِرِ صَدْرٌ فِيضٌ بِحَرِّ عُبَابِ
أَضْحَى شَجَى لَلْأَعَادِي وَمَوْلًا لِلصَّحَابِ
لَا زَالَ فِي خِفْضِ عَيْشِ عَذْبِ الْجِنَا مَسْتَطَابِ

(1) سورة الحجر، الآية 46.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 211.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 225.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 66.

فهذه المقطوعة تشير إلى كرم صاحبه، ومن أراد أن ينعم بالنوال فما عليه إلا التوجّه إلى حلب حيث ابن علان، فينال من الخيرات الشيء الكثير، فضلاً عن حسن الاستقبال، ولطف المعاملة، وطيب المعشر، وهو بحر زخار في حبائه، ويعطي دون سؤال أو حساب، وهو خير ملاذ للأصحاب، حيث يجدون العيش الرغيد الذي ينعم به ذلك الرئيس أبد الدهر.

وكتب ابن حبيب إلى قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي (ت771هـ) أبياتاً عبر فيها عن صفاته من تمكّن في العلم، فقلّ له نظير، ناهيك عمّا اتّصف به من آراء سديدة، ومكارم كثيرة، فمن شكا عوزاً فما له إلا القاضي تاج الدين، الذي كان مجلسه عامراً بالناس، من شدة العلم، وطلاب حاجات، وأصحاب مشكلات، كلّمهم انتجعوا إليه أملاً في الخلاص مما يعكّر صفو حياتهم. يقول⁽¹⁾: [الكامل]

عَينَتْ شَمْسَ العِلْمِ فِي أِبْرَاجِهَا	قَاضٍ إِذَا مَا حَلَّ مَجْلِسُ حَكْمِهِ
يَهْدِي إِلَى فِكْرِ إِلَى مِنْهَاجِهَا	وَإِذَا القُضِيَّةُ شُكِّلَتْ، فَهُوَ الَّذِي
وَمَكَارِمٍ كَشَفَتْ حِجَابَ رِتَاجِهَا	عَلِمَ سَمَتْ بَيْنَ السُّورِ أَعْلَامُهُ
مَرْفُوعَةً إِلَّا بِرُونِقِ تَاجِهَا	إِنَّ الرُّؤُوسَ مِنَ الرِّيَاسَةِ لَا تَرَى
قُلْ يَا أَبَا نَصْرِ تَفُزْ لِعَلاجِهَا	يَا شَاكِيًا أَدْوَاءَ جُورِ زَمَانِهِ
مَدَدِ البَحَارِ، وَعَنْ مَدَى أَمْوَاجِهَا	حَدَّثَ إِذَا مَا صِرْتَ فِي نَادِيهِ عَنِ
شَتَاتٍ بَيْنَ فُرَاتِهَا وَأَجَاجِهَا	مَا أَنْ يُمَاتِلَ فِي العُلُومِ بَغِيرِهِ

ويذكر لنا الشاعر أنّه كتب إلى بعض الأصحاب من أثناء طريقه في رحلة الحجّ التي قام بها سنة (739هـ)، دون أن يصرّح باسم ذلك الصّاحب، حيث أقسم بالكعبة المشرفة، وبالطائفين أجمعين، وبالمروتين وما اجتمع بهما من وفود، بأنّه يحبّ ذلك الصديق ويودّه كثيراً، وتمنّى لو كان معه رفيقاً في تلك الرحلة، ليحظيا بوقفة الجمعة معاً. يقول⁽²⁾: [المنسرح]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 84.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 155.

أقسّمُ بالكعبةِ التي أمَلَكْتُ منزلةً في الوجودِ مُرتَفَعَةً
فالمُرتَفَعينَ الذينَ نَكَّرَهُمْ من حولها مطرباً لمن سَمِعَهُ
والمُرتَوِّتينَ اللتينَ عندهما موائِدُ للوفودِ مجتمَعَةً
لقد ودَدْنَاكمَ هنالكَ كي نحظى جميعاً بوقفَةِ الجُمُعَةِ

خامساً - الوصف

شغل الوصف مساحة واسعة في دواوين الشعر العربي حتّى قيل إنّ أغلبه راجع إلى باب الوصف⁽¹⁾، وقد أجمع النُقّاد على أنّ أجود أنواعه هو الذي يستطيع أن يحكي الموصوف حتّى يكاد يمثّله عياناً للسامع؛ وذلك بأن يأتي الشّاعر بأكثر معاني ما يصفه وبأظهرها فيه، وأولاهها بأن تمثّله للحس⁽²⁾، ويجب ألا ينقل الشّاعر الأشياء كما هي، بل يضيف عليها مشاعره وأحاسيسه، وبذلك يجعلنا نحسّ بأنّها لوحة أخرى غير اللوحة الأولى ذاتها، وبطبيعة الحال فإنّ الشّعر الجيّد هو الذي يصدق في تصوير العاطفة تصويراً دقيقاً وقويّاً مؤثراً⁽³⁾.

ويمكن القول إنّ هذا الفنّ من بين الفنون الرّئيسة التي نظم فيها الشّاعر، ومن خلال النّمادج التي وجدتها الباحثة في شعره، فيمكن قسمتها على النّحو الآتي:

1- وصف الطّبيعة

يلاحظ أنّ الوصف عنده في هذا الباب لم يخل من الابتكار، وتعزو الباحثة ذلك إلى حبّه للطّبيعة وامتزاجه بها، وبخاصّة في رحلاته وتنقلاته بين البلدان، فكثيراً ما كان يفتن بسحرها وجمالها، وقد وصفها بشموسها وتلوجها وبساتينها وأطيّارها وحيوانها، ووصف المعالم الحضاريّة كالمساجد والنّواعير.

(1) ابن رشيّق، العمدة، 294/2.

(2) ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشّعر 119، والعسكري، الصناعتين 134.

(3) أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص 261.

فمن وصفه للطبيعة العليا وصف الشمس المنيرة عندما تلوح في أفق الصّباح، فتبدو كأنّها كرة

من الذهب. يقول⁽¹⁾: [الكامل]

ما أحسنَ الشمسَ المنيرةَ إذ بدتْ في أفقها تلوّ الصباح الأبلج
فكأنّها كُرّةٌ من الإبريزِ قد بسطوا لها الميدانَ بالفيروزِ

فهذه الصورة منتزعة من الواقع المألوف الذي يراه الإنسان العاديّ، غير أنّ ابن حبيب أضاف لونًا جديدًا غير اللون الذهبي الذي يلزم صفة الشمس، فأضاف صبغًا أصفر زيد عليها، فبدت شديدة الصّفرة ذات لونٍ فاقع.

وقال يصفها في مقطوعة: (2) [الرجز]

انظر إلى الشمسِ وفعل غربها كيف استحر قرصها وكادها
أحسن بها غزاة نيرة أخفى الظلام عينها وصادها

يدعو الشاعر إلى تأمل منظر الشمس حينما تلتهب ويشتدّ حرّها وتتوقّد، غير أنّ عينها تأخذ في الغموض والتلاشي لحظة الغروب، فسرعان ما يصيدها الظلام، ويصبح ضوءها خافتًا.

وقد وصف شاعرنا السماء لونًا ونجومًا، وفي ذلك يقول⁽³⁾: [الكامل]

انظُرْ إلى حُسنِ السَّماءِ ، وقد بدتْ فيها النُّجومُ تُفرِحُ المَحزُونِنا
كَمَلَاءَةٍ رَزَقَاءٍ مِنْ فَيَزُوج نَثَرُوا عَلَيْهَا لُؤْلُؤًا مَكْنُونِنا

فالتأطر إليها يعجب ببديع صنعها، وبخاصّة حينما تمتلئ بالنجوم التي تبعث السرور والفرح إلى قلب الحزين، وقد أبدع في التشبيه التمثيليّ من خلال تصوّر لون السماء على هيئة إزار ذي لون أزرق، أمّا نجومها المنثورة فهي أشبه ما تكون باللؤلؤ المنثور على تلك الملاءة.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 83.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 269.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 269.

ويظهر في مقطوعة أخرى أنّ ابن حبيب كان برماً بقدم الثلج، فبدا زائراً ثقيل الظلّ، غير مُرَحَّبٍ به؛ فلم يطلبه أحدٌ؛ إذ إنّه يشتتُ شمل البلاد كلّما سقط فيها، غير أنّ أزهار الغبراء تضحك عليه كلّما بكى عليها، ويعود ذلك إلى أنّ عمره قصير، فلا بُدَّ أن يذوب ويصير ماء. قال (1): [الكامل]

انظر إلى الثلج الذي وافى ولم يُطلبُ فلا أهلاً به من وادٍ
واغجب لأزهار الصحارى كلّما ضحكت عليه بكى بدمع باردٍ

وفي المقابل أحبّ الخريف الذي أقبل يتهادى كالعروس في مشيتها وحلتها الذهبية، كما أنّه يكسرُ جيوش الغيوم، وفيه ترتاح النفوس، في حين يحبُّ كثيرون الربيع الذي تنتزه فيه الأبصار، وتتنطق الأطيّار، وتفيض عيون الأنهار (2). [الخفيف]

إنّ فصلَ الخريفِ وافى إلينا يتهادى في حُلة كالعروس
غيّره كان للعيون ربيعاً وهو ما بيننا ربيعُ النفوس

وأجرى ابن حبيب حواراً طريفاً بين نهر "قويق" والأشجار، إذ فاض سنة (769هـ) وخرّب كثيراً، ولهذا احتجّت الأشجار التي اجتثّها ورماها، لذلك كانت هذه الزيادة كثيرة جداً ولا حاجة للأشجار بها. قال (3): [السريع]

لما طمأ نهر قويق، ولم يأت بسيب، بل بسيلٍ غزير
قالت له الأشجار من حوله مهلاً، لقد زدّت علينا كثير

ووصف نهر النيل ومنظره البهيج، فهو أكبر من أن يوصف، وجعل منه إنساناً يفرح ويحزن. وقال ابن حبيب في نيل مصر (4): [الطويل]

أيا حبّذا مصرٌ وبهجة نيلها ومَن ذا الذي حصُر العُلا منه يبلغ
لئن صُبغتُ أحزاننا بمسرةٍ لديه، فإنّ النيلَ بالطبع يُصنغُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص102.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص138.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص108.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص162.

وفي مقطوعة أخرى بدأ الشاعر مفتونًا بجمال مصر ومنتزهاًها ومعالمها الحضارية، وبخاصة جامع السلطان الملك المنصور، ونهر النيل المعطاء، الذي يبهج النفوس بمنظره وينسيه همومه وأحزانه كلما تذكر وطنه فيه بلاد الغربة، فرويته تلهيه عن الحنين إلى الأهل والوطن. يقول⁽¹⁾:

[الكامل]

يا مَنْ أتى مِصرًا يَرُومُ تنزُّهاً أنيخَ المُطَيِّ بِجامعِ السُّلطانِ
وانظُرْ إلى النِّيلِ المُنيلِ فَإِنَّهُ يلهيكَ عن أهليكَ والأوطانِ

وفي مقطوعة أخرى وصف النيل جاعلاً منه إنساناً يتحدث عن مآثره، إذ عمَّ خيره البلاد والعباد، وبخاصة حينما يفيض ماؤه، ويروي الأرض، وتطرح الأشجار ثمارها الناضجة، فما كان هذا ليكون لولا جوده وعطاؤه، ومن ادعى بأن هناك نهراً أوفى منه، فقأ عينيه بأصابعه. قال⁽²⁾: [الكامل]

لم أنسَ قولَ النيلِ لما أن وفى وكفى البلادَ بجوده المتتابعِ
لو رامَ نَهْرٌ أن يجاريني على قحةٍ سَدَدْتُ عيونَهُ بأصابعي

أما وصف البساتين والحدائق بما فيها من أزهار وأطياف وثمار وأشجار فكثير في شعره، فأبدع في وصف الرياض التي نزل فيها مع أصحابه، وقد أذكره بحسن جمال محبوبه، ولم ينس الإشارة إلى الحمام الذي تراقص طرباً على أغصان أشجاره، وأتحفهم بحسن صوته، والتفت كذلك إلى جمال ريشه وبخاصة ريشات الأطواق المحيطة بالرَّقبة. قال⁽³⁾: [السريع]

لم أنسَ بُسْتاناً حلَّناً به يكادُ عن حسنِ حبيبي يتوب
والوُزْقُ في أوراقِ أغصانِهِ تجذبُ بالأطواقِ منا القلوب

وفي مقطوعة أخرى وصف روضاً مجسداً فيه مظاهر الغيرة بن الورود والأزهار، إذ غار الورد والنرجس لما أبصرا النيلوفر وقد أحاط بالنهر والتف حوله، فتسابقا كلاهما نحو الحوض رغبة في الالتفاف حوله قبل أن يسبقهما النيلوفر إليه. يقول⁽⁴⁾: [السريع]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص224.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص158.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص55.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص115.

الوردُ والنَّرجسُ مُذْ عايَنا نيا وُفراً يَلْـزُمُ أنْهـا رَهُ
شَمَرٌ ذا للحوضِ عن ساقِهِ وَفَـكْ ذَا لَلْعَـوْمِ إِزْـلَرَهُ

وتظهر المقطوعات حبّ ابن حبيب الجَمِّ للطبيعة، وقد ساعده على ذلك الفرص التي كان يجدها للترويح عن النَّفس، والخروج مع الأصحاب إلى المجالس التي كانوا يعقدونها في أحضان الطبيعة الخلابة. تأمل معي قوله في صفة روض⁽¹⁾: [السريع]

يا حبذا روض نزلنا به من فوق يسحب ذيل السحاب
لا تسمع الأذان فيه سوى ترنم الورد ووقع الرباب

فهذا الرّوض الذي حلّوا فيه قَمّة في الرّوعة والحسن والبهاء، وقد أسبغت عليه السُّحبُ رونقاً خاصّاً، والجلوس فيه يسرّ القلوب، ويضطرب الأذان سماع هديل الحمام وعزف الرباب والعيّان.

ومن جميل الصور التي رسمها الشّاعر للرّوض قوله⁽²⁾: [الكامل]

باكر وبادر للرياضة روضة كالزهر في جنباتها الأزهار
رقصت بها الأغصان لما شببت ريح الجنوب وغنت الأطيّار

فيطلب المبادرة والإسراع في النّزول في روضة مليئة بالزهور التي تُعطي جنباتها، والأجمل منظرًا من ذلك رؤية الأغصان التي تتراقص فرحاً كلّما هبت عليها الرّيح، وحطّت عليها الأطيّار لتعزف لحنًا جميلًا، يُحرّك فيها الهمة والنّشاط، فتأخذ تتمايل طربًا وفرحًا.

ومن بديع الوصف قوله في الأشجار⁽³⁾: [الرجز]

دارت على الأدواح من كفّ الصّبا قهوة مزن أترعت كؤوسها
أما ترى أغصانها مائلّة من سكرها لم ترتفع رؤوسها

فريح الصّبا تفعل في الأشجار ما تفعل الخمر بالإنسان، فكلمًا هبّت على الأغصان بعثت فيها الحياة، فتأخذ في الرّقص والتّمايل، كما يفعل السكران حينما ينتشي ويسكر، فيذهب عقله ويمشي

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 271.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 271.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 272.

مترنحًا متراقصًا متناقلاً.

وخاطب الشاعر الورد والترجس طالبًا من الأخير أن يتجنّب الورد، ولا ينصب له العداء، فلا

يستطيع الخلاص من أشواكه المنصوبة إيدانًا للحرب. قال (1): [مجزوء الرمل]

أيها النرجس أقصرر واجتنب سوء الطويهه
لا تقم للورد حربا شوكة الورد قويهه

وقرن صورة الياسمين الغضّ بخدّ فتاة حسناء أحمر اللون كأنّ أحدًا قد قرصه أو عضّه، فازداد

احمرارًا، يقول (2): [المجتث]

يا حبذا ياسمين مـورد اللـون غـض
كأنه خـد خـود يعلوه قـرص وعـض
ووصف البنفسج ذا الرائحة الشديّة، حينما أبصره في روضٍ مدبج بالأزاهير، إذ بدا الرّوض في

غاية الرّوعة والجمال، وكأنّه ياقوت مرصّع بالجواهر ذات الألوان الممزوجة. تأمل معي روعة

الوصف (3): [الرجز]

يا حبذا بنفسج طيب الشذا يبدو لنا من روضه المدبج
روض بديع الحسن من زمرد رصعه الصانع بالفيروزج

ومن جميل مقطوعاته تلك التي نظمها في وصف مصيف. قال (4): [الطويل]

مصيف له ظلّ مديد على الوري ومَنْ حلاطعمًا وحلّ أخلطًا
يعالج أنواع الفواكه مبدياً لصحتها حفظاً يعجز بقرطًا

يبدو الشاعر مغرمًا بظلال الأشجار الوارفة فيه، وظلّها الممدود يحجب الشمس عن

المصنّافين بفضل كثرة الأشجار المتشابكة الأغصان، وفي هذا المصيف من ألذ ثمار الفاكهة التي

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 272.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 272.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 272.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 151.

تمنح الأجساد سلامةً، وتتكفلها حفظاً بحيث يعجز بقراط ويتعجب من كيفية سلامة أبدان من يأكل مثل هذه النّمار من الأمراض.

وللحديث عن الطّير حكاية تطول عند ابن حبيب، فنظم أرجوزة استغرقت (49) بيتاً تحدّث فيها عن أسماء الطّيور وأنواعها، وأسمائها "وصف المواقف والأطيار، قائلاً على سبيل التشويق والتذكّار".

وفي كتابه "تسيم الصّبا" تناول وصف الحيوان كذلك وبخاصّة الخيل العراب التي يُسرّ بمنظرها الرّائي، فبدأ معجباً بعُدوها وجريها، فسناكبها تشعل النّيران حينما تصطكّ بالحصى، وهي كالنّعام خفّة ورشاقة، وعندما تسبح في المياه تبدو كالحيّتان⁽¹⁾. [الكامل]

جُرْدٌ بِهِنَّ لَكُلِّ عَيْنٍ جَنَّةٌ فَإِذَا جَرَيْنَ أَتَيْنَ بِالنَّيِّرَانِ
يُحْكِينَ فِي الْبَيْدِ النِّعَامَ رَشَاقَةً وَيَسْرَنَ فِي الْأَنْهَارِ كَالْحَيْتَانِ

وله مقطوعة في وصف النّمر، يقول فيها⁽²⁾: [الرجز]

أَحْسِنَ بِهِ مِنَ النَّمُورِ أَهْرَتَا يَحَارُ فِي تَدْبِيجِهِ أَهْلُ الْحَجَى
إِذَا بَدَأَ يَرِيكَ مِنْ إِهَابِهِ (طُرَّةٌ صُبِحَ تَحْتَ أُنْيَالِ الدُّجَى)⁽³⁾

فهذا الوصف يكشف عن مصوّر فنّان أبصر النّمر عياناً، فنقل لنا صورة دقيقة لملامحه من حيث: فمه الواسع، وجلده المُرْقَط الذي تحار العقول في وصفه، فإذا ما تجلّى تراءى للنّاظر جلده مختلط الألوان كاختلاط بياض الصّبح ببقية ظلّمة اللّيل.

وله مقطوعة في وصف فهد مُرَقَّش، إذ جُمعت فيها مظاهر الحسن، من عينيّن كحيلتين، وجلدٍ مُنْقَط، بحيث يجمع بين الضدّين بياضاً وسواداً، فضلاً عن قوّته وتجهّمه، فيبدو دائماً في حالة من العبوس والغضب⁽⁴⁾. [الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 224.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 237.

(3) مضمن من بيت ابن دريد، وصدرة: "إِمَّا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ" شرح مقصورة ابن دريد 13.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 170.

فَهْدٌ كَحَيْلِ الْمُقَاتِلِينَ مُرَقَّتْ
اللَّيْلُ فِيهِ وَالنَّهَارُ تَغَايِرًا
جَهْمُ الْمَحْيَا لَا يَمْلُ مِنَ الْحَنْقِ
لِلَّهِ ثَوْبٌ أَلْبَسَاهُ مِنَ الْحَدَقِ

وأبدع ابن حبيب في الصُّورة التي رسمها لفرس أشقر⁽¹⁾ [السريع]

أَكْرَمَ بِهِ أَشْقَرُ ذَا غُرَّةٍ
عِنْدَ الصَّبَاحِ انظُرْ إِلَيْهِ، وَقَلْ
كَانَ نَجْمَ رَحْبِ الصَّدْرِ سَامِي الْبَلِيلِ
وَقَتِ الضُّحَى عَايَنَتْ شَمْسَ الْأَصِيلِ

فهذا الفرس ذو غُرَّةٍ بيضاء تتراءى نجمًا رُكِبَ في غُرَّتِهِ، وهو ذو صدرٍ رحبٍ واسعٍ، وصوتٍ عالٍ في الصَّهِيلِ، وقد استمدَّ لونه من لون الشَّمْسِ، فبدأ كأنَّه قطعة منها عند الغروب.

وقد برع كذلك في وصف الصَّقْرِ، فقال⁽²⁾: [مجزوء الكامل]

أَحْسَنَ بِهِ بَازَا يَغَارُ الْـ
وَيَكَادُ يَشْوِي مَا يَصِيـ
لَيْثٌ مِنْهُ إِذَا وَثَبَ
دَ، بَعِيْنُهُ ذَاتُ اللَّهْبِ

فهذا التصوير البديع يكشف عن قدرة ابن حبيب في استخراج الصُّور الرَّاعة من خلال أخذ المعاني والتشبيهات من الحيوانات ووضعها في أخرى، فهذا الصَّقْرُ يغار منه اللَّيْثُ في طريقة وثوبه، كما أنَّ عينيه كالشَّرِّ المتطاير، فتتوقَّد منها النَّارُ التي تشوي كُلَّ من يصيده قبل اصطياده.

وله مقطوعتان جميلتان في وصف الدِّيَكِ، يقول في الأولى⁽³⁾: [الكامل]

وَمَتَوَجَّعُ عِنْدَ الصَّبَاحِ دَعَا إِلَى
بَهْرِ الْعِيُونِ بِتَاجِهِ وَشَنُوفِهِ
شَرِبَ الصَّبُوحَ مَذْكَرًا بِصِيَاحِهِ
لَمَّا اشْرَأَبَ مَصْفَقًا بِجَنَاحِهِ

فهذا الدِّيَكُ ذو منظر حسن وقد رفع رأسه يعلوه النَّاجُ، ليعلن بصوته الحسن بزوغ الفجر، غير أنَّ صياحه هذا كان دعوة للصَّحْبِ لشرب الخمر. وانتقل بعد ذلك ليصف حسنه وجماله الذي يبهر العيون وبخاصَّةٍ عُزْفَهُ الجميل، وعندما يأخذ بالتَّصْفِيقِ بجناحيه.

وفي الثَّانية يقول⁽⁴⁾: [الرجز]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص270.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص270.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص270.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص270.

لله ديك أرقم الريش له حق علينا موجب لصونه
كم قد شربنا خمرة صافية كعينه في روضة كلونه

بدا الشاعر معجباً بلون ريشه المرقوم بأجمل الألوان، وهو معجب كذلك بصفاء عينه التي يضرب بها المثل في النقاء، وبها قرن صورة الخمر الصافية التي شربها هو وصحبه.

ووصف طائر الهزار حينما يُحرّك جناحيه، ويأخذ في إصدار أعذب الألحان بصوته العذب، فتطرب الأشجار وتتمايل لحسنه صوته، وسرعان ما يُغيّر ألحانه، فيبدو وكأنّه يضرب عوداً أو ينقر دُفّاً⁽¹⁾. [السريع]

أفدي هزّاراً مطرباً دوحه في دف زرع فائق الوصف
طورا على العود يغني لنا وتارة ينقر في الدف

ولابن حبيب وصف جميل لنوع من الحمام يُسمّى "حمام البطاقة"، سُمّي بهذا الاسم لأنّه كان يحمل الرسائل البريدية في جناحيه، يقول واصفاً إحداها وقد أبصر الرسالة التي تحملها، وقد استبشر بتغريدها، وما تحمله من بشرى وأخبار سارة. يقول⁽²⁾: [الخفيف]

مرحبا مرحبا بورقاء بشر خضبوا طرسها مع الرّاحتين
غرّدت حين أقبلت بالتهاني فطربنا على كلا الحالين

وله فيها مقطوعة أخرى، وفيها يقوله⁽³⁾: [الكامل]

حمل الحمام بطاقة مرموقة طويت على نشر المسرة والفرح
أكرم به من طائر وجد الهنا والبشر تحت جناحه لما جنح

فالشاعر -هنا- يمدح هذا الضرب من الحمام، الذي يحمل معه الفرحة، وينشر المسرة بالأخبار التي يأتي بها لأصحابها، وهو طائر محمود، لما يطويه تحت جناحيه من بشرٍ وسعادة وحبور.

وقال في صف طائر الجليل المعروف بـ(الكروان) أو (الدُّراج)⁽⁴⁾: [المنسرح]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص270.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص270.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص270.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص271.

طير جليل المحل يطرب من لسمع أحنانه ونغمته
أحسن به قادمًا ومرتحلا يود قلبي لو طار صحبته

فلهذا الطائر صوت عجيب يطرب الأسماع بألحانه الجميلة، ويتمنى الشاعر لو أن قلبه طار معه.

2- وصف المدن ومظاهر العمران

اهتم الشعراء بوصف المدن التي نشأوا فيها، أو التي زاروها، أو التي اتخذوها مقامًا، واهتموا كذلك بوصف ما فيها من العمارة وبخاصة المساجد والنواعير والحمّامات والنوافير، فضلًا عن وصف القلاع والحصون والأبراج وغيرها من المظاهر التي استوقفت الشعراء، ففتنّوا في وصفها، وأخذوا يرسمون أدقّ تفاصيلها، كل ذلك حالة الاندهاش التي انتابتهم عن رؤيتها، أو الإشارة إلى عظمة السلطان الذي بُني في عهده هذا المعلم أو ذلك.

وما من شكّ في أنّ ابن حبيب كان يُحبُّ الشّام كثيرًا فله فيها ستّ مقطوعات، حرص من خلالها على إظهار جمالها وتفردّها عن بقاع الأرض كافة، إضافة إلى وصفه لبعض المدن التي كان قد زارها. وفي مقطوعة له يشير إلى أنّ من أراد أن يرى النهر، ويشرب لذيذ الخمر، ويشاهد الفتيات الحسان، والرياض المزهرة المخضرة، فما له إلّا أن يشمّر عن ساعد الجدّ، ويركض راحلاً إلى الشّام، وينخ ركابه في طرابلس، حيث إنّه -ابن حبيب- أقام بها سنتين. قال (1): [البسيط]

يا من يميل إلى نهرٍ وكأسٍ طلا وروضةٍ ورشا ثوبَ الجمالِ كُسي
شمّر عن الساق، واركبَ ظهرَ ناجيةٍ وازحلّ إلى الشام، وانزل في طرابلس

ويشير إلى أنّ سرّ جمال الشّام وما فيه من أمواهٍ وخضرةٍ وخيرات، يعود إلى البركة التي عمّت

أرضه؛ لأنّ الحبيب المصطفى، صلّى الله عليه وسلّم، كان قد مرّ بها. يقول (2): [الكامل]

أما الشّامُ فإنّ غيثَ المُنز من بركاته عن أرضه لا يرّحل
والخيرُ مُنثالٌ عليه، وكيف لا وإليه قد وفى النبيُّ المُرسَلُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 138.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 189.

وركز ابن حبيب في مقطوعة أخرى على إظهار محاسن الشام وأهله، مستحضراً تاريخها الحافل، فهي دار الأمان، ومستقر البركة والإيمان، وفيها تنزلت الرحمت، وعمت الخيرات والبركات، وسكنها الأخيار والأبرار، وعلى أرضها تحققت الانتصارات، وفيها مقر الأنبياء والأتقياء والأصفياء، وهي كذلك أرض الشهداء الأبرار، ودار العلماء الأطهار. قال (1): [السريع]

وحي أهْلَ الحَيِّ وأقْرَ السَّلَامِ	عَرَجَ إِذَا مَا شِمْتَ بَرَقَ الشَّامِ
بَارِكَ فِيهِ اللهُ رَبُّ الأَنْبَاءِ	وَانزَلَ بِإِقْلِيمِ جَزِيلِ الحَيَا
لِعُرْوَةِ الإِسْلَامِ عَنْهُ انْفِصَامِ	العِزِّ والنَّصْرِ لِدِيهِ، وَمَا
رُكْنًا بِمَرَاهُ يَطِيبُ المَقَامِ	مَنْ أَوْلِيَاءِ اللهُ كَمَ قَدْ حَوَى
وَالأَصْفِيَاءِ الأَتْقِيَاءِ الكِرَامِ	وَهُوَ مَقَرُّ الأَنْبِيَاءِ الأَلَى
مَنْ عَالِمِ فَرْدٍ، وَكَمَ مِنْ إِمَامِ	كَمَ مِنْ شَهِيدٍ فِي حِمَاهُ، وَكَمَ

ورسم ابن حبيب الحلبي لوحة وصف فيها المشاهد التي هالته وأدهشته، وبخاصة سحر الطبيعة في الشام (دمشق)، وطلب ممن لم يزرها أن يُعجل في ذلك، فهي زينة البلدان، معدودة من إحدى مدائن الجنة، المعروفة بإرم ذات العماد، والموصوفة بالتّي لم يخلق مثلها في البلاد (2). وأرضها بساط أخضر، ترتدي بساتينها حلة موشاة كريش الطاووس، والسُرور فيها دائم فلا كدر ولا تعب، والزبوة قلاقتها وجوهرتها، أمّا غدرانها فعذبة رقراقة، وثمارها ناضجة لذيدة، وهي أشبه ما تكون بالسّماء المزيّنة بالدراري، فأينما مدّ الإنسان فيها النّظر أبصر قمراً، وفي هذا يشير إلى جمال وجوه سكّانها ووساماتهم. قال (3): [الكامل]

وانزل بأرض نُورِها يجلو البَصَرُ	يَمَمَ دَمَشَقَ تَفُزُ بِإِدْرَاكِ الوَطَرِ
فالعِيشُ فيها لا تُخَالِطُهُ كَدَرُ	وَأَنْبُحُ رِكَابِكَ فِي حَمَى أَرْجَائِهَا
ومعِينها قَرَّتْ عِيونُ أُولِي النّظَرِ	أَحْسِنُ بِهَا مِنْ رِيوَةِ بَقَرِهَا
يا حَبَّذَا مَنْ يَحْتَلِي تِلْكَ الحَبَرِ	فَتَانَةَ حَبَرِ المَحَاسِنِ تَرْتَدِي
يجني القُطُوفَ، وَكَمَ بِهَا يَجْرِي نَهْرُ	لَا نَهَرَ فِي جَنَاتِهَا العَلِيَا لِمَنْ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 197-198.
(2) إشارة إلى الآية القرآنية "إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد" سورة الفجر، الآية 8.
(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 111.

وبدا ابن حبيب مفتونًا بجمال جزيرة حمص التي غدت كعبة القُصَّاد من كلِّ أرضٍ، فجاءها القاصي والداني زائرًا طائفًا، ناظرًا إلى سحر جمالها، مشدوهاً بروية حدائقها وجنَّاتها وسُهلها التي تسرُّ الناظرين، وهي على الدوام تلبس بروداً سُندسيَّة. كلُّ بفضل نهر حماة المعروف بـ"العاصي" الذي جاورها وتعلَّق بأطرافها. وفيها يقول⁽¹⁾: [الطويل]

جَزِيرَةُ حِمصِ كَعْبَةُ الْقُصْفِ أَصْبَحَتْ يَطُوفُ بِهَا دَانَ، وَيَسْعَى لَهَا قَاصِي
لَهَا حُلَّةٌ مِنْ نَبْتِهَا سُندِسيَّةٌ تَعَلَّقَ فِي أَطْرَافِ أَدْيَالِهَا الْعَاصِي

ولابن حبيب مقطوعة حزينة باكية وصف فيها مدينته التي أحبَّ، وتحسَّر على معالمها الحضاريَّة، حينما وصف الخراب والدَّمار الذي حلَّ بها، فهجَّر سُكَّانها، وتفرَّق شمل جيشها المدافع، وقلعتها الشَّهباء انقضَّت أركانها، ودُمِّرت أبراجها، وجسرها. أمَّا مسجدها الجامع فأصبح فقراً بلقعا، وأصبح حزينا باكيًا بعد أن خلا من الرُّكَّع السُّجود، وامتلأت قنواتها دماءً من كثرة القتلى، وطلب ممَّن تبقى فيها من أهلها أن يصبروا على ما أصابهم. يقول⁽²⁾: [الكامل]

حَلَبٌ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا، وَتَفَرَّقَتْ مِنْ جَيْشِهَا بَعْدَ النَّظَامِ جُمُوعُهُ
وَالْقَلْعَةُ الشَّهْبَاءُ أَذْهَمَ حَظَّهَا وَافِي، وَتَخَتَّ الْمَلِكُ حَطَّ رَفِيعُهُ
وَانْقَضَّ رِمْنُ مَقَامِهَا وَتَسَاقَطَتْ أَبْرَاجُهَا، وَالْجَسْرُ طَالَ خُضُوعُهُ
وَالْجَامِعُ الْمَفْرُوضُ أَمْسَى مَفْرَدًا وَنَأَى سَجُودَ حَلِيفُهُ وَرُكُوعُهُ
وَمَحَاسِنُ الْأَسْوَارِ سَارَتْ وَانْطَوَتْ وَذَوِي الْأَصُولِ بِنَاوِهَا وَفِرْعُوعُهُ
وَقَنَاتُهَا مِنْ حُزْنِهَا تَجْرِي دَمًا وَالْفَيْضُ فَاضَتْ كَالْبَحَارِ دَمُوعُهُ
نَثَرَتْ عُقُودَ الْجَوْهَرِيِّ وَالسَّمَا نَجْمَ عَلَى السَّعْدِيِّ كَمَا كَانَ طُلُوعُهُ
يَا أَهْلَهَا الْبَاقِينَ لِلْبَيْنِ اصْبِرُوا فَالْأَمْرُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ جَمِيعُهُ

وإذا تركنا وصف الشَّام وحب وابتقلنا إلى وصف الجوامع نجد مادةً خصبة لدى ابن حبيب، فأجاد في وصفها نثرًا⁽³⁾ وشعرًا. ومن ذلك قوله في وصف جامعها الأمويِّ، الذي عدَّ أعجوبة الرِّمان،

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 145-146.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 157.

(3) ينظر وصف ابن حبيب النثري للجامع. ابن حبيب، تذكرة النبيه 223/3.

وقلَّ أن يوجد له نظير في شكله وهندسته، وأشاد بصوت الأذان فيه، إذ يطرب الأسماع، قارئاً صوت

المؤذن بصوت المغني معبد بن وهب⁽¹⁾: [السريع]

لله ما أجملَ وصف جأقي وما حوى جامعها المنفرد
قد أطرب الناس بصوت صيته وكيف لا يطرب وهو معبد

تجدد الإشارة إلى أن ابن حبيب ألف في وصف جامع بني أمية كتاباً سماه "تشنيف المسامع

في وصف الجامع"، ويظهر من خلال هذا أنه كان متعلقاً بهذا المعلم، وفيه يقول⁽²⁾: [المجتث]

يا جامعاً في دمشق في حُسنه قد تفرّد
لم تطرب الناس طراً إلا لأنك معبد

هذان البيتان يظهران تعلق الشاعر بهذا المسجد المنفرد في حسنه وصنعتة، وقد أجاد ابن

حبيب في توظيف التورية من خلال الربط بين هذا المعبد الذي تطرب الأسماع فيه حين ينادي

الداعي إلى الصلاة، وبين معبد المغني المشهور الذي ذاع صيته بحسن الصوت في الغناء في

العصر الأموي.

وفي مقطوعة أخرى يشير ابن حبيب إلى مكانة جامع دمشق، ويطلب من الناس أن يأتوا إليه

متعبدين؛ لأنه إمام المساجد، ومقام أهل التعبّد، وهو مشهد الفائزين برضوان الله في الدار الآخرة، وهو

جامع فريد، كمل الله بهاءه وزينته، وأبدع نظامه وصنعتة، بحيث أعجز من يضاھيه، وغدا شامة تزین

وجه دمشق، وبذا فاق جميع مساجد الأرض كافة. وفي الختام يدعو الشاعر الله أن يبقي هذا الجامع

ويحفظه ويصونه أبد الدهر⁽³⁾. [الوافر]

بجامع جأقي رب الزعامه أقم تلق العنايه والكرامه
ويمم نحوه في كل وقت وصل به تصل دار الإقامه
مصلى فيه للرحمن سر ومثوى للقبول به علامه

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 92-93.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 93.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 201-202.

مَحَلُّ كَمَلِّ الْبَارِي حُلَاهُ وَبَيْتُ أَبْدَعِ الْبَانِي نِظَامَهُ
 دِمَشْقٌ لَمْ تَزَلْ لِلشَّامِ وَجْهًا وَمَسْجِدُهَا لَوْجُهُ الشَّامِ شَامَهُ
 وَيَبِينُ مَعَابِدِ الْآفَاقِ طُرًّا لَهُ أَمْرُ الْإِمَارَةِ وَالْإِمَامَةِ
 أَدَامَ اللهُ بِهَجَّتِهِ وَأَبْقَى مَحَاسِنَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وقال واصفًا مئذنة أو منارة الجامع المعروفة بـ (العروس)، إذ تميل إليها النفوس، ويجمع

النَّاسُ فِي رِحَابِهِ الطَّاهِرَةِ، وَيَتَرَاءَى لَهُمْ بِهَاءِ الْمَنَارَةِ الذَّهَبِيَّةِ وَرَوْنِقِهَا، فَتُجَلَى حَلَّتْهَا حِينَمَا تَتَعَكَّسُ عَلَيْهَا

أَشْعَةُ الشَّمْسِ كُلِّ صَبَاحٍ، فَيَزِدَادُ بِهَاؤُهَا وَأَلْقَاهَا وَبَرِيقِهَا وَلَمَعَانِهَا⁽¹⁾. [الخفيف]

مَعْبَدُ الشَّامِ يَجْمَعُ النَّاسَ طُرًّا وَإِلَيْهِ شَوْقًا تَمِيلُ النُّفُوسُ
 كَيْفَ لَا يَجْمَعُ الْوَرَى، وَهُوَ بَيْتٌ فِيهِ تُجَلَى عَلَى الدَّوَامِ الْعَرُوسُ

وله مقطوعة أخرى وصف فيها الباب القبلي لجامع بني أمية، والمعروف بباب الزيادة. يقول

مستغربًا من حال الذي ينثني عنه قاصدًا جامعا آخر، فكيف يترك هذا الجامع الذي غدا منارة للعلم

والعلماء، فمن أراد زيادة في العلم، فخير له أن يأتي من باب الزيادة⁽²⁾: [الكامل]

يَا رَاغِبًا فِي غَيْرِ جَامِعِ جَلِّقِ هَلْ يَسْتَوِي الْمَمْنُوعُ وَالْمَمْنُوحُ؟
 أَقْصِرْ عَنَّا، وَفِي غُلُوكَ لَا تَزِدْ إِنَّ الزِّيَادَةَ بَابُهَا مَفْتُوحُ

ووصف ابن حبيب جامع السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون، الذي شيده في القاهرة

سنة (758هـ)، وكان ذلك الجامع عظيمًا محكمًا، عالي الأركان، رحبًا واسعًا، له صحن كبير فيه

أربعة أواوين متقابلة، وفي صدره قبة تضاهي قبة النسر التي بجامع دمشق، وعلى كنفى الإيوان

الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلى مدرستين، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة،

وعلى بابه سبيل يسقى فيه ماء النيل، وفوقه مكتب لتعليم الأيتام⁽³⁾. وعرف هذا الجامع بقبته الشاهقة،

وقناطره المرتفعة، وزخارفه الرائعة، وأبوابه العالية التي تضاهي أهرام مصر. وفيه يقول⁽⁴⁾: [الرجز]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 137.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 88.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه 209/3-210.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 200.

في جَامِعِ السُّلْطَانِ، قُلْ يَا مَنْ أَتَى
مِصْرًا، وَطُفَّ سَغِيًّا بِذِيكَ الْحَرَمِ
وانظُرْ بِنَاءً يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ فِي
ثُوبِ الشَّبَابِ، واطَّرِحْ ذِكْرَ الْهَرَمِ

وفي حلبٍ وصف ابن حبيب الجامع الذي أنشأه الأمير علاء الدين الطنْبِغَا، نائب السلطنة في حلب. ولهذا الجامع محاسن كثيرة، فله بابان كبيران، وعمارته فخمة، ومنارته عالية، وقد جُلبت له أعمدة عظيمة من بقاع الأرض، ووقف عليه السلطان أوقافًا كثيرة للبرِّ وإغاثة النَّاسِ. وقد حظي شاعرنا بإلقاء أوَّل خطبة في افتتاحه، وكان ذلك يوم الجمعة سنة (723هـ)⁽¹⁾. وفيه يقول⁽²⁾: [السريع]

فِي حَلَبِ دَارِ الْقِرَى جَامِعُ
رَحَبُ الدُّرَى يَبْدُو لِمَنْ أَمَّهُ
مرتفعُ الرِّيَاثُ يَرْوِي الظَّمَا
يَهْدِي الْمُصَلِّي فِي ظِلَامِ الدُّجَى
من حَوْلِهِ الرَّوْضُ يَسُرُّ الْوَرَى
لِلَّهِ بَانِيهِهِ الَّذِي خَصَّهُ
أنشأه الطنْبِغَا الصَّالِحِي
لطف معاني حسنه الواضح
من مائه بالشارب السالحي
من نوره باللامع اللامح
من زهره بالفائق الفائح
بالروح للغادي وللرَّاحِ

وكذلك وصف البرك فمن ذلك قوله⁽³⁾: [الرجز]

وبركة راقِ العيونِ ماؤها
كأن أفياء الغصونِ ضمناها
نسيمها نشر الغواني يَرْخُصُ
شخوص ظلِّ في الخيال تَرْقُصُ

فهذه البركة بدیعة تروق العيون بمائها الصافي وظلها الضافي، وتعبق من جنباتها روائح عطرية أجمل رائحة من الطيب الذي تتعطر به النساء الجميلات، وصور ظلال الأشجار المتراقصة التي تحيط بها، وقد انعكست على صفحة الماء كأنها ظلال أشخاص يتراقصون، وهذه صورة فنيّة في منتهى الرّوعة.

(1) سبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، ص 236.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 88-89.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 145.

وقال في بركة أخرى⁽¹⁾: [الخفيف]

إن في الروض بركة لا تجارى وردها لم يزل هنيئاً ميسر
نحوها مالت الغصون، وفيها وقع الماء لما جرى فتكسر

فبركة الرّوض هذه لا تُجاريها بركة، وهي هنيئة الورد، وقد تهدّلت الأغصان نحوها ومالت على جنباتها، وصوّر الماء المُتدفّق إليها بخيول تجري مسرعة، وفي هذا إشارة إلى سرعة تدفّق الأمواه وكأنّها خيول تجري، فوقعت وتكسّرت قوائمها.

ووصف حمّامًا كان قد دخل إليه ليستحمّ، ونقل لنا صورة لموقد النّار فيه (الحمّام الحارّ)، وقد أخذت جماره تتوقّد، ومياهه تغلي، وجرى الماء الحارّ مسابًا عبر قنواته ليستقرّ في الأحواض المخصّصة للاستحمام. قال⁽²⁾: [الكامل]

لله حمّام دخلت مكانه مثلي لما ألقى من الأعراض
في صدره نار توقد جمرها ودموعه تجري على الأحواض

3- وصف الكتب والدّواوين

أحدث شعراء العصر المملوكي نقلة جديدة في فنّ الوصف الذي يُعدّ من أكثر الفنون رحابةً واتساعاً، إذ ساهموا وتفرّدوا وجدّدوا في ألوانه، كوصفهم للطعام، واللباس، وتركيزهم على النّقد الاجتماعي للظواهر التي سادت في ذلك المجتمع آنذاك، وغيرها من الموضوعات الجديدة التي اقتضتها الظروف السياسيّة والاجتماعيّة.

ومن بين الظواهر التي تنافس الأدباء والشعراء في وصفها شعراً أو نثرًا، تلك التي تتعلّق بوصف الكتب والدّواوين والرّسائل، وهو ما يعرف بفنّ التّقريض، فعندما ينتهون ما قراءتها كانوا يثبتون تقريضاً لها أو وصفاً بخطّهم على جلد الكتاب أو الدّفتر، وفي أغلب الأحيان يكون هذا التّقريض أو

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 272.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 273.

الوصف على هيئة مقطوعة شعرية متفاوت عدد أبياتها، أو نصٌّ نثري يطول أو يقصر، اعتماداً على ما تقتضيه هيئة التقرّيب أو الوصف.

وقد شكّلت العلاقات بين الشعراء والأدباء عاملاً هاماً في رواج هذا اللون من الوصف، وهذا ما تظهره المعاني الواردة في الأبيات أو النصوص النثرية، إذ تكشف في جوهرها عن علاقات أخوية تسودها أجواء الصفاء والموّدة والمحبة. ولذا فإن أصحابها كانوا يلجأون إلى رفع مكانة الكتاب وصاحبه في وصفهم، وهذا بدوره يؤدي إلى رواج مُصنّفات العلماء بين الناس.

وبالعودة إلى ابن حبيب، فإننا نجد أنّ له علاقات وصلات وطيدة مع أدباء عصره، وبخاصة الذين التقى بهم وكانت له معهم مكاتبات ومحاورات، على نحو ما ذكرنا في الحديث عن علاقاته بأدباء العصر، ونذكر من أولئك: ابن الوردي (ت749هـ)، ابن فضل الله العمري (ت749هـ)، صفي الدين الحلبي (ت750هـ)، الصّلاح الصّفي (ت764هـ)، ابن نباتة (ت768هـ).

وبالنظر إلى هذا اللون من الوصف في ديوان ابن حبيب، نجد أنّه قرّظ أربعة عشر مؤلفاً ما بين كتابٍ وديوانٍ ورسالة وترجمة، وهذا يقودنا إلى الحديث عن بعضٍ منها.

كتب شاعرنا على ديوان "المثالث والمثاني"⁽¹⁾ لصفي الدين الحلبي⁽²⁾: [الكامل]

يا أيُّها الحلبي جئت بخُلّةٍ عدليّةٍ، ولها طرازٌ مُذهّبٌ
وجلوتُ بجرّاً من بدائعك التي شمّس الضحى منها حياءً تغربُ
بحديثها قد أطربتُ أسماعنا وكذا المثالثُ والمثاني تُطربُ

فالشاعر -هنا- يشيد بما ورد في هذا الديوان من معاني مطرزة بالذهب، ومخترعاتٍ بديعة تخجلُ الشمس، وفيها من الأوصاف ما تُسحر به العقول، وألفاظه ألدُّ من رنّات المعازف ذات المثاني والمثالث من الأوتار، التي تطرب بسماعها الأذان.

(1) ديوان المثالث والمثاني في المعالي والمعاني. مجموعة من المختارات انتخبها الحلبي اعتماداً على مبدأ الاستحسان والتفضيل، وقد اشتمل هذا الديوان على أشعار لم تنشر في ديوانه الكبير، وقد تنوعت الموضوعات التي تناولتها المقطوعات الموجودة في ديوان الثالث والمثاني، في الحكمة، والحماسة، والفخر، والخمريات، والغزل، والنسيب، والإخوانيات. طبع هذا الديوان في دمشق بدار سعد الدين سنة 1998م.
(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 61.

وما من شك في أن علاقة ابن حبيب بالأديب جمال الدين بن نباتة كانت قويّة، فقد قرّظ ثلاثة من آثاره، الأول ما كتبه على ديوانه المُسمّى بـ "الخاص" (1) وفيه يقول (2): [المتدارك]

ديوانُ الخاصِ منافعُهُ عمّت أعيانَ ذوي الأدبِ
ففي حاصِلِهِ باقِي دُرُرٍ نظمت لهم نظمَ الحبيبِ
فأقبضُ مصروفَ فوائدهِ واحفظُها تملُّ أقصى الأدبِ

ففي هذه الأبيات يفصّل ابن حبيب الحديث عن الديوان من حيث: منفعه، وبين شكل الكلمات ومضمونها، مشبّهًا مرّةً، ومادحًا أخرى، فألفاظه دُرٌّ، لا بل جواهر منظومة في عقد.

أمّا كتابه الثّاني، فهو "القطر النباتي" (3) وكتب عليه ابن حبيب مكرّرًا المعاني ذاتها في تقرّظه

له (4): [المجتث]

فرائدٌ من شذاها يفوح في الكونِ عطُرُ
حلت وحأبت بنفيع وكيف لا، وهي قطرُ

وقرّظ ابن حبيب الحلبي على كتاب ابن نباتة الثالث المُسمّى "زهر المنثور" (5) ما نصّه (6): [الرجز]

هذا كتابٌ نافعٌ يختالُ ما بين عقودِ الأدبِ المأثورِ
منظومٌ دُرٌّ لفظه فاح الشذا بين الورى من زهره المنثورِ

فهذا الكتاب يمتاز عن سائر كتب الأدب بما فيه من عقودٍ منظومة، فنثره أنيق كالآلي المُرصّعة، وألوانه موشاة بألوان من زهور يفوح شذاها.

وكتب ابن حبيب الحلبي تقرّظًا لكتاب "الحاوي" (7) للإمام نجم الدين أبي عبد الله محمد ابن

عبد القادر القزويني (ت 668هـ)، وفيه يقول (8): [الطويل]

(1) لم نجد هذه التسمية في آثار ابن نباتة، والأرجح أنه قصد به ديوانه الكبير الذي قام بتحقيقه الأستاذ محمد القلقيلي.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 66.

(3) اقتصر فيه ابن نباتة على مقاطيع من شعره الرقيق. وقد حقّقه عمر موسى باشا.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 123.

(5) هذا الكتاب في الإنشاء، وتحديداً في فن الترسّل. ينظر: عمر موسى باشا، أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري، ص 227.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 126.

(7) هو كتاب "الحاوي الصغير في الفروع"، وهو كتاب خاص بالفقه حققه: د. صالح بن محمد بن إبراهيم اليابس. صدر عن دار ابن الجوزي، بالمملكة العربية السعودية، 1430هـ.

(8) ابن حبيب، ديوانه، ص 67.

بأنوارِ نجمِ الدينِ عَزَّتْ وأَشْرَقَتْ وجوهٌ عَدَّتْ تُعزِي لأشرفِ مذهبِ
حَوَانَا بحَاوٍ للفتَاوى مَهْدَبٌ مُزِيلٌ لأشكالِ المسَائِلِ مُذْهَبٌ
يَفوقُ تصَانِيفَ الأئمةِ كَيْفَ لا وقد لَاحَ في ثوبِ من الحُسْنِ مُذْهَبِ

يبدو الشاعر محباً لمذهب الإمام القزويني وهو المذهب الشافعي، وبه يفخر في البيت الأول، ويشيد بما ورد في هذا الكتاب من فتاوى أزال من خلالها الإشكال والتعقيد الذي جاء في كتب أخرى، ويعلي ابن حبيب من شأن هذا الكتاب فعده من أفضل مصنفات الأئمة على الإطلاق.

وفي مقطوعة أخرى قال ابن حبيب الحلبي: "وكتبتُ على مختصر في التاريخ جمعه زين

الدين عمر بن الوردى (ت749هـ)⁽¹⁾: [الرجز]

عَرَفْتُ نَافِلاً فَضْلَكَ قَدْ أَجْمَلَ يَا تَارِيخَ زَيْنِ الدِّينِ عَزَفَ الرَّنْدِ
فَأَنْتَ مَاءُ الْوَرْدِ مَا بَيْنَ الْوَرَى تُهْدِي الشُّذَا عِنْدَ ذَهَابِ الْوَرْدِ⁽²⁾

فهو في هذا التقريض يجمع بين الإشارة إلى أهمية الكتاب الموصوف، وبين الإشارة إلى لقب صاحبه، وهذه من الظواهر التي نلمسها في معظم أشعار ابن حبيب، ليس في التقاريف فحسب.

ولابن حبيب تقريض لمختصر ديوان سراج الدين الوراق المسمى "لمع السراج"، فكتب لما وقف عليه، متأسفاً على صاحبه الذي قضى تاركاً وراءه أنواراً مشرقة، غير أن نوره لم يخب، بل ظل ذلك السراج مضيئاً، وعليه جاء الاتفاق بين الوراق وصحائفه. قال⁽³⁾: [الكامل]

طُفِي السَّرَاجُ وَنُورُ مَا أَمْلَاهُ فِي صُحُفِ الْبَلَاغَةِ ظَاهِرِ الْإِشْرَاقِ
فَأَنْظُرُ إِلَى الدَّرِّ الْمُضِيِّ بِهَا وَقُلْ لِهِنَّ دَرٌّ صَحَائِفِ الْوَرَّاقِ

وكتب شاعرنا على معجم⁽⁴⁾ شيخه الحافظ علم الدين البرزالي (ت739هـ) لما وقف عليه، وكان قد اجتمع به مرّات عدّة⁽⁵⁾: [الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 102.

(2) إشارة إلى تاريخ ابن الوردى، ويسمى: "تتمة المختصر في أخبار البشر".

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 176.

(4) يوجد قطعة صغيرة من المعجم المذكور بخط المؤلف، وهناك نسخة مصورة عنها عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 194.

يا طالباً نعتَ الشيوخ وما رأوا وَرَوُوا عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
دارَ الحديثِ انزُلَ تَجِدُ ما تبتغي لك بارزاً في معجم البرزالي⁽¹⁾

فمن أراد الإفادة من الشيوخ وما روه من علوم تفصيلاً وإجمالاً، فما عليه إلا الوقوف على معجم البرزالي، الذي ذكر فيه مشايخه في علم الحديث الذين يزيد عددهم على ألفين⁽²⁾.

أمّا صديقه الصّلاح الصّفي (ت764هـ)، فقد كتب على كتابه "الرّوض الباسم، والعرفّ النَّاسِم من مقطّعات شعره"⁽³⁾ البيتين⁽⁴⁾: [الرجز]

وقائلِ روضِ صلاح الدينِ صِفْ لي حُسْنَهُ، فقلتُ: روضِ باسمِ
فقال لي: زِدني وشنّف مَسْمعي قلتُ: نعم، والعرفُ منه ناسِمُ

فهذا الكتاب كالرّوض المعطّر بالأريج حسناً، ومن أراد الزّيادة فمقطوعاته تطرب لها الأسماع، ويفوح شذاها في الأرجاء.

وكتب ابن حبيب الحلبي على قصيدة شرف الدين موسى بن مسعود بن شبل الجعفري الشافعي (ت762هـ)، نائب الحكم بمعرة مصرين من أعمال حلب⁽⁵⁾ [البسيط].

نونيةٌ ناوتِ الأفلاكَ فانتشرتْ نجوم سلكٍ لها قد كان موصوناً
عذراءٌ يعدُّ مَنْ أمسى بها كلفاً نشوان من خمرة الأفكارِ مفتوناً
أسلوبها يسلبُ الأبوابَ حيثَ عدا من المعاني بقرن الشمسِ مقروناً
أين ابنُ زيدونَ ربُّ الفضلِ يسمعها حتى يقرَّ لها أين أين ابنُ زيدونا؟

فهذه الأبيات تشير إلى إعجاب الشاعر بقصيدة الجعفري على نظمها على رويّ النونية الزيدونية المشهورة، فأتى خلالها بدرر مكنونة، وفرائد كلّها عجائب، قيّدت غريب المعاني بحبالها، ولو تأملها ابن زيدون لأصبح بها مفتوناً، فله درّ ناظم عقودها، وراقم برودها.

(1) يعني المدرسة النورية في دمشق. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 83/1.

(2) ابن حبيب، تذكرة النبيه، 301/2.

(3) حقّقه الدكتور محمد عبد المجيد لاشين، وصدر عن دار الأفاق العربية بالقاهرة، 2005م.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص205.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص217.

سادساً: الحوادث الاجتماعية والكوارث

اهتمَّ ابن حبيبٍ بوصفه مؤرِّحاً وأديباً شاعرًا بالنَّظم في الاتجاه الاجتماعي، الَّذي يوضِّح أحوال العصر الذي عاش فيه، مُظهرًا أحواله السياسيَّة وبخاصَّة الحروب والانتصارات، أو التي تتعلَّق بإصدار المراسيم الخاصَّة بالسلطين، فضلاً عن تصويره للكوارث التي ألمَّت بالنَّاس، وهي على ضربين: الأول يتمحور حول الكوارث التي صنعتها يد الإنسان، وبخاصَّة دخول النَّتار بلاد الشَّام وتخريبهم للمدن. أمَّا الثَّاني فيدور حول الحديث عن الكوارث الطَّبِيعيَّة من سيولٍ خارفة وأمراضٍ فاتكة مهلكة، وصوِّر في بعض المقطوعات هموم النَّاس وبخاصَّة في ظل غلاء الأسعار وارتفاعها من حين لآخر. وبالجملَّة فقد بلغ عدد المقطوعات التي تناولت الحديث عن الكوارث والحوادث (32) مقطوعة، ويمكن قسمتها على النَّحو الآتي:

1- الطَّاعون

أكثر ابن حبيب من الحديث عن الطَّاعون الَّذي حلَّ بالشَّام سنة (749هـ)، إذ أصاب النَّاس فناء عظيم، وعمَّ البلاد، وأفنى العباد، وأطال مكوثه، وسلَّ سيوفه، وأتى على الحرث والنَّسل، وقد سُمِّي هذا الوباء بـ "طاعون الأنساب"⁽¹⁾؛ لأنَّه قلَّما مات شخصٌ إلا وتبعه أحد من أولاده وأقربائه، وبهذا فإنَّه أخلَّى البيوت من أصحابها، وساقهم جميعاً إلى القبور. يقول⁽²⁾: [الخفيف]

إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ يَفْتِكُ فِي الْعَا
وَيَطُوفُ الْبِلَادَ شَرْقًا وَغَرْبًا
قَدْ أَبَاحَ الدِّمَاءَ، وَحَرَّمَ جَمْعَ الشَّ
كَمْ طَوَى النَّشْرَ مِنْ أَخٍ عَنْ أَخِي
أَيْتَمَ الطِّفْلَ، أَثْكَلَ الْأُمَّ أَبْعَى الـ
بِسَهَامٍ تَرْمِي الْأَنْبَامَ خَفِيًّا
كَلِمَا قَلَّتْ زِدَتْ فِي الْقَتْلِ أَقْصِرُ
لَمْ مِثْلَ امْرِئٍ ظَلُمَ حَقُّوهُ
وَيَسُوقُ الْعِبَادَ نَحْوَ اللَّخْوَدِ
مِثْلَ قَهْرًا، وَحَلَّ نَظْمَ الْعُقُودِ
هـ، وَسَبَى عَقْلَ وَالِدِ بَوْلِيدِ
عَيْنَ، أَجْرَى الدَّمْعَ فَوْقَ الْخُدُودِ
تِ تَشْتَقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُودِ
وَتَثَبَّتْ، يَقُولُ: "هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟"⁽³⁾

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 110/3-112.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 100.

(3) اقتباس من القرآن الكريم، سورة ق، آية (30).

إِنْ أَعِشْ بَعْدَهُ فَإِنِّي شَكُورٌ مَخْلُصُ الْحَمْدِ لِلْوَلِيِّ الْحَمِيدِ
وَإِذَا مِتُّ هُنَّوْنِي وَقَوْلُوا كَمْ قَتِيلٍ إِذَا قُتِلَتْ شَهِيدِ

وتروي كتب التاريخ أنه كان يموت في حلب خمسمائة نفر في اليوم، وفي دمشق أكثر من ألف، في حين قُدِّر عدد الموتى في الديار المصرية بنحو عشرين ألفاً في اليوم الواحد، وكان أكثر الموتى من النساء والشباب والفقراء، وقد استمر ذلك الطاعون في مصر والشام نحو سنة(1).

واستمرَّ الشَّاعر في رصد صورة المشهد مُظهراً بشاعة هذا الوباء الذي أهلك الخلق، فإذا ما أصاب أحداً، فإنه لا يعيش أزيد من خمسين ساعة، وغالباً إذا ما ثقل الشَّخص الدَّم، شرع في توديع أصحابه، وأغلق حانوته وشغله، وحفر قبره، وهياً تابوته، ومضى إلى بيته حيث تفيض روحه إلى بارئها. يقول ابن حبيب مُسجلاً المواقف الإنسانية المؤلمة التي نتجت عن هذا الطاعون(2): [المتقارب]

فهذا يوصي بأولاده وهذا يودع إخوانه
وهذا يهيئ أشغاله وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه وهذا يحزر غلمانه
ألا إن هذا الوباء سباً وقد كاد يرسل طوفانه
ولا عاصم اليوم من أمره سوى رحمة الله سبحانه

وأشار ابن حبيب في مقطوعة أخرى إلى طاعون حلب سنة (749هـ)، حيث كان يقيم، وعاش هذا الحادث الأليم، وقدَّر الله له فيه النجاة، فيحدِّثنا عن حال الأصدقاء الذين رأوا الموت رأي العين، وأخذوا يودِّعون أنفسهم، حيث لا لقاء بعد اليوم، وتظهر المقطوعة حال خليلين تحاورا حول هذا الوباء العظيم، فكلاهما خائف من الفناء، ورسم الشَّاعر صورة لحال النَّاس الذي أخذوا يفرون من المدينة هرباً منه من خلال قوله (كاف ورا)، أي: كَرَّ، وزاد ابن حبيب (باء) على اللَّفظة، لتصبح (كرباً) عظيماً، وشدة لا فرج لها إلا بعون الله ونصرته. قال(3): [السريع]

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 111/3.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 216-217.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 56.

لم أنسَ قول الخُلِّ، والخُلُّ يرى بأنفهِ خُوفَ فنَاءِ غَلَبَا
إنَّ الوبا في حلبٍ أضحى له على الورى كفافٌ ورا، قلتُ: وبَا

وعاد الوباء إلى الديار المصرية ثانية سنة (764هـ)، حيث سلَّ سيوفه، أرسل مواضي حتوفه،
وألبس النَّاسَ أردية الرّدى، وصال وجال في أرواح العباد، حتّى قيل إنَّ عدد الموتى وصل إلى ألفي
نفرٍ كلَّ يوم⁽¹⁾. ومن باب الوعظ دعا ابن حبيب الإنسان إلى عدم الرُّكون إلى الدنيا والاعتزاز بها،
فسرعان ما تتلاشى كما الأحلام، وطلب منه أن يغمتم حياته في كلِّ عملٍ صالحٍ قبل أن يُطوى كتابه
وتنشر صحيفة أعماله. وفي ذلك يقول⁽²⁾: [الكامل]

يا أيُّها الإنسان لا تُغْتَرَّ بالد دنيا السَّرُوبِ، فإنَّها أخلامُ
واغنم حياتك عاملاً من قبل أن يُطوى الكتابُ وترْفَعُ الأَقلامُ

2- السُّيُول

تزرخ كتب ابن حبيب التَّاريخية برصد جميع الأحداث التي عاصرها، إضافة إلى تسجيلها
شعراً، واصفاً ما وقعت عليه عيناه وصفاً دقيقاً، والشواهد على ذلك كثيرة، نذكر منها في هذا المقام
حديثه عن الخراب الذي أحدثه نهر حماة المعروف بـ "العاصي" سنة (745هـ)، حينما زاد وفاض،
مُحدثاً دماراً وخراباً، إذ خربَ الدُّورَ والبساتين، وأتلفَ الشَّيءَ الكثير، وانتقل إلى شيزر، فدمر سدَّ نهرها
المحکم البناء، وقذف بحجارته إلى أسفل الوادي، وأتلفَ البساتين وأشجارها⁽³⁾. وفي ذلك يقول ابن
حبيبٍ مُعَبِّراً عن لسان حال أهلها الذين شكوا فرط زيادة خيره التي قلبت فرحهم تعاسة
وشقاء⁽⁴⁾. [السريع]

لما طَغى الماءُ على شيزرٍ واستأصل الداني مع القاصي
قال لسانُ الحالٍ مهلاً لقد زِدَتْ كَثِيرًا أَيُّهَا العاصي

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 259/3.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 205.

(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 69/3.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 146.

وسجّل ابن حبيب آثار الدّمار الذي أحدثه السّيل الجارف بجلب سنة (717هـ)، إذ أغرق خلقاً كثيراً، ودمّر القرى، وأهلك سُكَّانها، وقتل حيوانها⁽¹⁾. وفي ذلك يقول مشيراً إلى حكمة الله في قهر عباده بالموت على اختلاف أشكاله، فتارة يقضي بهلاككم من غير ما سبب، وأخرى بالسُّيوف تُعمل في الرّقاب قتلاً وذبحاً، وثالثة يُهلكون بسيلٍ عَرِم⁽²⁾. [الرجز]

سبحانَ مَنْ قَضَى بِمَوْتِ خَلْقِهِ من غيرِ ما حَيْفٍ وغيرِ مَيْلِ
فتارةً بالسيفِ يمضي قَتْلُهُمْ وتارةً يُهلكُهُمْ بالسَّيْلِ

وأشار ابن حبيب إلى حادثة السّيل العظيم بدمشق، مصوراً إيّاه بالأسد الضّاري، فقد وثب على أهلها ومزّق أجسادهم، وسلبهم أرواحهم، ولما علا الماء وغمرهم لم يستطيعوا هرباً أو نجاة، فقصوا جميعاً. يقول⁽³⁾: [السريع]

أهّا لقومٍ بز أرواحهم سيلٌ مهولٌ أسنّده ضارِيه
لما طغى الماء عليهم قَضَوْا فيه، ولم تحملهم الجارِيه

3- الحرائق

في سنة (735هـ)⁽⁴⁾ وقعت النّار بسوق حماة، وأحرقت نحو مائتين وخمسين حانوتاً. يقول ابن حبيب مصوراً ذلك، وقد شرعت نواعير حماة في البكاء حزناً ورتاءً لحالها، وتأثّر لذلك الحادث الأليم نهرها المشهور بـ"العاصي"، فأخذ هو الآخر يذرف الدّموع. قال⁽⁵⁾: [الكامل]

لما علّت نار الحريق وأضرمت بحمّاء، وامتّعت من الأشخاص
ناحت نواعير الجنان تأسفاً وتناثرت طوعاً دموع العاصي

وأفاض ابن حبيب في الحديث عن حريق دمشق سنة (740هـ)⁽¹⁾، والذي كان بتدبير من ثلّة من النّصارى الحاقدين، إذ أرسلوا عليها شواظاً من نار ونحاس، فدوى جمالها، وأتت السنة النيران على

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 81/2.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 190.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 231.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه 263/2.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 147.

أشجارها، وأسواقها، ومدارسها، حتَّى وصلت إلى مسجدِها العامر الذي لولا لطف الله وحفظه لاحترق. وألقي القبض على الفعلة المجرمين، وتجرَّعوا عذاب الجحيم، ونالوا العقاب على فعلتهم، بأن جرَّعوهم

نار الحريق وعذاب السَّعير. يقول في تلك الحادثة⁽²⁾: [الطويل]

وجادت دمشق فوق ما كان حسنِها وأمست عروساً في جمال مجدِّدِ
وقالت لأهل الكفر موتوا بغِيظكم فما أنا إلا للنبيِّ محمدِ
ولا تذكروا عندي معابد دينكم فما قصبات السبق إلا لمعبدي

وأشار إلى هذا الحريق في مقطوعة أخرى بقوله⁽³⁾: [الرجز]

سَأَلْتُ مَا قَصْدُ الَّذِي فِي جِلْقِ أَضْرَمَ نَاراً أَوْقَعْتَهُ فِي الْعَطْبِ
قَالُوا: أَرَادَ النَّصْرَ فِي إِيقَادِهَا قُلْتُ لَهُمْ: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ⁽⁴⁾

وتحدَّث ابن حبيب عن الحريق العظيم الذي وقع بظاهر بابي زويلة بالقاهرة، عند دار النَّقَّاح، وكان ذلك سنة (740هـ)، فأكلت النَّار البيوت والدَّكاكين، واستمرَّت في اشتعالٍ مدَّة ثلاثة أيَّام متوالية، لولا سور القاهرة، لاحترق نصف المدينة، وقيل احترق في ذلك الحريق خمسمائة دار، ومثلها من الدَّكاكين⁽⁵⁾. وفي ذلك يقول الشَّاعر واصفاً آثار النَّار التي أزلت معاني الحسن والجمال، ودمَّرت البيوت والمحالَّ، وأخذ النَّاس يبكون ضارعين إلى الله أن يُخمد ذلك الحريق، ولولا لطفه جَلَّ وعلا ورحمته بالنَّاس لأتَى على البيوت جميعها، وسكنت النار بأمره⁽⁶⁾. [الوافر]

ببَابِ زَوَيْلَةَ وَأَفَى حَرِيْقِ أزال معاني الحُسن المصونِ
وَدَمَّرَ كُلَّ عَالٍ مِنْ بِنَاءِ وصيِّرَ كُلَّ عَالٍ مِثْلَ دُونِ
وَعَبْرَةَ عَبْرَةَ الرَّائِيْنَ أَجْرِي يقيناً كالعِيونِ مِنَ العِيونِ
وَمَا بِرَحِّ الْخَلَائِقِ فِي ابْتِهَالِ لمحِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِ المَنونِ
إِلَى أَنْ قَالَ فِي لُطْفِ خَفِيِّ وَفَضْلِ عَنَايَةِ "يَا نَارُ كُونِي"⁽⁷⁾

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 313/2-315.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 98.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 55.

(4) اقتباس من القرآن الكريم، سورة المسد، الآية (1).

(5) ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدُّهور، الجزء الأول (القسم الثاني)، ص 221.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 225.

(7) اقتباس من قوله تعالى: "يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم" سورة الأنبياء، الآية 69.

4- الوقائع والحروب

أرّخ ابن حبيب في شعره لبعض الأحداث التاريخية التي عاصرها، وبخاصة الانتصارات في الحروب التي خاضها السلاطين، أو تصوير ما آل إليه حال بعض البلدان بعد دخول التتار إليها، وقد عرض لذلك بأمانة وصدق على نحو ما أشارت إليه بعض المظان الأخرى.

من ذلك إشارته إلى فتح طرابلس الشام سنة (688هـ)⁽¹⁾ يقول مادحاً الملك المنصور وجيشه الذي حقق نصراً عزّ نظيره، واستردّها بعد أن حكمها الفرنج مئة وخمسة وثمانين سنة.

تجدد الإشارة إلى أنه فتحها عنوة، وهرب نفر من أهلها بالمراكب خوفاً على أرواحهم، غير أنه قتل غالب رجالها، وسبى نساءهم، وأمر بهدم المدينة وإحراقها، وأمر ببناء المدينة المنصورية بسفح الجبل شرقي البحر، ثم عاد إلى الديار المصرية ظافراً. وعن هذا الفتح يقول ابن حبيب⁽²⁾: [البسيط]

يا أيها الملك المنصور عسكره لا زلت محترماً في حضرة القدس
فاز الملوك بأنواع الفتوح، ولا كمثل فتح سمعنا عن طرابلس

وأشار ابن حبيب إلى دخول التتار الشام سنة (699هـ)⁽³⁾ بقيادة غازان بن أرغون بن أبغا بن هولكو ملك التتار، الذي جمع حشداً من المغول لملاقاة المسلمين على أرض حمص، وكانت الغلبة لهم، وقتل في هذه الواقعة نحو ألف فارس من المسلمين، وولّى الباقون منهنزمين، وتابع غازان زحفه حتى دخل دمشق، واستولى عليها، ونهب خيراتها، وقتل رجالها، وأحرق دورها، وأقام فيها أربعة أشهر.

وفي رثاء حالها يقول الشاعر⁽⁴⁾: [الطويل]

تقول دمشق الشام وهي كنيبة وقد أصبحت بعد المسرة في عز
أي رب نصرًا منك أرجو رحمة فغازان في أهلي، وفي جيرتي عزًا

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 122/1.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 138.

(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 221-220/1.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 134.

وفي معرض حديثه عن العساكر التي سارت إلى بلاد الأرمن، وحرابيتهم في الغزوة الشهيرة بـ "غزوة سيس" (1) سنة (697هـ)، حيث كانت الغلبة للمسلمين، إذ حاصروا الأرمن وضيّقوا عليهم الخناق، بعدما نكثوا عهودهم ومواثيقهم، فغزّوهم في عقر دارهم، وغنموا أموالهم، وأسروا كثيرًا من رجالهم. وفيها يقول (2): [الرجز]

عساكر الإسلام نور عزهم	قد أوجل الأقمار والشُموسا
ساروا إلى الأرمن لما نقضوا	عهدهم واستعملوا التّديسا
فاستلبوا أموالهم وأسروا	أطفالهم، واجتذبوا النفوسا
وأهلكوا المطران والأسقف والـ	راهب والشّماس والقسيسا
واجتمعوا في مجلس الحرب، ومن	خمر الرّدى سقوهم كؤوسا
واستنفذوا خيولهم، وأبدلوا	فرسانهم بعد النعيم بوسا
كم أخذوا من أشهب وأدهم	ويأخذون بعد ذلك سيسا

ومن الحوادث التي أشار إليها ابن حبيب تلك التي تتعلّق بقيام جماعة من الطائفة النصيرية (3) بشقّ عصا الطاعة بطرابلس سنة (717هـ)، فنصّبوا شخصًا ادّعوا أنّه محمّد بن الحسن المهدي، وهو آخر الأئمّة الاثني عشرية على اعتقاد الإمامية، وأقدموا على قتال المسلمين، وخرّبوا المساجد واتّخذوها حانات لشرب الخمر، فما كان من العسكر السلطاني إلا أن يخرج لقتالهم، فقتلهم شرّ قتل، ومرّقوهم كلّ مرّق. وفي هذه الغزوة يقول ابن حبيب (4): [الطويل]

بساحل بحر الشام للشوم فرقة	نصيرية لا أم رأيتهم نصر
عنا وأتوا يبعون فتحاً عليهم	فجاءتهم ضمّ يقاربهُ كسر

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 202/1-203.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 136.

(3) النصيرية: فرقة من غلاة الشيعة، ينتسبون إلى نصير غلام علي بن أبي طالب، وهم يعتقدون في ألوهية عليّ ابن أبي طالب القلقشندي، صبح الأعشى 256/6. ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 81/2.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 122.

وفي سنة (767هـ) هجم الفرنج على ثغر الإسكندرية على حين غرة، إذ كانت شبه خالية من العساكر، وكانت الغلبة للفرنج الذين هجموا على المدينة، ونهبوا أموالها، وسبوا نساءها، وقتلوا رجالها، وحرقوا أسواقها، وعاثوا فيها فساداً طيلة ثلاثة أيام⁽¹⁾.

يقول ابن حبيب عن هذه الواقعة الأليمة، والمحنة العظيمة⁽²⁾. [الكامل]

إِسْكَندريَّةٌ مِصرَ قاسى أهلها أشياء من جور الزمان وريبه
هجمَ الفرنجُ عليهم وتصرفوا في سيل آل الأغنياء وشيبه
عقود الثغر بعد نظامه من بعد بارق ثغره وغذيبه

أما واقعة طرابلس الشام سنة (769هـ)⁽³⁾ والتي صور فيها ابن حبيب ما حدث بالمدينة من خراب ودمار بعد أن باغتهم الفرنج، وكان أغلب العساكر غائبين عنها، فاستغلوا ذلك ودخلوا المدينة، ونهبوا البيوت والأسواق. وفي ذلك يقول⁽⁴⁾: [الوافر]

طرابلس الشام وهى قواها وأظلم بعد بهجته سناها
دنا منها الفرنج وشعثوها لغيبة عسكر يحمي حماها
أثاروا حين جاعوا نار حرب أداروا فى جوانبها رحاها
بكت حزناً ورجاء الماء فيها وروت من مدامعها نراها
وهزّ الوجد رأس النهي منها وسلسل رملها فى مشتتها
كواكب زهرها نُثرت، وشقت شقائقها الملابس فى رباها
وفى أعلى غصون الدوح أضحت حمائمها تنوح لما عراها
تبارك من تداركها بلطف وضاعف من عنايته حياها
ورد بنصره كيند النصارى وبلغها بمنيتها منهاها

(1) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 288/3-289.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 62-63.

(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 312/3.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 227.

ونقل ابن حبيب كذلك صورة للأوضاع الاقتصادية في عصره، وبخاصة الغلاء الذي حلّ بالديار الشامية سنة (764هـ)، حيث تجاوز الحدّ وأصبح الغني فقيراً، وبيع رطل الخبز بدرهمين. يقول⁽¹⁾: [الخفيف]

لا تقيمن على حلب الشهباء، وارحل فأخضر العيش أدهم
كيف لي بالمقام، والخبز فيها كُـلُّ رطلٍ بدرهمين ودرهم

وقلت في ذلك حال الكتابة⁽²⁾ [السريع]

يا سُنَّةَ العادل، لا مَرَحَبًا بوجهك المذموم بين الملا
ففيك من بين الحروفِ اجترى بآءِ الوبا من بعد غينِ الغلا

وفي سنة (765هـ)⁽³⁾ جرى إبطال الوكلاء المتصرفين في أبواب قضاة الشرع، لكونهم يتغلبون على الناس ويؤذونهم في المحاكمات، ويقبلون الباطل حقاً بحيلهم وألاعيبهم. وفي هذا المعنى يقول ابن حبيب⁽⁴⁾: [السريع]

يقول ذو الحقّ الذي غالهُ خَصَمٌ ألدُّ، أو لسانٌ كليلُ
إن صيروا أمرَ وكيلي سُدَى فحسبي الله ونعم الوكيلُ

وأشار ابن حبيب إلى المرسوم الذي أصدره السلطان سنة (764هـ)، والذي يقضي بأن يُجمل السادة الأشراف قاطبة، الرجال منهم والنساء، عمائم بشطفات خضر، ليمتازوا بها عن غيرهم، تعظيماً لقدرهم، فامتلوا لأمره⁽⁵⁾. وفي ذلك يقول⁽⁶⁾: [الرجز]

عمائم الأشراف قد تميّزت بخضرة رققت، وراقبت منظرًا
وهذه إشارة أن لهم في جنّة الخلد لباساً أخضرًا

فهذه العمائم راق منظرها بهذا اللون المميّز، وكان اختيار الأخضر كونه لون أهل الجنة.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 197.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 186.

(3) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 272/3.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 182.

(5) ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور 107/1.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 115.

ومن الحوادث التي أشار إليها ابن حبيب، ذلك المرسوم الذي تشدّد فيه الأمير سيف الدين بلغاروس القاسمي نائب السلطنة في حلب سنة (751هـ)⁽¹⁾، على كُلِّ من يشرب الخمر، بعدما رُفِعَ إليه أن بعض المباشرين بديوانها السلطاني رشف ريقه الكأس، فأمر الأمير بتسميره على جمل، وهذه العقوبة تتقدّ في كُلِّ من شرب وسكر. وفي هذا المعنى قال⁽²⁾: [الرجز]

أهل الطّلا تويوا، وكُلُّ منكم
يعودُ عن ساقِ التّقَى مُشمّراً
فمِنَ بَيْتِ رَاوِقُهُ مُعَلَّقاً
أصْبَحَ ما بين الوَرَى مُسَمّراً

وفي سنة (700هـ) صدر مرسوم يقضي بأن يلبس أهل الذّمة الغيار⁽³⁾، فاليهود لبسوا العمائم الصفراء، والنصارى الزّرقاء، والسّامريون الحمراء، واشترطوا عليهم أشياء أخرى فيها ذلّة وصغار، ومع أنّهم قد بذلوا الأموال الجمة لإبطال ذلك، فلم يستجب لهم⁽⁴⁾. وفي ذلك يقول ابن حبيب⁽⁵⁾: [الطويل]

عمائمُ أهلِ الذّمةِ البُهتِ أشبّهتْ
تلون ما يقضي عليهم من النارِ
فأصفرَ يتلو أحمرَ بعد أزرقِ
سماتٌ أتتْ بالخزي والذلّ والعارِ

سابعاً - الغزل بالجمال الإنسانيّ

وقعت عينا ابن حبيب على الجمال، فراح يتغنّى به، ويصفه وصفاً يُظهر فيه افتتانه وانبهاره، بعيداً عن الفحش والمجون، على نحو ما كان يفعل شعراء العصر آنذاك، وقد جاءت مضامين هذا الوصف لديه في اتجاهين: الأوّل تقليديّ سار فيه على نمط الشعراء القدماء في وصف مظاهر الجمال الإنساني من عيون، ووجه، وحاجب، وخدّ، وقوام، وغيرها. والثّاني: تجديديّ ركّز فيه على الموضوعات الجديدة في الوصف كوصف العذار، ووصف الغلمان الأتراك، ووصف أرباب المهن والصناعات، ووصف الجوّاري، ووصف اللّباس، وغيرها.

(1) ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 239/10.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 116.

(3) الغيار: نوع من القماش تميّز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى. تذكرة النبيه 232/1 هامش رقم (2).

(4) ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه 232/1.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 126.

وعند الحديث عن المقاييس الجمالية التقليدية عند العرب، نجد أنّ الأوصاف متشابهة عند الشعراء السابقين واللاحقين، مع شيء من التطوير والتجديد في الصورة، فالجميع تناول جمال العيون وسحرها، والخدود واحمرارها، واللحاذ وفعلها في قلوب العاشقين فعل السيوف الهنديّة والرّماح الخطيّة، والقدّ يشبه الغصن الرّطيب، والرّدف شبيه بالكثيب(1).

وعند الحديث عن هذا اللون من الشعر عند ابن حبيب، نجد أنّه من الشعراء المُكثرين في هذا الباب، وقد تركّزت أغزاله في وصف الغلمان والجواري وأرباب المهن والصناعات، وبالنّظر إلى ديوان شعره "الشذور"، نجده يُخصّص خمسين مقطوعة للغزل، وأكثر أغزاله كانت في الوجه، والعيون، والصّدغ، والخدود، والنّعر، والمبسم، والدّوابة، والقوام، والرّدف.

وبالعودة إلى ابن حبيب، فإنّنا نجد أنّ أكثر الأمور التي ركّز من خلالها على إظهار الجمال الإنساني تنحصر في:

1- العيون وما يتّصل بها

ما من شكّ في أنّ العين هي مصدر الجاذبيّة التي تأسر المحبوب أو المحبوبة، وهي الشّباك التي توقع أحد الطّرفين فيها، ولذا فقد وقف الشعراء عندها طويلاً، وأكثروا من وصفها، ووصف سحرها، ولحاذها، وفتكاتها، وأجفانها، ودموعها(2).

وقد أكثر ابن حبيب من الحديث عن العيون في شعره، فله (24) مقطوعة في الحديث عنها. فها هو يبدو مفتوناً بقوام محبوبته وجيدها، غير أنّه مبهور بسحر عيونها ولفنتاتها التي تفوق نظرات الطّباء، ولحاذ عينيها قاتلة فاتكة، فمن ينظر إليها يُصرع من لحاذها التي تُشبه السيوف المُجرّدة، وهذه اللّواظ تغلب الأسود في حدّتها ونباتها، وفتكها بها في هجمات المتابعة. يقول(3): [الكامل]

(1) ينظر: حسن عبد الرحيم سليم، فن الغزل في الشعر المملوكي 143.

(2) ينظر: حسن عبد الرحيم سليم، م.س 144.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 74-75.

مِيلاء ما للغصن قوامها جيداً، وأين الظبي من لفتاتها
تُسبى القلوبُ بسحرِ بابل طرفها وتُجرّدُ الأسيافُ من لحظاتها
لله أي لـواحدٍ غلابٍة للأسدِ في وثباتها وثباتها

ويبدو ابن حبيب مغرماً بسحر العيون وفتورها الذي يُذهب الصبر عن الحبيب، ويبعث الأسي

في الفؤاد الكئيب، فلحاظ محبوبه ساحرة، وقد استمدت سحرها من هاروت(1). [المنسرح]

وفاتر الحُسنِ في محبّته قد ذهب الصبرُ والأسى مَكْثاً
أسكنَ هارونَ في لواحظِهِ أما تراهُ بالسحرِ قد نفّثاً

ويهم ابن حبيب بجفون محبوبته التي تُجرّد منها سيوفاً حادّة، ويتعجّب من كيفية هزمه لها مع

أنّها فاترة ناعسة، يقول(2): [الخفيف]

بي غزالٌ يغزو الورى بجفونٍ كلُّ يومٍ سُيوفُها مشهوره
عجَباً من لحاظها كيف حتّى هزمتها مع إنها مكسورة

وما زال ابن حبيب واقعاً تحت تأثير سحر الجفون، متعجباً من سحر جفون محبوبته

المكسورة، غير أنّها تكسر في هذا الانكسار وتقتل، وما هذا الجمع في الضدين إلا ضربٌ من السحر.

قال(3): [الرجز]

لها جفونٌ بالعجيبِ أتت لأنّها مكسورةٌ وكاسِرة
تقتلني وخطري يُحبّها ما هذه يا قومُ إلا ساحرة

وفي مقطوعة أخرى في وصف ساقٍ، أعلن ابن حبيب أن منبع سكره، ومنهل خمره، لحاظ

المحبوب، والخمرة التي يسقيها، وطلب منه أن لا يستمر في إدارة الكأس، ويغض طرفه، فكلاهما أي

الخمرة وإدامة النَّظر - سيقودان إلى هلاكه. قال(4): [البسيط]

أدرتُ كأسين من خمرٍ مُعتقةٍ بالكفِّ والطرفِ يا ذا الحيفِ والجَنَفِ
فكفَّ كفّك، أو للطرفِ غُضٌّ، ولا تزدِ عليّ، فمِن إحداهما تلفي

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 76.

(2) ابن حبيب، م.س، ص 116.

(3) ابن حبيب، م.ن، ص 116.

(4) ابن حبيب، م.ن، ص 167.

ويوظف ابن حبيب أدوات الحرب للتعبير عن معاني القوة في القتل، ليستمد من الجفن سيوفاً،

ومن القدّ رمحاً. يقول⁽¹⁾: [الطويل]

ولما درى أنّ السيفَ لَجْفَنِهِ حَكَتْ ولعطفيه حكى الرُمحَ في الميلِ
أتى أمرُهُ العَالي لِعُشَّاقِهِ بِأَنْ تُحَدَّ السِيفُ البُتْرُ، والرُمحُ يُعْتَقَلُ

ويتحدث ابن حبيب في إحدى مقطوعاته عن جمال محبوبته الأسر، فبدا منبهراً بسيوف
ألحاظها الفاتنة، وجمالها المستمد من عبله، ورأيها المأخوذ من عنتره، ويتساءل مستغرباً عن أيوادة
من صفات الجمال التي سلبته عقله، أهو الخدّ، أم الحاجب، أم العين، وبيالغ في إبراز مظاهر جمالها
المحوبة مدّعياً أنه لا نظير لها في البشر. يقول⁽²⁾: [الخفيف]

فاتكُ اللَّحْظِ فاتنُ الجفنِ أَحْوَى عنتري في الرأي، وفي الحُسنِ عَيْبَةٌ
لستُ أدري بأيّ شيءٍ سَبَّاني أَبْخَدُّ، أم حَاجِبٍ أم بِمُقْلَانَةٍ
مِثْلُهُ ما رأيتُ من أجل هذا صِرْتُ فِيهِ بينَ البريَّةِ مُثْلُهُ

ومن بديع الصور التي رسمها ابن حبيب للحاظ العين مشبهاً إياها بالأسهم الجارحة، وهي
ذات تأثير قويّ حتّى في الصّخر، غير أنه ما زال صابراً حُباً لمحبيه على الرّغم من الجراح التي
تسبب بها، وهذا من الأمور العجيبة، فكيف للصّخر أن يسكت ويتكلّم ويعبّر عن شكواه وأنيته من
الجراحات التي أحدثتها له عيون المحبوب. قال⁽³⁾: [الكامل]

جَرَحَتْ فَوَادِي من لِحَاظِكَ أَسْهُمٌ صُمُّ الحِصَى من وَقْعِهَا يتألّمُ
وهو الصَّبُورُ على الجِراحِ مَحَبَّةً فاعجَبْ له من ساكِنِ يتكلّمُ

واستعمل ابن حبيب لحاظ العين مستمدّاً منها سيفاً مجرداً للقتل والفتنة، مازجاً ذلك بالحديث
عن مظاهر أخرى للجمال، فالوجه ضياء، والرّضاب شهّد. يقول في وصف غلام من الأتراك اسمه
شعبان⁽⁴⁾: [البسيط]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 183.

(2) ابن حبيب، م.س، ص 186.

(3) ابن حبيب، م.ن، ص 206.

(4) ابن حبيب، م.ن، ص 217.

أَهْوَاهُ ظِيْبًا مِنَ الْأَتْرَاكِ مُمْتَنِعًا بِسَيْفِ جَفْنِيهِ فَتَاكًا وَفَتَاتَا
فِي وَجْهِهِ الضَّوْءُ، وَالْحَلْوَاءُ فِي فَمِهِ فَلَا عَجِيبٌ إِذَا سَمَّوَهُ شُعْبَانَا

ويظهر ابن حبيب هائماً بغلمان الأتراك، وكان هذا الفتى يخجل البدر النمام، وينصب بسحر

عينيه مصائد الأشراك، بديع الشمائل، تستتر الغصون خجلاً منه بالأوراق. وفيه يقول⁽¹⁾: [الخفيف]

سَاخِرُ الظَّرْفِ، وَافِرُ الظَّرْفِ أَحْوَى خَدُّهُ الْأَبْيَضُ اللَّجِينُ مُذْهَبٌ
لَا تَلْمَنِي عَلَى اعْتِقَادِ هَوَاهُ مَذْهَبُ الْوَجْدِ فِيهِ أَحْسَنُ مَذْهَبِ

ويتأوه ابن حبيب من مقلتي محبوبه الكلاء، وهام فؤاد بالجنون من سحر عيونه الدعجاء.

قال⁽²⁾: [الطويل]

بِرُوحِي كَحَيْلِ الْمُقْلَتَيْنِ مُهْفَهَفٌ بَدِيعِ الْمَعَانِي كَمِ بَقْلِيبِ امْرِئٍ أَوْدَى
أَلَا لَيْسَ بَدْعًا أَنْ جُنُنْتُ بِعَيْنِهِ وَهَامَ فُؤَادِي بِالْجُنُونِ مِنَ السَّوْدَا

ووظف ابن حبيب لحاظ العين ليعبر من خلالها عن قوة الفتك، فتخيلها سهمًا مصوبًا نحو

الحيبيب، فهي قاتلة مضمية تهد الأركان، وتأسر القلوب، وتصيب العين من الإنسان مقتلاً⁽³⁾. [الرجز]

قَلْبِي رَمَى عَمْدًا بِسَهْمِ لِحْظِهِ وَهَدَّ رُكْمَنَ قَلْبِي بَيْنِيهِ
أَهْلَ الْهَوَى لَا تَسْأَلُوا عَنْ حَالَتِي ظَبْيِي الْحَمَى أَصَابَنِي بِعَيْنِهِ

2- الخدود والثغر

أفاض شعراء الغزل في العصر المملوكي في الحديث عن الخدود، وفتتوا بحمرتها، فشبَّهوها بحمرة الورد، وفي مثل هذا يقول ابن حبيب متمنياً أن يكون هذا الورد الأحمر من نصيبه⁽⁴⁾: [مجزوء

الرمل]

خَدُّ مَنْ قَلَّ اصْطَبَارِي فِيهِ وَازْدَادَ نَحِيْبِي
وَرْدُهُ فِيهِ أَحْمَرَارٌ لَيْتَهُ كَانَ نَصِيْبِي

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 55.

(2) ابن حبيب، م.س، ص 94.

(3) ابن حبيب، م.ن، ص 223.

(4) ابن حبيب، م.ن، ص 64.

وفي مقطوعة أخرى بين ابن حبيب أن محبوبته تحمي ثفاح خدّها الأحمر بحيّة وعقرب منقوشين، فكلُّ من رام جناه يخاف الموت، ولا يستطيع الاقتراب منه. قال (1): [الكامل].

قد عَزَّ لَثْمُ الخَدِّ من خَوْدِ لها حَادِقٌ تُحَاكِيهَا عِوُنُ الرَّبْرِ
مَنْ لي بهِ، وهي التي حَرَسَتْهُ من جَانِي جِنَاهُ بِحَيَّةٍ وبعقربِ

وقال في أخرى يصف الخدود (2)[المجتث]

خَد الحبيب عجيب في أمره حار فكري
ريان يقطر منه ماء الحيا، وهو جمري

يعكس البيتان إعجاب الشاعر بخمرة خدِّ محبوبه، لدرجة أن فكره يحار كلُّما نظر إليه، وقد

استعار حمرة الخد من الخجل الذي يعتري المحبوب حينما يديم النَّظْرَ إليه، وهذا ما يزيده توقُّدًا واحمرارًا.

ويصف ابن حبيب الخدَّ المُحْمَرَّ الذي يعلوه صدغٌ كأنه جيمٌ مُعَوَّجَةٌ، ومقلّة تسبي القلوب، وتُحَرِّكُ السَّكَنَاتِ، وتبعث الغيرة في الثَّفَاحِ والرُّمَّانِ، فما السُّرُّ وراء اجتماع حمرة الخدِّ، وجمال العين، وروعة الصَّدغِ في الوجه معاً (3). [الوافر]

له خَدٌّ عَلَيْهِ جِيمٌ صِدْغٌ بمقلتِهِ سَبِي قَلْبِ التَّقِي
تَرى هل من طَرِيقٍ لِاجْتِمَاعِ بِحَمْرَةِ ذَلِكِ الخَدِّ النَّقِي

وبلنفت ابن حبيب إلى الخال ومواضعه، حيث يتربّع بين الصَّدغِ والعين، وهذا بدوره يزيد الوجه جمالاً، ومنظره يسبي العقول، ويفتن الناظرين. يقول (4): [الخفيف]

بين صِدْغِ الحبيبِ والطَّرْفِ خَالٌ عنبريٌّ يسبي عُقُولَ البرايا
فاعرفوا حقَّ عَرْفِهِ وَشَذَاهُ واعلموا أن في الزَّوَايَا خَبَايَا (5)

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 65.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 267.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 232.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 232.

(5) من الأمثال العربية المشهورة.

وفي مقطوعة أخرى استمدَّ ابن حبيب لون الخال الأسود من لون المسك، لا بل كأنه قطعة منه، فسوّره واقفاً على صفحة الخدِّ المؤرّد، حيث يفوحُ أريجاً طيباً من مليحِ عنبريٍّ، وهذا الخال زاد من أريج الرائحة وعبقها، ويُخرجُ رائحةً تزيدهُ حسناً وجمالاً. قال (1): [السريع]

مَجْلِسُنَا بِالْعَنْبَرِيِّ اغْتَدَى ذَا أَرْجٍ مِنْ تَظْمِ السَّائِكِ
لَا تُكْرِي يَا مَيِّ طَيْبِ الشَّدَا مِنْ عَنْبَرِيٍّ خَالَهُ مِسْكِ

وصوّر ابن حبيب الخال على شفة مليحة فاتنة، وممّا زاد الصورة حسناً تلاعبه بلفظ "الخال"،

إذ جمع بين الخال والعمّ من باب التورية. حيث يقول (2): [الكامل]

خَوْدٌ لَهَا خَالٌ يَلُوذُ بَثْرَهَا مَلَأَ الْقُلُوبَ هَوًى وَغَيْرَ خَالِهَا
إِنَّ الَّذِي بَيْنَ الْغَوَانِي عَمَّهَا بِالْحُسْنِ خَصَّ بَلِثْمَ فِيهَا خَالِهَا

ويقرن الشاعر صورة لون الخال الأسود بسويداء القلب، ويكشف عن سبب عذابه أنّه تعلّق بحبِّ

غلام في عنقه خال (3). [الطويل]

أَخَذْتُ سَوِيدَاءَ الْفَوَادِ وَصَغَفْتَهَا بِجِيدِكَ خَالًا جَمَعَهُ لَا يَفْرُقُ
أَتَكْرُقْتَنِي بَعْدَهَا يَا مَعَذِبِي وَهَذَا دَمِي فِي الْعُنُقِ مِنْكَ مَعْلُقُ

وحظي الثغر باهتمام ابن حبيب في الوصف، وكذلك رضابه وريقه فهو كالشهد أو الخمر لذّة،

والأسنان التي تشبه في نقائها زهر الأقاحي أو البرد، وفي لمعانها تشبه البرق، يقول في صفة ثغرٍ

مطربٍ ينفث لفظاً كالسحر الحلال، ويسبي العقول بجميل نطقه وعذوبة صوته، وجمال أسنانه التي

تشبه الدرّ لونا، والبرق لمعاناً (4). [السريع]

وَمَطْرِبٍ يُسْبِي إِذَا مَا شَدَا قَلْبِي بِحَسَنِ الثَّغْرِ وَالتُّنْطِقِ
يَسُومُ عَنْ دُرٍّ، وَعَنْ جَوْهَرٍ وَعَنْ أَقَاحٍ، أَوْ سَنَا الْبَرَقِ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 180.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 184.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 263.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 174.

وفي مقطوعة أخرى جمع بين حسن الخدّ وجمال الثَّعر، قال⁽¹⁾: [الوافر]

لـه خـد تـفـتـح فـيـه وـرد وـثـغـر سـكـري لـيس يـنـكـر
دـعـوا لـومـي فـيـا طـول اـرتـيـاحـي وـشـوقـي لـلـمـفـتـح وـالمـسـكـر

فالشاعر -هنا- يطلب من لؤامه أن يكفوا عن تعنيفه لأنه هائم بمحبوبه، ففي رؤيته يطول ارتياحه، وهو في أشد الشوق إلى رؤية خده الذي يشبه الورد في تفتُّحه، وثغره الشنَّيب الذي يفوق السكر حلاوة حينما يلثمه.

3- الثَّعر

من الطبيعي أن يصف الشعراء الثَّعر، فامتدحوا فيه طوله وسواده. وقد رأى ابن حبيب في طول شعرٍ مليحة أرخت شعرها على عطفها شركاً يصيد القلوب، ولذا نجده يُحذِّرنا منه، ومن سحر جفنيها، يقول⁽²⁾: [السريع]

أرـخـتْ عـلى أعـطـافـهـا شـعـرـهـا خـوـدٌ بـجـفـنـيـهـا لـنا مـعـتـرك
يـا طـائـرِ القـلبِ الضـعـيفِ انـتـبـه وـاحـذـرْ، فـإنَّ الشـعـرَ مـنـهـا شـرك

ويستلهم ابن حبيب صورة الليل المظلم للتعبير عن سواد شعرٍ مليحةٍ زائرةٍ في الظلام، وكانت قد تركت شعرها الكثيف منسأباً على وجهها خوفاً من الرقيب، غير أن صوت حليها وعبق طيبها وابتسامتها فضحوها جميعاً، وكشفوا سرها، ولم ينفعها التستر بالشعر. قال⁽³⁾: [الكامل]

لو شـئـتْ كـتـمَّ السـرِّ حـالَ زيارتي فـي حـنـدـسٍ كـأثـيـثٍ شـعـرِكَ مُظـلـم
لـم تـلبـسـي حـلياً لـه وقـشٌ، وـلم تـسـتـعـمـلي طـيـباً، وـلم تـتـبـسـمي

وفي مقطوعة أخرى يأتي ابن حبيب بصورة طريفة مبتكرة، حيث صور شعرها الطويل بإنسان

يتراقص على صوت خلخالها. فقال⁽⁴⁾: [السريع]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 267.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 179.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 210.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 145.

فَدَيْتُ خَوْدًا حُسْنُهَا كَامِلٌ وَحِظُّ مَنْ يَعِشُهَا نَاقِصٌ
غَنَى لَهَا الْخِلَالَ لَمَّا مَشَتْ وَشَعْرَهَا مِنْ فَوْقِهِ رَاقِصٌ

ويرى شاعرنا أن طول ذؤابة محبوبته يزيد حُبًّا، وهي من فرط طولها تكادُ تلامس الأرض (1).

[الطويل]

أَيَا حَبَّذَا مَمَّنْ هَوَيْتُ ذَوَابَةً مُؤَدَّبَةً فَارَقْتَ فِي لَيْلِهَا الْعَمَضَا
إِذَا مَا تَنَثَّنَى لِلسَّلَامِ مَلِكُهَا عَلَى أَحَدِ دَارَتِ وَقَبَّلْتَ الْأَرْضَا

4- الوجه

هام شعراء الغزل في وجوه من أحبوا، وراحوا يرسمون لنا لوحاتٍ فنيَّةً لها، وتحدَّثوا عن جمالها، وما فيها من أوصاف عديدة. تأمَّلْ معي الصورة التي رسمها ابن حبيب لوجه محبوبه وإشراقه، فهو كالصُّبح في إشراقه، لا بل أجمل منه حينما يطلع (2). [المنسرح]

قِيلَ لِي الصَّبْحُ مِنْ بَثْنِيَتِكُمْ يَحْسُدُ وَجْهًا سَنَاهَ يَتَأَلَّقُ
فَقَلَّتْ خَلْوُهُ ضَمْنِ مَشْرِقِهِ يَنْشِقُ مِنْ غَيْظِهِ وَيَنْفَالِقُ

والوجه عنده أشبه بالجنة حسناً، ورؤيته تزيل همَّه، وحيما يلثم مرأشفه فكأنما ذاق لبنًا من لبن

الجنة، فلا يتغيَّر طعمه أبدًا (3). [الرجز]

وَجْهَ الَّذِي أَهْوَى هَوَاهُ جَنَّةٌ يَجْلَى بِهَا عَنِ الْمَحَبِّ هَمَّهُ
وَكَيْفَ لَا وَتَغْرَهُ لِرَاشِفِ "مَنْ لَبِنَ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ" (4)

ويرسم ابن حبيب لوحة فنيَّة يصف فيها وجه محبوبته المُشرق، فوجهها شمس مشرقة، لا بل

يفوق نور الشمس وإشراقها، ويُصرِّح بأنَّها استبدَّت في حبها، فأصبح لا يعرف للنَّوم طعمًا، وبات

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص148.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص264.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص265.

(4) في البيت اقتباس من قوله تعالى: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ" سورة محمد، الآية (15).

يذرف الدُموع حزناً على رحيلها، وقد عبّر عن فرط بكائه بأنّه يشرق بدمع عينيه. وفيه يقول⁽¹⁾:

[الكامل]

يا من له وجه بدت أنواره كالشمس عند طلوعها، بل أشرق
لولا هواك لما جفا جفني الكرى ليلا، ويت بدمع عيني أشرق

وفي مقطوعة أخرى يشبه الوجه بالبدر المنير، والنّخر الباسم وقد تجلّت أسنانه مستمدّة لمعانها من

بالبرق. يقول⁽²⁾: [السريع]

بدر منير الوجه ذو مبسم كأنه البرق إذا أومضا
وقد زاد في هجري، وأنى له عبد رقيق، إن مضى أو أتى

5- القُدُّ والرَّدْف

حظي القُدُّ والرَّدْف بنصيبٍ قليل في شعر ابن حبيب قياساً مع الأوصاف الأخرى، وغالبًا ما كان يأتي على هيئة بيت مفردٍ في سياق الحديث عن المحاسن بصفةٍ عامّة، والنّاظر إلى المعاني المستوحاة في تشبيهاته يجد أنّها متواترة توارد عليها الشعراء كافّة، فتارةً شبّهوه بالغصن الرّطيب، وأخرى بقضيب البان أو الرّمح. ومن ذلك قوله⁽³⁾: [السريع]

سَفْكَ دِمَا عَشَّاقِهِ قَدْ أَبَاخَ لَمَّا انتضى من مقلتيه الصّفَاخَ
أهيف ما هَزَّ قَفا قَدِّهِ إِلَّا وُغَارَتْ مِنْهُ شَمْسُ الرِّمَاحِ

في هذين البيتين يصف ابن حبيب المحبوبة بأنّها تسفك الدّماء بنظراتها التي تُشبّه السيوف حدّة، وهي هيفاء لينة ناعمة، وقد شبّه قَدّها بالرّمح في رِقته، كما أنّها آية في الحُسن والجمال.

ونجده في مقطوعة أخرى يشبّه محبوبته بالغصن الرّطيب اليناع المورق⁽⁴⁾. [الطويل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 265.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 266.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 85.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 129.

وبي من بنات العُزْبِ هيفاءُ قدّها متى لاح أخفى العُصْنِ في الورقِ الخُضْرِ
إذا قالَ منها الطرفُ يا لكاناةٍ يقولُ منادي خدّها يا بني النُّضْرِ

وقد تغنى ابن حبيب كغيره من الشعراء بالخصر النحيل والرّدف الثّقل. من ذلك قوله في

وصف مليح يرقص⁽¹⁾: [مجزوء الرجز]

يـرقصُ عَجَبًا، ولـه خـصـرٌ ورِدفٌ مـسـاجُ
فـذا خـفـيفٌ داخـلٌ وذا ثـقـيلٌ خـارجٌ

ويبدع ابن حبيب في تصوير ردف قيّمة حمام:⁽²⁾ [السريع]

قيّمةُ الحَمَامِ بِالرِّدْفِ لِم تَبْرَجَ لِكُتْبَانِ النِّقَا فاضِحَةً
حُكَّامٌ أربابُ الهوى دونكم قيّمةٌ أردافُها راجِحَةٌ

ويجمع في مقطوعة أخرى بين خفة الخصر وثقل الرّدف، فيبدو مائجًا، نافرًا خارجًا، ككتيب

كثيف، وقد أثقل الخصر بخروجه وبروزه، فلم يعد يحتمل وطأته. يقول⁽³⁾: [مجزوء الكامل]

يا ردفُ هـا خصـره منـك الكـثـيب يعـالجُ
أنـحلتـه بـثقالـةٍ ما أنـت إلا خـارجُ

ويصف الرّدف الثّقل الذي ينوء الخصر النحيل بحمله، فيشكو إلى محاسنه أن يترقق به، فهو

لا يستطيع تحمّل ثقله⁽⁴⁾. [الكامل]

قال الكتيب وقد ترامى فوقه ردف الذي جرح الجوارح جفنه
قولوا له بالله يحمل جنبه عني، ويرفق بي، فما أنا وزنه
ويُصرّح في مقطوعة أخرى بأنّ الرّدف الكبير جالب للخطايا، فهو الذي يقود المحبين إلى

المحبوب، ويدعو أهل الهوى ألا يعذبوه لأنّه انقاد وراء قوادر ثقيل. يقول⁽⁵⁾: [الوافر]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 82.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 87.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 82.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 269.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 269.

لـه ردف كبير للخطايا
يقود العاشقين ويسـتميل
فيا أهل الهوى لا تعذلوني
إذا ما قلت قواد ثقيل

ثامنًا: الغزل

طرق معظم شعراء العصر المملوكي موضوع الغزل في مستهل قصائدهم، مستلهمين العناصر التقليديّة التي نظم عليها الشعراء السابقون، ومن اللافت للنظر أنّ كثيرًا منهم لم يعش تجربة غزل غرامية، وإنّما فعل ذلك من باب عدم الخروج عن المنهج التقليدي للقصيدة العربيّة⁽¹⁾.

وبالنظر إلى شعر ابن حبيب فإنّنا نجد أنّه لم يخصّص قصائد بعينها للغزل، وإنّما أفرد مقطوعاتٍ لألوانٍ مستحدثة للغزل في العصر المملوكي، كالغزل بالغلّمان، والغزل بأرباب المهن والصناعات، وألوانٍ أخرى من الوصف تقع ضمن باب الغزل.

وتطول مقدماته الغزليّة بعض الشيء على نحو ما فعل القدماء، فيتغزّل "بأسماء"، وهي من النساء المجهولات المذكورات في معظم قصائد الغزل، ويبث شكواه معبرًا عن لوعة الفراق، مظهرًا وجده وحرزته، ويمضي في بثّ شكواه ولوعته لبعدها وصدّها، مُنتقلًا إلى الحديث عن صفاتها التي تأخذ بمجامع القلوب، وتجار فيها الأوصاف والنّعوت، مستحضرًا الصّفات التقليديّة للموصوفة من عيونٍ تسبي، ومفاتن تبهر، وقد أهيف، وشعرٍ فاحم.

ويعبّر عمّا آلت إليه حاله بعد رحيلها، فهو في بكاء دائم، ويطلب منها الوصل واللقاء على عادة القدماء، ويذكر "زمن العقيق"، وأين ذلك الزّمان من ابن حبيب، إذ تفصله عنه المسافات والأميال، ويستحضر زمن "سعاد" حيث المسرّة والهناء، متمنّيًا أن يعود بعد أن أضناه الفراق وأنحله، فأصبح كالسّواك رقةً ونحوًا. فيقول⁽²⁾: [الكامل]

(1) ينظر: حسن عبد الرحيم سليم، فن الغزل في الشعر المملوكي 60، محمود سالم محمد، الأدب في العصر المملوكي 54.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 51.

ما هذه الأفعال يا أسماء
 أو أن يُقلَّب قلبك الإغراء
 برح الجفاء، ويرح الإخفاء
 وردَّ عليه بهجته وضياء
 في النور منه، حارت الشعراء
 تفنى ذمماً أو تباح ذمماً
 (سال النصارُ بها، وقام الماء)⁽¹⁾
 وتعلّمت من نوحى الورقاء
 وبضدّها تتبين الأشياء⁽²⁾
 لم لا أجنّ، وعينها سوداء
 زوري فتى أودت به البرحاء
 (أمن أزيدارك في الدجى الرقباء)⁽³⁾
 ولهأ لبعدهك عبرة وبكاء
 في فعلهم، فليفلوا ما شاؤوا
 عندي له نعمائها بيضاء
 كاللون منه دمعة حمراء
 وعيون حسدنا بها إغضاء
 يسري، وليس لنوره إطفاء
 ويضئنا منها سناً وسناء
 فلفقه أنه، والخلال سوا
 روحى، وما ملكت يداي فداء

صادقت غيري فاشتفى الأعداء
 ما كان ظني فيك أن تتغيري
 أخفيت وجدي مُدّة، والآن قد
 ولربّ خود خدّها الباهي به
 كم قد سبنا زمراً، وأغرانا وكم
 ولها عيون جاذر بسيوفا
 ومعاصم فضية مخضوبة
 هيّف الغصون تعلّمت من ميلها
 ليّل الذوائب زان صبح جبينها
 لا تنكروا ولهي بها وتجنّفي
 يا عادة تمحي الظلام بنورها
 وتعطفني ليلاً، ولا تخشي فقد
 حجبوك أهلك عن عيوني، فاغدت
 هم أهل بدر لا اعتراض عليهم
 آهاً على زمن العقيق، فكم يد
 ما عن لي إلا جرت من مقلتي
 حيث الغصون من التصابي غضة
 وبأفتنا نجم السرور المجلّى
 وسعاد تُسعدنا بروضات الرضا
 من لي بذياك الزمان وطيبه
 أمبشري برجوعه لك عن رضى

ويُقلَّب ابن حبيب معاني الغزل التي وصلته من القدماء، مُركِّزاً على إبراز عناصر الجمال

دون أن يكون معنياً بامرأة بعينها، لا بل أبداع في نقل كثير من صفات المرأة ووضعها في الغزل
 بغلام، وغالباً ما يكون من الأترك، على نحو ما فعل في القصيدة التي بين أيدينا، فالبدر يخجل من
 رؤيته، لا بل يظلّ مبهوتاً، ونظراته السّاحرة مستمّدة من سحر هاروت، وعذار الخدّ مرقوم بقلم

(1) عجز بيت للمتنبى، وصدرة: "وكذا الكريم إذا أقام ببلدة".

شرح ديوان المتنبي للبرقوقي 103/1.

(2) عجز بيت للمتنبى، وصدرة: "ونديمهم وبهم عرفنا فضله".

شرح ديوان المتنبي للبرقوقي 104/1.

(3) عجز بيت للمتنبى، وصدرة: "إذ حيث أنت من الظلام ضياء".

شرح ديوان المتنبي للبرقوقي 99/1.

الرَّيْحَانِ، وَالْوَجْنَةُ مَحْمَرَةٌ كَمَا النَّارُ، وَأَسْنَانُهُ مَرْصُوفَةٌ كَمَا الدَّرُّ، وَجِسْمُهُ نَاضِرٌ، وَأَسْيَافٌ لِحَاضِهِ تَقْتُلُ،
وله قامة تفضح الغصن في اهتزازهِ وتمايله.

وتتكرَّر معاني الغزل في قصيدة أخرى، فيبرز جمال الخدِّ، وعذوبة الرِّيق، وسحر الطَّرْفِ،
وليونة القَدِّ، والجفن النَّاعس، والشَّعر المرسل، فهو أشبه ما يكون بالملك، وصفات الحسن تحرسه(1).

[الطويل]

بروحي خدِّ قد تَفَتَّحَ وَرَدُّهُ
وَطَرَفٌ إِذَا مَا صَالَ مُرْهَفٌ لِحْظِهِ
رعى الله صَبَاباً شَفَقَهُ الْبَيْنُ وَالْأَسَى
أَخَا شَجِنٍ قَدْ ضَاعَ فِي الْحَيِّ قَلْبُهُ
فَتَى كَلَّمَا لَامَوْهُ فَيَمُنْ يُحِبُّهُ
وبي أَشْهَلُ لَا يَحْفَظُ الْوَدَّ وَالْوَلَا
على خَدِّهِ جَمْرٌ يَشْتَبُ ضِرَامُهُ
خُدُوهُ بِثَأْرِي فِي الْهَوَى، فَهُوَ قَاتِلِي
أَيَا مَنْ يَقِيسُ الْقَدَّ بِالْغَصْنِ وَالنَّقَا
غَزَالٌ إِذَا شَاهَدَتْ نَاعَسَ جَفْنِهِ
هِلَالٌ سَمَاءٍ، وَالْغَدَائِرُ لَيْلُهُ
وَحَمْرُ رُضَابٍ لَيْسَ يُمَكِّنُ رَدُّهُ
فَلَيْسَ سِوَى قَلْبِ الْمَتِيمِ غَمْدُهُ
وَأَسْقَمَهُ هَجْرُ الْحَبِيبِ وَيُعَدُّهُ
مُعْتَى بِمَنْ قَدْ ضَاعَ فِي الْحَيِّ نَدُّهُ
وقالوا له: ازهد، زادَ في اللوم زهدُهُ
يَعُوقُ الْكَرَى عَنِ نَاطِرِ الصَّبِّ صَدُّهُ
مِنَ الْحُسْنِ لَكِنْ فِي الْجَوَانِحِ وَقَدُّهُ
وَلَا تَقْتُلُوهُ، إِنِّي أَنَا عَبْدُهُ
أَمَا خِفْتُ أَنْ يَدْرِي بِذَلِكَ قَدُّهُ
يَلْدُ بِجَفْنِي فِي دُجَى اللَّيْلِ سُهْدُهُ
مليكَ جمالٍ، وَالْمَحَاسِنُ جُنْدُهُ

وأشار ابن حبيب الحلبي أنَّه نظم قصائد معروفة "بالمعشَّرات" ورتَّبها على حروف المعجم،
وأطلق عليها "تَوْحُ الْفَاقِدِ"، ومنها هذه الرَّائِيَّةُ التي أسهب فيها في الغزل بمحبوبه المفترض دون أن
يسمِّيهِ، فهو ذو طرف ناعس، ومبسم ينفث السَّحر الحلال، ولماه تُسكر، أمَّا خدَّاه فروضٌ مزهر، وهو
كالرَّشَاءِ رَشَاقَةً، لا بل يفوق "عبلة" حسناً ووصفاً، غير أنَّ قلبه لا يقدر على الاحتمال كما كان يفعل
"عنتره"، ويطلب منه أن يتَّقَى الله فيه، فلا يطيل غيابه، فهذه القطيعة تفتقر قلبه. قال(2): [الخفيف]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 96-97.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 112.

رَدَّ عَيْشِي بَعْدَ التَّصَافِي مَكَدَّرَ
 رَاعَ قَلْبِي إِذْ رَامَ سَفَاكَ دِمَائِي
 رَبُّ ظَلْبِي فِي مُقْلَتِيهِ نِعَاسٌ
 رَبُّ حَسْنُ أَلْفَاطِهِ وَلِمَاهُ
 رَوْضُ خَدْيِهِ لِلْكَنُوزِ يُضَاهِي
 رِيحُ سِرْبٍ قَتَلْتِ صَبْرًا عَلَيْهِ
 رَشَاءٌ فِيهِ قَدْ تَشَهَّرْتُ عِشْقًا
 رِقٌّ يَا مَنْ فَاقَ عِبْلَةَ حُسْنًا
 رُسُلُ الْوَجْدِ فِيكَ صَدَّقَهَا الْقَلْبُ
 رَاقِبِ اللَّهِ فِي مُحِبِّ إِذَا مَا
 صَدَّ مَنْ كَانَ عِشْقُهُ لِي مُقَدَّرَ
 سَيْفٌ جَفْنٍ بِالْكَسْرِ يَحْمِي وَيَنْصُرُ
 صَيْرَ الصَّبْرِ فِي الْمَحَبَّةِ يَسْهَرُ
 تَلَكَّ فِيهَا مَلْحٌ، وَذَا فِيهِ سُكَّرُ
 مَا تَرَاهُ مُدْرَهَمًا وَمُدَنَّزُ
 يَا عِنَائِي مَنْ لِلْقَتِيلِ الْمُصَبَّرِ
 فِدْمَوْعِي حُمْرٌ، وَلِوَنِي أَصْفَرُ
 وَجَمَالًا، فَلَيْسَ قَلْبِي عَنَزُ
 بٌ فَهَلَّا عَنْهَا الْعَذَابُ يَفْتَرُ
 غَبَّتْ، كَادَتْ أَحْشَاؤُهُ تَتَفَطَّرُ

ومن جميل أغزال ابن حبيب في المطربات الجميلات الفاتنات بشكلهن وعدوية صوتهن، إذ يصرعن المعنئين المشهورين في العصر الأموي، وهما معبد والغريض⁽¹⁾. [الطويل]

قِيَانُ حَجَبِنَ الْبَدْرِ حُسْنًا وَبَهْجَةً
 إِذَا هُنَّ الْقَيْنَ الْغِنَاءَ بِمَجْلِسِ
 زَمَانُ الَّذِي يَحْظِي بِهِنَّ وَسِيمُ
 فَمَعْبُدُ عَبْدٌ وَالْغَرِيضُ هَشِيمُ

ومن المظاهر الغربية في الغزل أن أحداً لم يتغزل في ألتغ، وهذا ما فعله ابن حبيب، وفي رأي الباحثة فإن هذا من الأمور المستهجنة، ولربما أراد الشاعر لفت الأنظار إلى صفات هذا الألتغ، فبعد أن أطلعنا على صفاته المعهودة من جمال العينين، والشعر المرسل، والعدار الجميل، أقام معه حواراً طالباً منه أن يدفع زكاة الجمال، فرفض وانثنى ماشياً بتيه واختيال⁽²⁾. [الخفيف]

هَامَ قَلْبِي فِي أَلْتِغٍ مَشْرِقِي
 جَلَّ مَنْ قَدْ أَعَزَّ أَنْصَارَ عَيْنِي
 دَبَّ فِي وَجْنَتِيهِ عَقْرِبُ صُدُغٍ
 يُبْدِلُ الرِّاءَ حِينَ يَنْطِقُ عَيْنًا
 قَلْبُ يَوْمًا لَهُ: تَصَدَّقْ وَزَكِّي
 فَتَنَّتْنِي لُطْفًا، وَقَالَ إِلَى كَمْ
 تَشَعَّبَ الْمَنْكَعُ الْخَفَامُ وَغَيْقِي
 يَا لَهُ وَعَظْمًا رَقِيقَ الْحَوَاشِي
 مِنْ أَهْيَلِ الْعِرَاقِ أَفْدِيهِ أَلْتِغُ
 هِ، وَمِنْهُ ظِلُّ الذَّوَابَةِ أَسْبَغُ
 لَمْ تَنْزِلْ لِلْفَوَادِ مَنْي تَلْدُغُ
 فَيُسَمِّي لَوْنَ الشَّقَائِقِ أَجْمَعُ
 كِي نَرَى الرِّاحَ فِي قَمِيصِ مُصَبَّغُ
 تَتَمَشَّى مِنْ خَلْفِ كُلِّ مَدْمَعُ
 سُوْكَعُ غَائِقُ أَعْجَمُ لَعْنُ
 وَعَظَّ الصَّبِّ فِي الْغَرَامِ فَاْبْلُغُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 206.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 161.

تاسعاً - الخمریات

نظم ابن حبيب في الخمریات، فأحصيت له ثلاثاً وخمسين مقطوعة في وصف الخمرة، وقد أورد تسعاً وثلاثين في ديوان "الشُّدُور"، والباقية وردت في شعره المجموع، وبالنَّظَر إلى طبيعتها نجد أنَّ مضامينها متنوّعة، إذ تناول فيها: ذكر أسمائها، ووصف كؤوسها، وذكر الصُّحبة والنُّدْماء، ووصف السَّاقِي، ووصف لونها وحبابها وطعمها.

وممَّا تجدر الإشارة إليه أنَّ نظمه في هذا الباب لم يكن إلاَّ مجازاة لشعراء العصر الذين أولعوا بوصف الخمر ومجالسها، فأراد أن يثبت قدرته على النُّظم، إذ إنَّ سيرته تتنافى وشربه الخمرة، فقد كان فقيهاً عابداً ورعاً تقيّاً، وليس معنى أنَّه تكلم عن الخمرة أنَّه كان غارقاً في شربها، وهذا حال أغلب شعراء العريّة. والدليل على ذلك قوله: "كان لي صديق مغرى بشرب الرِّحيق، غزير الفضل والآداب، كثير اللُّهج بذكر مجالس الشُّراب، وكان يودُّ حضوري عنده، وأنا لا أبلغه ممَّا يودُّ قصده، فأتاني حيناً من الأحيان، يدعوني إلى مجلس بعض الأعيان، وألزمني بأن أحالفه، مقيماً على ألا أخالفه، فأجبت إلى المحاضرة، مشترطاً عدم المعاورة..."⁽¹⁾.

ويشير محمود سالم محمد إلى أنَّ شعراء العصر التركي لم يتركوا معنًى من معاني ذكر الخمرة، إلاَّ أتوا عليها، ولا وصفاً لها إلاَّ عرضوه، وتابعوا سابقهم في طرائق وصفها، ووصف مجالسها وتأثيرها⁽²⁾.

هذا وقد أكثر الشعراء من الحديث عن مجالس الخمر التي كانت تعقد في بيوتات الخاصّة، أو بين أحضان الطَّبِيعَة، أو في الحانات، أو في الأديرة، وقد عكفوا على وصف مجالس الأُنس، وهم يتلذّدون بشرب الخمر، وكانت تلك المجالس تضمُّ السُّقاة والنُّدْماء الطُّرفاء والمُعَنِّين، حيث تصدح الأصوات التي تُطرب الأسماع، وتتدخل السُّرور والفرح إلى النُّفوس.

(1) ابن حبيب الحلبي، نسيم الصبا، ص 18.

(2) محمود سالم محمد، الأدب في العصر المملوكي، ص 89.

وحدَّثنا ابن حبيب عن مجلسٍ لنديم له كان قد حضره، حيث كان حافلاً بالمتعة والمسرة
واللَّهو، وقد ترجم ذلك على لسان آنية الخمر وأدواتها، وأصوات المعازف والآتها، يقول⁽¹⁾: [البسيط]

أيا نديمي لو شاهدتَ وَقَعْتَنَا في مجلس اللّهُو حيثُ الخِصْمُ مغلوبُ
الدُّفُّ والدُّنُّ مضروبٌ ومنكسِرٌ والرِّقُّ يُذْبِحُ والرَّووقُ مصلوبُ

وقال في مثله متحدِّثاً عن مجلس الشُّرب وما فيه من لهو ومتعة، إذ جمع فيه الهناء والبهجة،
وقد انعكست حالة الفرح على زجاجات الخمر، فانتابتها حالة من الضَّحك والقهقهة كما يفعل النَّدماء.
يقول⁽²⁾: [الكامل]

لله مجلسنا الذي جمع الهنا بمدامة تحيي النفوس الهالكة
حتى الزجاجاة فيه قامت خدمة للشرب وانقلبت تقهقهه ضاحكه

وفي ذكر مجالس الشُّرب يقول⁽³⁾: [الكامل]

ولقد نكرت مجالساً مأهولة بأهلاً بمثالهن عزيز
وبها كؤوس كالشموس يحفها عود معيد للسرور وشيز⁽⁴⁾
ما كان أوجز عمر أوقات مضت وكذلك عمر الطيبات وجيز

ولسان الحال يترجم ما فعلت الخمر في جماعة من النَّدماء بعدما تركوا الحانة، فكانوا أشبه ما
يكونون بأدوات الشُّطرنج. يقول⁽⁵⁾: [الوافر]

أكرم بها بنت كرومٍ لم تزل ناصيةً للشُّربِ ثوبَ الفخِّ
من خانها أتوا وكالفرز مشوا وحين وافوها مشوا كالرُّخ

وكانوا يشربون الخمر في أحضان الطبيعة حيث الرياض الغناء والظلال الوارفة، وسماع

النغمات المطربة، وتناول الأطعمة الشهيبة. كقوله⁽⁶⁾: [المتقارب]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 60.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 274.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 135.

(4) شيز: الدُّفُّ.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 91.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 181.

ولم أنس يوم شربت الطلى بروض سما حسنه عن شريك
وللنقل والنقل في حضرتي رفيق رفيق وديك وديك

وعند الحديث عن الخمرة لدى ابن حبيب يذكر أسماءها المعروفة في التراث العربي،

كقوله⁽¹⁾: [الطويل]

وطوس وقتديل عقار وقرقف مدام وإسفنط سلاف وجربال
طلا وسباء والخميا وقهوة كميت، شمس، خندريس وسلسال

ومن أسمائها المدام والعجوز، وفيهما يقول⁽²⁾: [الوافر]

مدام كم أمالت جيد ظبي وحأت عقدة الخود الرذاح
جزها الله خيرًا من عجوز تريض صعب أخلاق الملاح

والخمر عند ابن حبيب تجلب المتعة والراحة والسرور، وهي لا تجتمع والهّم في آن واحد،

وبالتالي فإن معاقرها لا يشعر بالهّم أبدًا، وكيف له أن يشعر به، وقد صور له ملك كسرى حول

كاساتها. يقول⁽³⁾: [السريع]

فل للذي من راحنا يشكتي ظلماً، ولم يشعر براحتيها
الظلم في مجلسها لا يرى أنى، وكسرى حول كاساتها

وقد تفنن الشعراء في وصف السقاة، وما يتمتعون به من جمال فائق، فكانوا يسكرون من

إدامة النظر إلى مفاتهم، وسحر أحوالهم، فوصفوا عيونهم، وأصابهم، وشعرهم، ورقّة قدودهم، وكذلك

لباسهم. ومن ذلك قول ابن حبيبي وصف ساق⁽⁴⁾: [مجزوء الرجز]

ساق غدا يحكيه من بان النقا وريقه
واظمأي وراخه في حضرتي وريقه

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 188.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 274.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 74.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 173-174.

فهذا السّاقِي حَسُنَتْ صفاته، فقوامه كغصن النَّقا، لا بل كالسّمهريّ طولاً، ويسقي الشّرب بطرفه
أكثر ممّا يسقيهم من راحته.

وقال بدرُ الدين بن حبيب يصف ساقياً آخر⁽¹⁾: [الكامل]

وَأَرُبُّ سَاقٍ كَالغَزَالَةِ عَارِفٌ بِالكِيمِيَاءِ غَدَا عَلِيٌّ عَزِيْرًا
نَاوَلْتُهُ بَيْنَ النَّدَامِي فَضًّا فَأَحَالَهَا، وَأَعَادَهَا إِبْرِيْرًا

فهذا السّاقِي يشبه الغزّالة، هو عارف بالكيّميّاء، أي متقن لصنّعته، فعندما يمزج الخمر بالماء
تنقلب ذهباً خالصاً مشعشعاً، بعد أن كان لونها فضياً.

وللخمر هالة من القداسة عند الشّاعر، عاقداً المقارنة بين سجود النّاس للشمس قديماً، وسجود

النّاس للخمر، مُتخذاً منها صورة إنسانٍ يخِرُّ ساجداً حينما تنصبُّ من أبريقها. قال⁽²⁾: [الكامل]

لَمْ لَا أَتِيهِ وَمَنْ أَحَبَّ مَنَادِمِي وَكُوُوسٍ رَاحِي نُوْرَهَا يَتَوَقَّدُ
كَمْ مَعَشَرَ لِلشَّمْسِ أَضْحُوا سُجْدًا وَالشَّمْسُ مِنْ إِبْرِيْقِهَا لِي تَسْجُدُ

ومذهب ابن حبيب في مزج الخمر مرفوض، فهو يفضّل شربها صرفاً، وفي نظره فإنّ مزجها

بالماء يذهب نقاءها؛ لأنّها أصلاً مشربة بالماء. قال⁽³⁾: [السريع]

لَمْ أَنْسَ قَوْلَ الخَمْرِ: وَيْحَكَ دَعُ مَزْجِي، وَلَا تَشْرَبِ سِوَى صِرْفِ
لَا تَسْقِي يَابِنَ الكِرَامِ فَمَنْ مَاءِ الكِرَامِ شَرِيَةً يَكْفِي

وقد وصف ابن حبيب الرّأووق (مصفاة الخمر)، فيبدو شكله حسناً يروق المنادمين، وبخاصّة

حينما تتقاطر منه حبّات الخمر، فتحدث صوتاً يطرب الأسماع حينما تتصافى، ويبدو حبابها المتقاطر

من الرّأووق كأنّه دُرٌّ منثور من عقد، فلا يمكن التقاطه ونظمه من جديد. يقول⁽⁴⁾: [الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 134.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 274.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 167.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 275.

راووق صهباء الحميّا شكله حسن يروق منادميه ونقطه
لله در نثار در ساقطه من عقده، أو كان يمكن لقطه

وفي مقطوعة أخرى أضفى الشاعر على الراووق المشاعر الإنسانية، عبر الحوار الذي أجراه بينه وبين "البطة"، وهي وعاء يوضع فيه الشراب، حينما أبصرته باكياً، في محاولة منه لبث الحياة والحركة في مجلس الشرب حتى في الجمادات، فتبدو البطة حزينة على الراووق الذي أخذ دمه يتحدّر من فتحاته، وكأنّه في حالة بكاء مستمرّ، فكان الرّد بأنّ بكاءه يترجم حالة السرور التي تنتابها هي، يقول⁽¹⁾: [السريع]

عائت البطة راووقنا في مجلس حُفّ بعرفِ ذكي
قالت له: قد زدت كم ذا البكا فقال: لو لم أبك لم تضحكي

وتنفّن ابن حبيب في وصف حباب الخمر، فبدأ كأنّه راقص يرقص على حافات الكؤوس، وبدت الخمرة ضاحكة مستبشرة به. قال⁽²⁾: [الكامل]

يا حبّذا كأس لها بحضورنا بشر يزيد وبهجة لا تنقص
أو ما ترى منها المحيا ضاحكا وحبابها بين الحبايب يرقص

عاشراً- الزهد

اتّخذ الشعراء الزهد سلاحاً للدعوة إلى الإعراض عن الدنيا وشهواتها؛ لأنّها مفسدة للنفس والدّين، كما أنّ الدّين الإسلاميّ الحنيف قد هوّن من شأن الدنيا، بوصفها ممراً للإنسان لا مُستقراً، وامتحاناً للإنسان يُحاسب عليه في الآخرة.

ولمّا كثر الفساد وانتشر الظلم والآفات الاجتماعية في حقب عديدة من العصر التركيّ، لجأ كثيرٌ من النّاس إلى الزهد، واتّخذوه ملاذاً لهم، يصرف نفوسهم عن الطّمع في الدنيا والانشغال بها،

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص274.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص145.

ومن بين هؤلاء ظهر نفر من الشعراء الذين أخذوا يدعون الناس إلى الانصراف عن متاع الدنيا الزائل، ومُتخِّذين من الوعظ طريقاً لإدراك الفرصة قبل فوات الأوان، داعين الناس إلى التمسك بالثقفى قبل أن يدركهم الموت(1).

وبالنظر إلى شعر ابن حبيب المجموع نجد أنه من المُكثرين في هذا الموضوع، وقد دفعته التجارب والحوادث والأهوال لأن ينظم في هذا اللون من الشعر، فأورد ما يزيد على خمس عشرة مقطوعة. وقد أفرِد في ديوانه "الشُدور" باباً للحديث عن الزهد أورد فيه ثلاثين مقطوعة في موضوعاته المختلفة.

وقد سلك ابن حبيب طريق الوعظ في الدَّعوة إلى الزهد في الدنيا، والتخلُّص من الذنوب التي ارتكبها من خلال إعلان التَّوبة والاستغفار، وتدارك الفرصة قبل الفوت وحلول الموت. يقول داعياً إلى انتهاز هذه الفرصة والأخذ بنصيحته(2): [الخفيف]

تُبِّ إلى الله مُخْلِصاً، وتَتَصَّل
من ذنوبٍ جَنَيْتَ قبل فواتِك
فكَمَاة الممات أَي شِدَادِ
وسُيوفُ الحُتوفِ أَي فواتِك

ويحدّر من غدر الدنيا، فمن طبعها الجفاء، وربما يخرج الإنسان منها بلا عمل
للاخرة(3): [السريع]

قلتُ لدنيا محتني إذ جَفَت
قلبي نوى قتلك يا غادره
قالت: ليفعل ذاك فهو الذي
يبقى بلا دنيا، ولا آخره

ويدعو إلى الاتعاط بالشَّيب الذي غالباً ما يكون نذيراً لدنو الأجل، ويدعو إلى ترك النَّصابي والانغماس في اللذات، وترك المعاصي، وإعلان التَّوبة إلى الله، موصياً ألا يدنس شبيهه بالآثام، فالشَّيب رمز للنقاء والطُّهر(4): [البسيط]

(1) ينظر: محمود سالم محمد، الأدب في العصر المملوكي 103.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص73.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 115-116.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص174.

يا ذا الذي شاب، وبيضت مفارقته
واسنن مشيبك من عيب تدنسه
دع الغواني، ورشف الكأس واللّعس
إنّ البياض قليل الحمل للدنس

ويطلب من الناس أن يقبلوا على الصلّة، ويهجروا مضاجعهم للعبادة والانقطاع لله، ويتوبوا
إليه(1): [مجزوء الكامل]

يا راقدين اسـتـيقظوا
كم آيةٍ ظهرت لكم
توبوا إلى من أمره
وتعدّوا بالله من
فالقوم قد هجروا المضاجع
تجري لهيبتهما المدامع
أمضى من البيض القواطع
شـرّ التوابـع والزوابـع

ولخص ابن حبيب حقيقة الرّيح والتّجارة في الآخرة لا الدّنيا، فيطلب ممّن أراد ربح الآخرة أن يمضي مُتقدِّمًا مُتسلِّحًا بالتّقوى والقناعة، فهما خير الرّاد للبضاعة الرّابحة. يقول(2): [الوافر].

ألا يا تاجر الأخرى تقدّم
وشمّر إن أردت جزيل ربح
من التّقوى إلى أركى بضاعة
بسوق الزهد عن سوق القناعة

ويدعو اللاهين ويحدّثهم من الانشغال بالدّنيا، قبل أن يهجم عليهم الموت، فالمال الذي يفترون به، والعمر يذهب هباءً ذاهب، مع الإشارة إلى أنّه لا نسبة بين المال والعمر، ولا يعرف المرء مقدار ضياع العمر إلا بعد أن تُطوى صحيفته، فلا يُزاد فيها ولا ينقص، وهناك يكون النّدم والحسرة ولات ساعة مندم. يقول(3): [الرجز]

يا أيّها السّاهون عن أخراكم
المال بالميزان يُصرف عنكم
إنّ الهداية فيكم لا تُعرف
والعمر بينكم جزافاً يُصرف

ودعا الشّاعر في مقطوعة أخرى المرء إلى الرّضا بالقدر، والبعد عن الطّمع، واقتحام الأخطار في سبيل الحصول على الرّزق، فمن قنع برزقه استغنى، ومن صبر نال ما تمّنى، وفي ذلك يقول في
قالب من حكمة تفيض بالقناعة(4): [المتقارب]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 154.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 155.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 165.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 183-184.

إذا الرزقُ عنك نأى فاصطبرُ ومنه اقتنع بالذي قد حصَلُ
ولا تتعبِ النفسَ في وصلهِ فإن كان ثمَّ نصيبٌ وصلُ

ويُحذّرُ شاعرنا من الاغترار بطول العمر، فجميع الناس صائرون إلى الموت والفناء، وبالتالي لا داعي للتمسك بها أو الإقبال عليها، ولنا فيمن هلك من الأوائل ك"سام" و"حام" ابني نوح، عليه السلام، مُعْتَبَرٌ. يقول⁽¹⁾: [السريع]

لا تغترِرْ جهلاً بمن عمُرُهُ طال، ومجّد من أنام الأنام
فالسّامُ⁽²⁾ ألقى سامَ تحت الثّرى وطائرُ الموتِ على حامِ حامِ

ويطلب ابن حبيب من المرء ألا يكنز المال حرصاً وطمعاً، فالرزاق هو الله، ويدعوه إلى الإنفاق في وجوه الخير طلباً للأجر والمثوبة. يقول⁽³⁾: [السريع]

لا تكنزُ الدّينارَ حرصاً، فما تفقدُ رزقاً، وعلي الضّمان
واصرفهُ فيما تبتغي أجرهُ من قب ل أن يأتيه صرفُ الزّمان

وفي مقطوعة أخرى يخاطب الشّاعر مَنْ تقدّم به العمر بالبعد عن التّصابي، والمبادرة إلى إعلان التّوبة قبل فوات الأوان⁽⁴⁾. [السريع]

يا بالغ السّبعين حتّى متى لا يرعوي مَنْ جاوز المعترك
بادر إلى التّوبة قد آن أن ترجع صيد الشّرك المشترك

وينصح ابن حبيب الإنسان بالعزلة طلباً للرّاحة والنّجاة، وبالبعد عن الدّنيا وأهلها الفاسدين، ويرى أنّ الإقبال والسّعادة والعزّ إنّما يتأتّى للمرء بالابتعاد عن البشر. قال⁽⁵⁾: [الرجز]

دع عنك كلام بني الدنيا ولو أهدى إليك جده أو هزله
أما ترى من جانب الناس نجا وأقبل العز له في العزله

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 197.

(2) السّام: الموت. ابن منظور، اللسان (سمم).

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 214.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 283.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 283.

وفي مقطوعة أخرى تقترن حقيقة الزهد عند ابن حبيب بالابتهاال إلى الله بخالص الدعاء وطلب

المغفرة كي ينجو من عذاب الآخرة، يقول معبراً عن ندمه على ما فعل في دنياه. قال⁽¹⁾: [المجتث]

يا غافر الذنب هب لي، في العرض بسطاً لقبضي
ولا تدقق وقصراً يا رب من طول عرضي

الاتجاهات التجديدية

1. الغزل بالغلّمان المُعذِّرين

انتشرت في العصر المملوكي ظاهرة المجون والخلاعة، وتبعها بطبيعة الحال انحراف في طبيعة الحب، وأقبل الناس على الانغماس في الشّهوات، وانعكس هذا بدوره على طبيعة الشعر، وراح الشعراء يتغزلون في الغلمان، وأفرطوا في ذلك حتّى طغى عند بعضهم على غزلهم بالمرأة. وراح بعضهم يضعون مصنّفات في وصف الحسان من الغلمان، ومنهم: الصّلاح الصّفدي (ت764هـ) الذي وضع مصنّفين: "الحسن الصّريح في مئة مليح"، و"لوعة الشّاكي ودمة الباكي"، وابن الوردي (ت749هـ) صنّف "الكلام على مئة غلام"، وشمس الدّين النّواجي (859هـ) وضع "مراتع الغزلان في وصف الحسان من الغلمان"، و "خلع العذار في وصف العذار"⁽²⁾.

ومن الضّرورة في هذا المقام الإشارة إلى أنّه ليس كلُّ من نظم في هذا الاتجاه كان فاسقاً، وبخاصّة إذا كان فقيهاً أو محدّثاً، وإن فعل ذلك، فإنّما بدافع ترويح بضاعة شعره أوّلاً، ومجاراة ذوق العصر ثانياً، يضاف إلى ذلك الرّغبة في تمرين القريحة، والإثبات لآخرين أنّه قادرٌ على النّظم في هذا اللون من الشعر، والدليل على ذلك ما نصّ عليه ابن الوردي في ديوانه، حيث يقول: "وقد يقف الناظر في مجموعي هذا على وصف عذار الحبيب وخدّه، ونعت ردفه وقده وشكوى عشقه وصدّه، وذمّ الشّيء وحمده، ومدح الشّخص لرفده، وجزر القول ومدّه، فيظنّ لذلك بي الطّنون، غافلاً عن قوله

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 284.

(2) ينظر: حسن عبد الرحمن سليم، فن الغزل في الشعر المملوكي، ص44.

تعالى ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾⁽¹⁾، فَإِنِّي إِنَّمَا قَلْتُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ امْتِحَانِ الْقَرِيحَةِ، وَمَحَبَّةٍ فِي
المعاني المبتكرة واللُّمَعِ المليحة، التي لم يصبر عنها إلا من نفر طبعه، ولا يستهجنها إلا من قد أظلم
حسّه، ونبا عن الحكمة سمعه، وما كُلُّ من قال فعل، ولا كُلُّ من مدح سأل⁽²⁾.

وقد بدا ابن حبيب مفتونًا بفنّي معذّر، ذي قوامٍ يترنّح في مشيته وبتهادي كما يهتّر الغصن

الرطيب، كما أنّه مبسمه حلوّ، وريقه عذب، وقد أخذ الشّعْرُ يدبُّ نابئًا على خدّه. قال⁽³⁾: [الكامل]

نَفْسِي فِدَاءٌ مُعَذَّرٍ أَعْطَفُهُ قَدْ أُخْجَلْتُ مِنْ لَيْنِهَا الْعُصْنُ النَّضِرُ
مَاءُ الْحَيَاةِ حَقِيقَةٌ فِي ثَغْرِهِ وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ عَارِضَهُ خَضِرُ

وفي مقطوعة أخرى يرُدُّ على عُدَّاله الذين لاموه على هوى فتى مُعذَّر نبت عارضاه، مبيّنًا أنّه
ما زال به هائمًا، فلا عُذْر لهم في اللوم، وكيف لا، فنفسه الخضراء تهفو إلى العذار الأخضر الذي
يبدو كأخضر الديباج. وتجدر الإشارة إلى أنّ الفتيان المُعذَّرين اعتادوا صبغ عذارهم بألوان مختلفة.

يقول⁽⁴⁾: [الخفيف]

يَا عَذُولِي دَعْنِي وَخَفِّفْ مَلَامِي فِي عَذَارِكُمْ خَطٌّ مِنْ قَدْرِ عَذْرَا
إِنَّ نَفْسِي تَمِيلُ نَحْوَ اخْضِرَارِ فِيهِ، وَالنَّفْسُ مَثَلُ مَا قِيلَ خَضِرَا

وهذا العذار كما يرى ابن حبيب يجلُّ عن التّشبيه في هذا المقام، فحينما حطَّ على الخدِّ

الأحمر، بدا كالفرّاش محترقًا، وبيالغ في نعته، فهو أشبه ما يكون بنملٍ دبَّ في عاج، وحاشية كُتبت

بقلم الرّيحان. تأمّل معي روعة التّشبيه⁽⁵⁾: [الخفيف]

بِي عِذَارٍ مَزْخَرَفٍ الْخَدُّ يَهْوِي طَائِرِ الْقَلْبِ، نَارُهُ كَالْفِرَاشِ
فَهُوَ كَالْمَسْكِ أَوْ كِنَمَلٍ بَعَاجٍ أَوْ كَخَطِّ الْكَمَالِ فَوْقَ الْحَوَاشِي

(1) سورة الشعراء، الآية 226.

(2) ابن الوردي، الديوان 17.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 108.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 115.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 143.

يُكْرَرُ التَّشْبِيهِ نَفْسَهُ فِي مَقْطُوعَةٍ أُخْرَى مُشِيرًا إِلَى أَنَّ هَذَا الْعِدَارَ يَسْبِي عَقُولَ النَّاطِرِينَ،

مَصُورًا إِيَّاهُ بِنَمْلِ دَبٍّ عَلَى صَفْحَةِ خَدْيِهِ، وَكَأَنَّهُ رَاقِمٌ مَجِيدٌ فِي التَّوْشِيَةِ وَالنَّقْشِ. قَالَ (1): [الطويل]

عَلَى وَجْنَتَيْهِ دَبٌّ كَالنَّمْلِ عَارِضٌ سَبَى رَقْمَهُ قَلْبَ الْمَحَبِّ وَرَقْشِهِ
تَحْيَلٌ فِي أَمْرِ النُّزُولِ بِخَدِّهِ وَحَيْثُ تَمَّتْ عَلَيْهِ وَنُقْشِهِ

وَيَتَغَزَّلُ ابْنُ حَبِيبٍ فِي فَنَى يَجُلُّ عَنِ الْوَصْفِ، وَكَأَنَّهُ مِنْ غِلْمَانِ الْجَنَّةِ وَوَلَدَانِهَا قَدْ هَبَطَ عَلَى

الْأَرْضِ، وَهَذَا الْعِدَارُ يَبْدُو كَأَنَّهُ فَتَيْتٌ مَسْكٌ ذُرٌّ عَلَى خَدِّهِ الْأَبْيَضِ، أَوْ أَنَّهُ يَظْهَرُ كَأَوَّلِ الرِّيحَانِ، أَوْ

كَالنَّمْلِ، وَيَنْفَعْنَ الشَّاعِرَ فِي التَّشْبِيهِ مَوْظِعًا حَرْفِ اللَّامِ الْمُتَّخِذِ فِي إِظْهَارِ شَكْلِ الْعِدَارِ، فَهُوَ يَشْبَهُ اللَّامَ

شَكْلًا وَرَسْمًا. قَالَ (2): [مجزوء الرجز]

أَفْدِي رَشَاءَ خُلُوعِ الْجَنِيِّ مِنْ جَنَّةِ الْخُلُودِ هَبَطَ
كَأَنَّ مَاءَ عِذَارِهِ مَسْنُوكٌ عَلَى الْعِجَاجِ انْفِرَطَ
أَوْ أَوَّلِ الرِّيحَانِ أَوْ نَمْلٍ أَوْ اللَّامِ فَقَطَّطَ

وَيُرَدُّ ابْنُ حَبِيبٍ عَلَى أَوْلَادِكَ الَّذِينَ يَلُومُونَهُ عَلَى حُبِّ غُلَامٍ نَبَتَ عِدَارِهِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَكْفُوا

عَنْ ذَلِكَ، فَأَوْصَافُهُ الْجَمِيلَةَ لَا تَتَّعِيرُ، بَلْ يَزِيدُهَا الْعِدَارَ رُونَقًا وَبِهَاءً (3). [الكامل]

قَالُوا: فَلَانٌ هَاجَ نَبْتُ عِدَارِهِ وَتَغَيَّرَتْ أَوْصَافُهُ وَحَالُهُ
فَأَجَبْتُمْ كُفُّوا عَنْ هَجَاءِ نَبَاتِهِ فَلَهُ عَلَى الْحَالِينَ مَنْ يَزْعَاهُ

وَيَطْلُبُ ابْنُ حَبِيبٍ مِنْ غُلَامٍ مَلِيحٍ هَمٌّ فِي نَتْفِ عِدَارِهِ لَمَّا بَدَأَ وَنَبَتَ، قَائِلًا لَهُ لَا تُتْعَبُ نَفْسُكَ

فِي النَّتْفِ، فَهَذَا حَكْمٌ وَبِلَاءٌ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَحِينَمَا يَنْتَشِرُ الْعِدَارُ فِي الْوَجْهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ رَدَّهُ أَوْ

دَفْعَهُ. قَالَ (4): [مجزوء الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 143.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 150.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 228.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 210.

يَا مَنْ يَرُومُ بظُفْرِهِ نَتَفَّ الْعِذَارِ الْمَظْلَمِ
أَتَعَبْتِ نَفْسَكَ، فَاسْتَرِحْ مِنْ ذَا السَّبَلَاءِ الْمَبْرَمِ
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْوَى عَلَى رَدِّ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ

2. وصف اللباس

لم يشكل وصف اللباس ظاهرة بارزة في شعر ابن حبيب، فقد أحصيت له تسع مقطوعات في هذا الاتجاه، ومن ذلك قوله في وصف لابس مفرج⁽¹⁾: [مخلع البسيط]

لَمْ أَنْسَهُ لِابْسَاءِ قِبَاءٍ مُفَرَّجًا عَرْفُهُ تَأَجَّجٌ
كَمْ مِنْهُ قَدْ غَارَ ذُو غِرَامٍ لَمَّا عَلَى قَدِّهِ تَقَرَّجٌ

بدا الشاعر مفتوناً بلبس القباء المشقوق الجوانب، وارتسمت صورته في ذاكرته، فلا يستطيع الفكاك من تصوُّره، كيف لا وقد فاحت من نوافخ النَّدِّ، وعطَّرت الأرجاء رائحته العبقَّة بالروائح العِطْرِيَّة الشَّدِيَّة، وهذا ما أثار الغيرة لدى المحبِّين الذين افتتنوا بجماله لمَّا مرَّ، وأخذوا يتقرَّجون على قدِّه الممشوق.

وله مقطوعة في وصف مليحة لابسة وردية، وفيها يقول⁽²⁾: [الكامل]

فِي حُلَّةٍ وَرْدِيَّةٍ ظَهَرَتْ تُسْبِي الْوَرَى بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ
لِي خُضْرَةٌ مِنْهَا فَرِيقَتُهَا خَمْرِي، وَلِوْنُ ثِيَابِهَا وَرْدِي

فحينما تبدَّت لابسة ثوباً وردِيَّ اللَّوْنِ، سبت العقول بمنظرها الفاتن، وقد سقتهم خمرًا من رضاب فمها لمَّا التثمه.

وقال في مليحة مؤنزة⁽³⁾: [الطويل]

أَيَا حُسْنَهَا حَوْدًا بَدِيعًا جَمَالُهَا تَرَاعَتْ لَنَا بِالْحَلِيِّ فِي حُلِّ التَّبْرِ
وَأَلَقَتْ عَلَيْهَا الْمِرْطَ، وَهُوَ مُعَطَّرٌ فَأَحْيَتْ قَتِيلَ الْوَجْدِ بِاللَّفِّ وَالنَّشْرِ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 81.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 103.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 124.

يتعجب الشاعر من حسنها الفتان، وقد أخذت بمجامع عقله لما تبدت وتزينت بحلي الذهب، وقد برع صاحبنا في توظيف مصطلحي البديع (اللف والنشر)، في إشارته إلى كسائها المصنوع من الخرز، وقد فاحت منه روائح شديّة، فأحيت قتلها المستهام، وأعدت بعثه ونشره إلى الحياة ثانية.

3. الغزل بأرباب المهن والصناعات

شكّل وصف أصحاب الحرف والصناعات ظاهرة بارزة في شعر ابن حبيب، فنظم سبعين مقطوعة في وصفهم.

ومن الأمثلة على ذلك قوله مليح صيرفي⁽¹⁾: [مجزوء الرجز]

وَصَايِرْفِي صَار فِي خَدِيهِ مَاءٌ وَلَهَبٌ
لَمَّا رَأَيْتُ جِسْمَهُ مِنْ فِضَّةٍ عَقْلِي ذَهَبٌ

فهذا الصيرفي ذو حظ من الجمال الأسر، وبخاصة حمرة خديه، وقد أجاد الشاعر في الربط بين ما يفعله الصانع، وبين هذا المليح، مستمداً جمال جسمه الفضي، ولهيب نار خده، وهذا ما أذهب عقل الشاعر، لا بما يصوغه من ذهب وفضة، وإنما بفعل حسنه وجماله.

ومن ذلك قوله في طبّاخ⁽²⁾: [مجزوء الرجز]

يَازِبُّ طَبَّاحٌ بِهِ كُلُّ مَلِيحٍ يُنَسَخُ
كَمَ زَفْرَةٍ مِنْ عَاشِقٍ تَظْهَرُ حَيِّنٌ يُطْبَخُ

بدا الشاعر مُعجِباً بهذا الطباخ الذي لا يمكن أن يوصف من فرط جماله، فلا مليح يشبهه على الإطلاق، ولهذا فإن زفرات العشاق تتعالى حينما يبصرونه يطبخ.

ومن جميل قوله في وصف مليحة مطرية⁽³⁾: [الهجج]

وَخَوْدٌ لَمْ تَزَلْ تُبَدِي طَرِيقاً فِي الْغَنَاءِ يُحْمَدُ
إِذَا مَا أَعْرَبَتْ لَحْناً غَدَا عِبَاداً لَهَا مَعْبَدُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 54.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 91.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 92.

فهذه المُغَنِّيَّة ذات صوت رخم، وهي في صنعتها محمودة، وألحانها مُطربة، بحيث لو سمع صوتها المُغَنِّي معبداً؛ لأصبح لها عبداً.

وله في وصف ورَّاق حسن الهيئة، له قامة كالغصن، وهذا ما دفعه للميل إليه، وكان ذلك سبباً في وقوعه أسيراً في كَفِّه. قال (1): [السريع]

لله ورَّاقٌ يصيدُ النُّهْيَ ذو قامةٍ كالغصنِ المائِدِ
مَيْلي إليه، وهو في دَسْنَتِهِ أوقعني في كَفِّهِ الصَّائِدِ

ومن جميل مقطوعات قوله في وصف صَبَّاغ (2): [الوافر]

وصبَّاغٍ له خَدُّ رَقِيمٍ يتيه بأبيضٍ من تحت أخضرِ
أجابَ حواسدي، وأجاد صبغي فجسمي أصفر، والدَّمْعُ أحمَرِ

تعكس هذه اللوحة جمالية الوصف في عمل ذلك الصَّبَّاغ وما يستخدمه من ألوانه في صباغته، وقد انعكس أثر ذلك على خدِّه الذي أثرت فيه الألوان المتعددة، وانقلب تأثير الأصباغ على نفس الشاعر، فتوشَّح جسمه بالاصفرار من فرط حبه له، وكذلك دموعه امتزجت بالاحمرار من كثرة بكائه عليه.

ومن جميل قوله في وصف خطيب جمع مظاهر الحسن جميعها، من ثغر باسم يكشف عن

أسنان لؤلؤية، وشفتين كالخمر والعنبر لوناً، وجنتين حمراوين متوهجتين. يقول (3): [السريع]

أهوى خطيباً ثغره جامعٌ للدرِّ والدرياقِ والعنبرِ
يا مَنْ رأى وجنته خاطباً بشراكِ بالروضِ والمنبرِ

وقال ابن حبيب يصف حلاويًا (4): [الكامل]

أهوى حلاويًا بديع الحُسنِ كم أزدى مُحبًّا حين هزَّ معاطفه
جسمي ودمعي في هواه ومهجتي دنفًا، وسألُبُّ بالجفاءِ وتالفه

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 100.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 107.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 128.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 163.

فهذا الحلاويُّ بديع الحسن، يسبي العقول بجماله ودلّه، وقد أظهر الشّاعر ما به من ألمٍ لمّا أبصره، فتعلّقت نفسه به كثيراً، وأخذ يذرف الدُّموع، وأصاب جسمه السّقام، وسلبت روحه بسبب جفائه. ولابن حبيب مذهب في الرّبط بين ربِّ الحِرْفَة وأدواته، تأمّل معي قوله في صفة كاتب إذ أجاد الرّبط بين سطور دفاتره وانتظامها، واتّساق أسنانه واصطفافها، إذ بدت دُرّاً مرصوفاً على نسق دقيق.

أمّا حواشيه فبدت من خلال وجنتيه، ولذا فلا عجب أن يتعلّق قلبه به. يقول⁽¹⁾: [مجزوء الرمل]

كَاتِبٌ سَطْرٌ ثَنَائِيَا هـ، حَوَى الـدَّرَ المَحَقَّقُ
بحواشِي وجنتِيه فِي الهَوَى قَلْبِي مُعَاقِقُ

وله في كاتب آخر⁽²⁾: [الطويل]

وَلِي كَاتِبٌ كَم مِّن رِّقَاعٍ بَعَثْتَهَا إِلَيْهِ عَسَاهُ بِاللُّقَا يُنْصَدِّقُ
فَوَقَّعَ لِي أَنْ يَنْسَخَ الوَصْلَ بِالجَفَا وَأَنَّ أَسِيرَ الدَّمْعِ فِي الحُبِّ مُطْلَقُ
بِرُوحِي أَفْدِي مِنْهُ خَدًّا مُورِدًا حَوَاشِيهِ رِيحَانٌ بَدِيعٌ مُنَمَّقُ
حَدِيثٌ غَرَامِي فِي هَوَاهُ مُسَلَّسَلٌ وَإِنْ لَمْ يُوَاصِلْنِي، فَمَوْتِي مُحَقَّقُ

فالشّاعر يبدو هائماً في كاتب كان قد بعث إليه عدداً من الرّسائل آملاً في لقائه، وفي المقطوعة ذاتها يُوظف ألفاظ الكتابة وأدواتها، كالنّسخ والرّقاع والحواشي، وبعضاً من ألفاظ الحديث، كالحديث المسلسل، كاشفاً بذلك عن تبدّل حاله جراء عُجبه وصدّه، واستبداله الوصل بالجفاء والبعد، وقد تركت تلك القطيعة آثاراً سيئة في نفس الشّاعر، فبدا حزيناً كثيراً كاسف البال، وقد عبّر عن يأسه من رجوعه إليه، وهذا بدوره يُعجّل في موته.

وقال في وصف عطار⁽³⁾: [السريع]

أَفْدِيهِ عَطَّاراً زَكِيَّ الشَّنَا مِنْ حُسْنِهِ أَيْنَ الظُّبَاءِ الحِسَانُ
فِي خَدِّهِ الوَرْدُ المُرَبِّي وَفِي مَبْسِمِهِ الدُّرِّيُّ مَاءُ اللُّسَانُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 170.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 173.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 213.

تكشف المقطوعة عن إعجاب الشاعر بهذا العطار الذي يفوق الحسان جمالاً برائحته الشدّية،

وخذه المتورّد، ومبسمه الدرّي.

وله في وصف حدّاد⁽¹⁾: [الرجز]

أفديه حدّاداً بديع الحُسنِ كم من ظبيّة صاد بكلبتيّه
تعلّم الحديد من قواميه أما تراه الآن في يديه

فهذا الحدّاد ذو حُسن فائق يصيد قلوب الطّباء الحسان بكلبتيه (وهي الآلة التي يمسك بها

الحديد)، وسرعان ما يلتفت إلى قوامه المشوق المستقيم، وعلى عجب في ذلك فكأنّه حديد قد طوّعه وأقامه بيديه، فاستقام على نحو ما أراد.

4. الغزل بالأسماء

نحا ابن حبيب منحىً جديداً في الوصف، فنظم مقطوعاتٍ خاصّة في أسماء الغلمان والجواري، وقد

شكّل هذا اللون ظاهرة بارزة في شعره، فأورد أربعين مقطوعة في وصف الأسماء.

تأمل معي قوله في مليح اسمه رجب⁽²⁾: [الطويل]

دموعي ربيع، والرُقّاد مُحَرَّم على جفن عينك مُذ هجرت بلا سبب
وفي القلب من شعبان نيرانُ نصفه فجد لي بما أرجو من الموصلِ يا رجب

أجاد الشاعر في التّعبير عن مشاعره حينما أبصره، من خلال التّوجيه بأسماء الأشهر العربيّة

(ربيع، محرّم، شعبان، رجب)، وقد كشف هذا التّوجيه عمّا آلت إليه حاله حينما ابتعد عنه دون سبب،

فأخذ يذرف الدُموع، ولم يذق للنّوم طعمًا، واكتوى قلبه بنار اللّوعة والفراق، وطلب منه أن يصله ويدع

الهجران والقطيعة.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 230.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 54.

وقال فيمن اسمها سالحة⁽¹⁾: [الكامل]

قُلْنَا لَصَالِحَةٍ: عَلامَ نَأيتِ عَن
قَوْمِ جَوَانِحُهُمْ لَنحوكَ جَانَحَةٌ
قَالَتْ: لِأَنِّي زُرْتُهُمْ وَخَبَرْتُهُمْ
فَرَأَيْتُهُمْ لَا يَصِلُونَ لَصَالِحَةٍ

يكشف الأسلوب الحواريّ الذي أجراه الشّاعر على لسان سالحة وردّها على مُحبّيها عن قدرة الشّاعر في توظيف الاسم ودلالته، فهؤلاء القوم وإن جنحوا إليها، غير أنّها نأت عنهم بعيداً، لمّا جرّبتهم وخبرتهم، فوجدت أنّهم لا يصلحون لها.

وله في مليحة اسمها قمر⁽²⁾: [الكامل]

قَمْرًا يُسَمُّونَ المَحْجَبَةَ التّي
لَمَّا تَزَايَدَ حُسْنُهَا وَعَلَّتْ مَنَّا
تَذَكَرُهَا قَلْبَ المَتَمِّمِ قَدِ عَمَرَ
زَلَّهَا وَعَمَرَ وَصَالَهَا، قَالُوا: قَمَرٌ

فالشّاعر -هنا- يعقد مقارنة بين القمر والفتاة التي اسمها قمر، وقد بدت الأخيرة محتجبة دون أن ترفع السّتر عن وجهها، وهذا ما أشعل قلبه بتذكارها، وسرعان ما أخذ حسننها يتزايد، ومنزلتها تعلو وترتفع كما القمر، فلمّا عزّ عليها الوصل إليها، جاء الجواب مفاجئاً، فهي قمر، والقمر بعيد المنال، والوصول إليه صعب.

وله في مليح اسمهُ رمضان⁽³⁾: [الطويل]

لَكُمْ رَمَضَانُ بَاهِرُ الحُسْنِ كَامِلٌ
نُصُومٌ بِهِ عَن كُلِّ قَوْلٍ يَعْيبُهُ
بِعَرَفِ شَذَاهُ حَيْثُ حَلٌّ يُعْطَرُ
وَفِي حُبِّهِ مِنَّا القُلُوبُ تُفْطَرُ

يقرن الشّاعر بين شهر رمضان والمليح المُسمّى رمضان، فالثنائي كامل الحُسن والصفّات، عبق رائحته يُعطّر الأرجاء، وقد أجاد الشّاعر في الرّبط بينهما، فحينما يحل شهر رمضان تتعطر الآفاق، وتفرح النفوس فرحاً بقدومه، وتترفع الألسن عن الحديث بالفحش أو العيب، وهذا ينسحب على

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 87.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 106.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 121.

الفتى المليح رمضان فلا شيء يعيبه أيضا، وفي حبه تتفطر القلوب كما تتفطر قلوب الصائمين في رمضان.

ومن أجمل مقطوعاته قوله فيمن اسمه إبراهيم⁽¹⁾: [الطويل]

سبا البدر إبراهيم حين بداه له وأجبل أغصان النقا إذ ثنا عطفًا
لعمري لقد وفي الملاحه حقهها وليس لإبراهيم بدع إذا وفي

ففي إبراهيم من الصفات ما يخجل الغصون إذا ما تمايلت وانثنت، وفيه من الحسن والملاحه الشيء الكثير، لا بل جمع الملاحه والحسن معًا، وهذا ليس بدعًا فإبراهيم قد اجتمعت فيه حسنه جميع الأوصاف والصفات.

وما أطف قوله في مليح اسمه شاهين⁽²⁾: [الطويل]

فُتِنْتُ بِشَاهِينَ أُدَارِي نَفَارَهُ عَسَاهُ إِلَى وَكْرِي يَطِيرُ وَيَأْلَفُ
لَنْ يَخْطَفَ الْقَلْبَ الْمُعْلَقَ فِي الْهَوَى بِلُفْيَاهُ، فَالشَّاهِينَ لِلْقَلْبِ يَخْطَفُ

تبدو المقاربة واضحة بين الصقر والمليح المسمى "شاهين"، فالشاعر يتمنى منه وصلًا ولقاءً، فيقابل به بالصدِّ والنفور، وهو مع ذلك يُداريه ويسايره، لا لشيء إلا لأنه خطف قلبه وطار به بعيدًا، ولا عجب في هذا فمن سمات الصقر الخطف والطيران بعيدًا.

ومن بديع قوله في مليحة اسمها روضة⁽³⁾: [الرجز]

أَحْسِنُ بِهَا مِنْ رَوْضَةٍ إِنْسِيَّةٍ تُهْدِي الشَّاذَا حُلَّتْهَا الْأَنْيَقَةَ
غَنَى عَلَيْهَا الْحَلَى، فَاسْمَعْ وَابْتَهَجْ بِالرَّوْضَةِ الْغَنَّا عَلَى الْحَقِيقَةَ

يكشف الوصف عن براعة فائقة لدى الشاعر في أن يكون الاسم موافقًا للموصوف، مشتملًا على صفاته، فهذه الروضة إنسيّة على الحقيقة، وقد اجتمع فيها من الصفات ما اجتمع في الروضة الطبيعيّة، فبدت لابسة حلة أنيقة موشاة بألوان الزهور، وقد أضفى الشاعر على الوصف صورة سمعيّة

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 164.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 165.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 171.

تطرب بها الآذان من خلال صوت حليّها وخلخالها حينما تمشي، فتسمع خشخشة تطرب، ومظاهر هذا الابتهاج نجدها مجسّمة في شخصها، على نحو المباهج التي تُسرّ بسماعها النفوس، وتعجب بها الأنظار في رياض الطبيعة.

وله في مليحة اسمها مرحبا⁽¹⁾: [السريع]

للهِ خَوْدٌ عِطْفُهَا لَيِّنٌ عن عاشقٍ لا تمنعُ الوَصْلَا
لما أتتْ لَيْلاً إلى منزلي قلتُ لها: يا مَرْحَباً أهلاً

فهذه المليحة ذات عنق ليين تمليه على عاشقها، ولا تمنع وصله ولقائه، ولما قصدت بيته زائرة، استقبلها بترحاب كبير، مُتخذاً من اسمها أجمل عبارات الترحيب.

5. وصف الألقاب

شغل وصف الألقاب حيزاً كبيراً من شعر ابن حبيب، فورد في شعره المجموع وديوانه "الشذور"

إحدى وثمانون مقطوعة في تبيان صفات الألقاب.

ومن ذلك قوله في مليح أمير⁽²⁾: [السريع]

أفدي أميراً عادلاً مالَهُ في الحُسنِ والإحسانِ عندي نظيرُ
لما رآني في الهوى طالباً للمير منه قال: إني أميرُ

فهذا الأمير عادل في أحكامه، مليح في صفاته، محسن كل الإحسان، وفيه من الحُسن ما له نظير، فلما طلب منه أن يكون أميره في الهوى، أجاب معتذراً بأنه لا يقدر أن يتخذ من لقبه إمارة ثانية، وإنما يكفيه أن يكون أميراً فحسب.

وله في مليح جندي⁽³⁾: [الكامل]

ذُرْ حَمَلٌ سَيْفِكَ وَالسَّهَامِ وَقوسِهَا منها بوجهك للعدي أصنافُ
وارفقْ بخصرك لا تُثَقِّلْ حَمْلَهُ يكفيه ما فعأت به الأردافُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 186.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 106.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 164.

فالشاعر يطلب منه أن يترفق في حمل السيف والسهم والقيسي، ولا داعي لأن يحمل السلاح البتة، ففي وجهه جميع الأسلحة، فإذا ما رام الدفاع عن نفسه استل سيفاً من لحاظه، وإن شاء رشق عدوه بسهم ناظريه. وطلب منه أن يترفق فيما يحمل من متاع، فيكفيه الردف الذي يحمل خصره النحيل.

وقال في حاجب⁽¹⁾: [الكامل]

يا حاجب العشاق رفقا بالورى لك ناظر يقضي بغير الواجب
لا تعجبوا لجنون مثلي في الهوى إني أصبت بعين هذا الحاجب
يطلب الشاعر من ذلك الحاجب أن يرفق بالناس؛ لأن ناظره يقضي بغير ما هو موضوع له، وهذا ما يسبب الجنون لدى الناظرين، وما من شك في أنه يصيب بالعين من شدة جمال عينيه الساحرتين.

وله في قاض⁽²⁾: [السريع]

يا مَنْ عَدَتْ فِي الْحُبِّ أَحْكَامُهُ مُبْرَمَةً لَا يَعْتَرِيهَا انْتِقَاضُ
طَوْعًا أَتَاكَ الصَّبُّ فَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ عَلَيْهِ وَأَفْضِ مَا أَنْتَ قَاضُ

أجاد الشاعر في الوصف من خلال توظيف الآية الكريمة ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾⁽³⁾، في إشارة منه إلى أحكام القاضي الفاطمة التي لا يمكن نقضها، وقد جاء إليه المحبوب طوعاً ليحكم في أمره، معلناً أنه سيكون راضياً بقضائه وأحكامه.

وما أظرف قوله في حجازي⁽⁴⁾: [الكامل]

أَهْوَى حِجَازِيًّا مَحَاسِنُ وَجْهِهِ فِيهَا النَّقَا وَبِهَا الْعَقِيْقُ الْفَائِقُ
وَالْتَعَرُّ مِنْهُ وَلِيْتَيْي لَوْ كُنْتُ مِنْ وَرَادِهِ فِيهِ الْعُدَيْبُ وَبَارِقُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 65.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 148.

(3) سورة طه، الآية (72).

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 172.

أجاد الشّاعر في توظيف المكان للتعبير عن حُبّه لذلك الحجازي، ففي وجهه الطُّهر والنِّقاء، وفي خديّه بريق الجواهر المُستمدّ من حجر عقيق، وثغره العذب مستوحى من بارق والعذيب.

وما أطف قوله في زائر⁽¹⁾: [مجزوء الكامل]

لما أتى المحبّوب نحـ وي زائراً تحت الغسق
ولّى الدّجى غيظاً وغا ر النّجم، والصُّبح انفلق

تكشف المقطوعة عن جمال ذلك الزائر الأسر حينما جاءه زائراً ليلاً، فولّى اللّيل هارباً مذعوراً من حسنه، وقد أبدى غيظاً وحنقاً لذلك، وكذلك النُّجوم غارت وذهبت، والصُّبح هو الآخر ليس بأحسن حالاً منها، فانفلق وظهر.

6. وصف الجوّاري

شكّل وصف الجوّاري ظاهرة بارزة لدى ابن حبيب، فأورد إحدى وعشرين مقطوعة في وصفه، وأغلب أوصاف الجوّاري كانت في الأسماء، وقد عرضت الباحثة صفحاً عن ذكرها في هذا المقام تجنّباً للتكرار، وقد اختارت أن تعرض لنماذج أخرى منها في وصف الجوّاري. ومن ذلك قوله في مخضوبة⁽²⁾: [المنسرح]

أفدي خضاباً بكفّ غانيةٍ تسبي أهيل الهوى وتشتأب
حمرته من دماء من قتلت والدّم في الكفّ شاهد عجب⁽³⁾

فقد سبت هذه الجارية عقول النّاظرين من فرط جمالها، وبدا الشّاعر معجباً بجمال خضابها لمّا رآها، مستمداً لون خضابها من دماء من قتلت، والشّاهد العجب على ذلك أنّ كفيها مخضوبتان بالحناء التي استمدت لونها الأحمر من الدّماء.

وقال فيها مقطوعة أخرى⁽⁴⁾: [الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 171.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 60.

(3) ابن الرومي، الديوان 404/1 وفيه: "فتكت".

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 210.

قال الخبير بحالها لما أتت مخضوية القدمين لون العندم
ليس اليرنا ما ترون وإنما قتلت محبيها وخاضت في الدّم

يصوّر الشّاعر حال الجارية لمّا جاءت وقد خضّبت قدميها بالصّبغ الأحمر على لسان خبير
عالم بحالها، مشيراً إلى أنّ لون الحنّاء الأحمر ليس على الحقيقة، وإنّما استعارت لون خضبيها من
دماء من قتلت حينما خاضت في دمائهم.

وقال في بدوية⁽¹⁾: [الطويل]

وبي من بنات العرب هيفاء قدّها متى لاح أخفى الغصن في الورق الخضر
إذا قال منها الطّرف يا كنانة يقول منادي خدها يا بني النضر
تكشف المقطوعة عن حبّ الشّاعر للجواري العربيّات بخلاف الآخرين الذين يفضلون التّركيّات
والرّوميّات اللّاتي ظهرن وبكثرة في المجتمع المملوكي، وهو بدوره يشير إلى قوامها الذي يبدو كغصن
ناضر، وطرفها المستمد من قبيلة كنانة، وخدّها المستعار من قبيلة بني النّضر.

ومن بديع قوله في جارية زائرة عندما جادت بوصلٍ دون أن تحسب حساباً لأحد، وكان
الشّاعر في زيارة لبعض إخوانه، وقد سار إليه في ليلة غاب فيها بدر السّماء، فلمّا وصل والتحق بزمرة
الحاضرين، أقبلت جارية من الحسان، تخبّ الألباب، إذ قلّ مثالها، ويسحر الطّرف من روض
جمالها. فسرعان ما رحّب بها الشّاعر فرحاً بقدميها، وقد كشف لسان الحال عن إعجابه بجمال وجهها
الوضّاء الذي بدّد عتمة اللّيل، فبدت كالصّبّاح الذي أقبل ليمحو اللّيل ويبدّد ظلامه وعتمته. قال⁽²⁾:

[البسيط]

أهلاً وسهلاً بها من عادة سمحت بالوصل ليلاً ولم تحذر من الحرس
لما تبدت أضاً الدّاجي ولا عجب بطرة الصبح تمحي آية الغلس

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 129.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 140.

الفصل الثَّاني

الدِّراسة الفنِّيَّة لشعر ابن حبيب الحلبّي

أولًا : اللُّغة

ثانيًا: الأسلوب

ثالثًا: الصُّورة الشعريَّة

رابعًا: الموسيقى

1- اللُّغة

النَّاطِرُ إِلَى لُغَةِ الشُّعْرِ فِي الْعَصْرِ التُّرْكِيِّ يَجِدُ أَنَّهَا ذَاتُ مَسْتَوِيَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَلَمْ تَكُنْ تَجْرِي عَلَى مَسْتَوَى وَاحِدٍ، وَهَذَا كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى اخْتِلَافِ الْمَسْتَوَى اللُّغَوِيِّ الْخَاصِّ بِالشُّعْرَاءِ، يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ تَغْيِيرُ مَسْتَوَى اللُّغَةِ فِي شِعْرِ الْكُتَّابِ، أَوْ الْفُقَهَاءِ، أَوْ الْعُلَمَاءِ، أَوْ الْحَرْفِيِّينَ الَّذِينَ نَظَمُوا شِعْرًا لَا يَرِقُّ إِلَى مَسْتَوَى الشُّعْرِيَّةِ؛ وَلِذَا نَجِدُ اللُّغَةَ الْفَصْحَى تَضَمُّلًا، لِتَسْوِدِ مَكَانَهَا لُغَةً أَكْثَرَ يَسْرًا وَسَهُولَةً وَهِيَ مَزِيجٌ مِنَ الْفَصْحَى وَالْعَامِيَّةِ السَّائِدَةِ، بِالْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْكُتَّابِ حَاطُوا الْإِحْتِفَاطَ بِلُغَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْفَصْحَى قَدْرَ الْإِمْكَانِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْإِفْلَاتَ مِنْ سَيْطَرَةِ اللُّغَةِ السَّائِدَةِ، رَغْبَةً فِي مُجَارَاةِ الدُّوقِ الْعَامِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَحَتَّى تَلْقَى أَشْعَارَهُمْ رَوَاجًا وَانْتِشَارًا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى⁽¹⁾.

وَقَدْ اتَّسَمَتِ لُغَةُ الشُّعْرِ فِي عَصْرِ ابْنِ حَبِيبٍ بِالْمَيْلِ الْمَفْرَطِ إِلَى السُّهُولَةِ، وَخَلَّتْ مِنْ غَرِيبِ اللُّغَةِ الَّذِي طَغَى عَلَى الشُّعْرِ الرَّصِينِ الْمَتِينِ فِي عَصْرِ الْأَدبِ الزَّاهِرَةِ، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْأَلْفَافِ الْغَرِيبَةَ تُكْسِبُ الشُّعْرَ رَوْنَفًا وَبِهَاءً وَبِهَجَةً مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ⁽²⁾. وَقَدْ عَزَا بِأَحْتِ مُحَدِّثِ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ إِلَى حَيَاةِ الشُّعْرَاءِ فِي أَوْسَاطِ الْعَامَّةِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ: "لَقَدْ تَوَخَّى شِعْرَاءُ مِصْرَ فِي تِلْكَ الْحَقَبَةِ الَّتِي تُورِخُ لَهَا، السُّهُولَةَ فِي أَكْثَرِ مَا نَظَمُوهُ. اخْتَارُوا اللَّفْظَ السَّهْلَ الْعَذْبَ الرَّقِيقَ، وَالْأَسَالِيبَ الْمُسْتَسَاغَةَ، وَالتَّرَاكِيِبَ السَّمْحَةَ، وَابْتَعَدُوا عَنِ الْأَلْفَافِ الْغَرِيبَةِ وَالْجُمَلِ وَالْعِبَارَاتِ الْقَوِيَّةِ، وَرَبَّمَا تَرَجَعُ هَذِهِ السُّهُولَةُ إِلَى حَيَاةِ الشُّعْرَاءِ فِي أَوْسَاطِ الْعَامَّةِ"⁽³⁾.

وَقَدْ عَزَا الْأَدبُ الشُّعْبِيُّ الْأَدبُ الْفَصِيحَ، فَأَثَّرَ فِيهِ وَمَالَ بِهِ نَحْوَهُ، وَصَارَ أَدْبَاءُ الْفَصْحَى يَقْلُدُونَ أَدْبَاءَ الْعَامِيَّةِ فِي اللَّفْظِ وَالْأَسْلُوبِ وَبَعْضَ التَّعْبِيرَاتِ السَّائِرَةِ، بَلْ وَفِي الْخَيَالَاتِ وَالصُّوَرِ، وَمِمَّنْ تَأَثَّرَ

(1) ينظر: محمد زغول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 80/3-81.

(2) ينظر: محمد كامل الفقي، الأدب العربي في العصر المملوكي، ص 137.

(3) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 377/8.

بهذا كثير من أدباء العصر⁽¹⁾. ولم يكن ابن حبيب بمنأى من هذا التأثير. غير أن هذا الشيء امتد إلى شعره على نحو أقل، فقد نظم عددا من المقطوعات على طريقة الدوبيت، وهو "نظم قريب من النظم الشعبي لا يغتفر فيه اللحن"⁽²⁾، وقد سمي بذلك "لأن غالب ما ينظم على وزنه إنما هو بيتان اثنان فقط"⁽³⁾ وهو لا يجرى في وزنه على البحور المعروفة في الشعر العربي، ونلاحظ أن الدوبيت في الأكثر بل في الأغلب يأتي على شكل أربعة أشطار منها ثلاثة على قافية واحدة والشطر الثالث ليس مصرعا معها⁽⁴⁾. وقد استخدم ابن حبيب في الدوبيت هذا الشكل في اثنتين من مقطوعاته البالغة أربعاً، والمقطوعتين الأخيرين جاءتا بأربع قواف كالمواليا.

ومن الأمثلة على النوع الأول قوله⁽⁵⁾: [دوبيت]

الوقت صفاءً، وراقبت الصهباءُ والحبُّ رقاً، وزارت الحسناءُ
ما عُذركَ يا نديمٌ فمُ نَشْرِبُهَا ها قد هتفتُ في الورقِ الورقاءُ
أما النوع الثاني فمثاله⁽⁶⁾: [دوبيت]

من بعد جفاك في الهوى يا رياً لم يلقَ فؤادي من ظمأه رياً
ما ضرَّكَ لو وافيتَ ميئاً حياً أو كان له طيفُك ليلاً حياً

وبما أن ابن حبيب أحد شعراء العصر، فإننا نجد السهولة تغلب على لغته الشعرية، ويلاحظ

استخدامه تعبيرات وأمثال شعبية شائعة بين أوساط الناس، ومما نعثر عليه في ثنايا مقطوعاته قوله⁽⁷⁾:

[السريع]

وتاجرٍ حلو الحلاي على رشفِ الطلّ من لحظه زاخرُ
من لي بأن أشربها قائلاً هذا على عينك يا تاجرُ

(1) زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 301/1-302.

(2) زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 302/1.

(3) أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، ص 139.

(4) زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 326/1-327.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 52.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 231.

(7) ابن حبيب، ديوانه، ص 122.

فالتعبير "على عينك يا تاجر" من الأمثال الشعبية الدارجة عند عامة الناس، إلى يومنا هذا.

ومن ذلك قوله⁽¹⁾: [الوافر]

غرامي فيك قد أمسى غريمي وهجرتك والتجني مُستطابُ
وبلواني ملأك لا لذنبٍ وقولك ساعة التسليم طابو

"قولك طابو" من الأمثال الشعبية لدى العامة.

ومن ذلك استعماله تعبير "النفس خضرا" في قوله في صفة معذّر⁽²⁾: [الخفيف]

يا عدولي دعني وخفف ملامي في عذاركم خط من قدرٍ عذرا
إن نفسي تميل نحو اخضرارٍ فيه، والنفس مثل ما قيل خضرا

وكذلك استخدامه تعبير "نسيت جميلي"، في قوله يصف مليحة كحالة⁽³⁾: [الوافر]

لنا كحالة، قال المعنى بجملتها لقد نسيت جميلي
وصيرت البكا والسهد كحلي وقالت للمسرة: عنه ميلي

ومن ذلك استعماله التعبير الشعبيّ أو المثل "لا حس ولا خبر" في قوله⁽⁴⁾: [الطويل]

لذيذ الكرى عن جفن عيني محرم وطائر وجدي في الجوانح قد صفر
وكم من ربيع قد قطعت، وما أتى لوصلك يا شعبان حس، ولا خبر

كذلك استخدامه للتعبير العامي (خليه ينفلق) بقوله⁽⁵⁾: [المنسرح]

قيل لي الصبح من بثنيتم يحسد وجهها سناه يتألق
فقلت خلوه ضمن مشرقه ينشق من غيظه وينفلق

والى جانب الألفاظ العامية نجد عنده الألفاظ الأعجمية، مثل: بهرم، هيزري، دست، فيروزج،

وبعض الألفاظ المولدة، مثل: البطّة، وهي وعاء يوضع فيه الشراب. ومن الأمثلة على ذلك قوله⁽⁶⁾:

[مجزوء الرجز]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 61.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 115.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 193.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 264.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 264.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 64-65.

عِذَارُهُ إِلَى ذُبَابِ السَّيْفِ مِنْ الْحَاطِظِهِ أَصْبَحَ ذَا انْتِسَابِ
وَبَهْرَمًا وَاخْدُهُ مَجَاوِرٌ لِدُرٍّ فِيهِ الرُّطْبُ بِالرُّضَابِ
فَاسْتَجَلَ وَجْهًا مِنْهُ ضَمَّ الدُّرَّ وَالـ يَاقُوتَ وَالزُّمُرَدَ وَالذُّبَابِي

وقوله⁽¹⁾: [السريع]

عَايَنَتِ البَطْطَةَ رَاوِقَتَا فِي مَجَاسِ خُفٍّ بَعْرِفِ ذَكِي
قَالَتْ لَهُ: قَدْ زِدْتَ كَمْ ذَا البِكََا فَقَالَ: لَوْ لَمْ أَبْكَ لَمْ تَضْحَكِي

الضَّرُورَاتِ الشَّعْرِيَّة:

لا بدَّ من الإشارة إلى الممكنات التي أُبيح للشاعر استخدامها دون غيره، والتي أطلقوا عليها اسم الضَّرَائِرِ، أو الضَّرُورَاتِ الشَّعْرِيَّةِ، كصرف الممنوع من الصَّرْفِ، ومد المقصور، وقصر الممدود⁽²⁾.

ومن الضَّرُورَاتِ التي لجأ إليها ابن حبيب قصر الممدود، كما في قوله⁽³⁾: [السريع]

لَمْ أَنْسَ قَوْلَ الخَلِّ، وَالخَلُّ يَرَى بِأَنْفِهِ خُوفَ فَنَاءِ غَلَبَا
إِنَّ الوِبَا فِي حَلْبِ أَضْحَى لَهُ عَلَى الوَرَى كَافٌ وَرَا، قَلْتُ: وَبَا

فجاء بكلمة (الوبا) بدل (الوباء).

وقوله (للبكا) و(الدُّعَا) بدل (للبياء) و(الدُّعَاء) في قوله⁽⁴⁾: [مجزوء الكامل]

وَطَوَّافٌ بِيْتِ لِلبُكََا سَعَادَةٌ مِنْ بِهِ حَلَّ الخَبَا
فَرِحَتْ دَمَشِقٌ بِقُرْبِ غِيَا بَثٍ لَيْسَ يَبِيحُ صَيِّبَا
وَالنَّاسُ يَهْدُونَ الدُّعَا وَمُشَرِّقًا وَمُعَرِّبَا
دَامَتْ لَهُ العَلِيَاءُ مَا هَبَّتْ تُسَيِّمَاتُ الصَّبَا

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 274.

(2) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص 12.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 56.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 56.

ومن ذلك أيضًا قوله⁽¹⁾: [الطويل]

ولي كاتبٌ كم من رِقاعٍ بَعَثُهَا
فوقَع لي أن ينسخ الوصلَ بالجفا
بروحي أفدي منه خدًا مُورَدًا
حديثٌ غرامي في هواه مُسَلَّسَلٌ
إليه عَسَاهُ باللقا يُتَصَدَّقُ
وأنَّ أسيرَ الدمعِ في الحُبِّ مُطَلَّقُ
حواشيه ریحانٌ بديعٌ مُنَمَّقُ
وإن لم يواصِلني، فموتي مُحَقَّقُ

فأتى بكلمتي (اللقا، الجفا) بدل (اللقاء، الجفاء).

وقوله في مليحة اسمها أسماء⁽²⁾: [الكامل]

لَمَّا إلى أسما شكوتُ نأتُ
هجرٌ وقطعٌ مُرتَّبٌ ونوى
ومَحَت من اللذاتِ لي رَسَمًا
ما هذه الأفعالُ يا أسما

فقد قصر "أسماء" في البيت الأول، وحذف همزة "أسماء" في البيت الثاني مراعاة للقافية.

وقوله في "السودا" بدل "السوداء" في قوله⁽³⁾: [الطويل]

بروحي كحيلُ المقلتين مُهَفَّهَفٌ
ألا ليس بدعًا أن جُننتُ بعينه
بديع المعاني كم بقلب امرئٍ أودى
وهام فؤادي بالجنون من السَّودَا

ومن الضَّرَائِر التي أكثر منها صرف الممنوع من الصَّرْف، كقوله⁽⁴⁾: [الطويل]

بشِيرُ بنُ سعدٍ نجمٌ سعدك زاهرٌ
إلى غطفانٍ سِرَّت في اليوم طاعةً
وسَهْمُكَ لم يبرح مُعَلَى مُسَدَّدَا
لخيرِ الورى أبشِر بما تشتهي غَدَا

فقد صرف كلمة (غطفان)، وهي ممنوعة من الصَّرْف، ومن ذلك أيضًا صرف (أحمد) في قوله⁽⁵⁾:

هو أحمدُ ربُّ القراءَةِ والقِرى
صَلَّى عليه الله ما طلعَ القَمَرُ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 173.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 201.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 94.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 92.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 109.

ومن ذلك صرفه لكلمة (مكّة) في قوله⁽¹⁾: [المتقارب]

أيا صاحٍ سِرْ بي إلى مكّةٍ
وَحُثَّ المطايا، وخذُ يَمْنَةً
وَأُذْ بالمنازل والأزْبُعِ
إلى ذي العَشِيرَةِ من يَنْبُعِ

وفي قوله أيضاً⁽²⁾: [الرجز]

سارَ أبو قتادةٍ مُمتَثِلاً
في فتيةٍ فاتوا مُريدَ سَبْقِهِمْ
صَلَّى عليه اللهُ ما دامَ على
أوامِرِ الهادي إلى بطنِ إضْمِ
أصحابِ خيرِ العُرْبِ والعجمِ
أنفِ شَمَامٍ عاكفٍ من الشَّمَمِ

فكلمة (قتادة) الأصل أن تمنع من الصّرف فتجرُّ بفتحة عوضاً عن تنوين الكسر، فصرفها وجرّها بتنوين كسر.

وقوله في تنوين ما لا ينصرف:⁽³⁾ [الرجز]

قلتُ: وقد عاينتهُ مع خادمٍ
هل ممكّنٌ منك اللّقا فقال لي:
جهّزْ لنا دراهمًا لنلتقي
يُدْعَى بدينارٍ حفيظٍ حازِمِ
يمكنُ ذا إن غابَ عني خادمي
ونصرفُ الدِّينارَ بالدِّراهِمِ

فقد صرف (دراهماً) وكان حقّها المنع.

وكذلك قوله⁽⁴⁾: [الكامل]

للهِ ما أظلى أصابعَ زِينِيبِ
وجناتها وَرَدِيَّةٌ إنِّي بِهَا
وخضابها فوق اللّجينِ مُشَبَّجًا
دَنَفٌ أرى قولَ العذولِ مُعَلَّكًا

فصرف الاسم "زينب" للضرورة الشعرية، وهو ممنوع من الصّرف.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص159.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص199.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص210.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص179.

2. الأسلوب

بشكل عام يمكن القول إنَّ أساليب الشَّعر تختلف قوَّة وسهولة باختلاف الموضوعات التي يتناولها، ولذا فإنَّ أهمَّ ما يُميِّز أسلوب الشَّعر في هذا العصر بصفة عامَّة هو غلبة السُّهولة عليه، والابتعاد عن القوة والجزالة في معظمه⁽¹⁾. وهذا يقودنا إلى الحديث عن أهمَّ مميِّزات أسلوب الشَّاعر موضوع الدِّراسة.

1. السُّهولة

لعلَّ أوَّل ما يلفت الأنظار هو أنَّ مذهب السُّهولة يغلب على معظم الشَّعر التُّركيِّ، ما عدا القليل منه الذي انَّسَم بالجزالة، ولذا جاءت غالبية الأشعار سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، بعيدة كُلاًَّ البعد عن الغرابة والجزالة⁽²⁾.

وما من شكِّ في أنَّ مذهب السُّهولة انتشر بشكل ملفت للنَّظر وكثر شعراؤه في هذا العصر، والسَّبب في ذلك يعود إلى انتشار العامية، وذيوع الغناء ممَّا أثر على الشَّعر بصفة عامَّة، فضلاً عن جنوح الشُّعراء إلى النُّظم في المقطوعات بعيداً عن القصائد المَطوَّلة، فجاءت أشعارهم قصيرة، خفيفة، سهلة الحفظ، بعيدة عن الغرابة والتَّعقيد⁽³⁾.

2. كثرة المقطَّعات

أبرز مظهر من مظاهر شعر ابن حبيب هو تلك المقطوعات الكثيرة التي تتفاوت في عدد الأبيات، وكانت في غالبيتها تتكوَّن من بيتين، مع وجود مقطوعات أخرى مُكوَّنة من ثلاثة أبيات، أو أربعة، أو خمسة، أو ستَّة. وهذا ما دفعنا إلى تصنيفه ضمن الشُّعراء الذين أكثروا من النُّظم في المقطوعات التي كثرت في شعره كثرة بالغة، بالإشارة إلى أنَّ بعض قصائده انَّسَمت بالطُّول، فوجدنا له

(1) ينظر: عبدة قفيلية، النقد الأدبي في العصر المملوكي، ص283، ومحمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك 380/8.

(2) ينظر: فوزي أمين، أدب العصر المملوكي، ص435، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك 380/8.

(3) ينظر: محمد كامل الفقي، الأدب العربي في العصر المملوكي، ص177.

قصائد تشتمل على واحدٍ وعشرين بيتاً، أو ثلاثة وعشرين بيتاً، وأخرى تسعة وخمسين بيتاً أو ستين، وبعضها وصل إلى سبعة وسبعين بيتاً. وله أرجوزتان الأولى وصلت إلى تسعة وأربعين بيتاً، أمّا الثانية فعدّتها مئة وثلاثة وتسعون بيتاً.

غير أنّ السّمة البارزة في أشعاره كثرة المقطوعات على نحو ما أشرنا آنفاً، وقد أحصت الباحثة له اثنتين وثلاثين قصيدة تزيد عن سبعة أبيات، على اعتبار ما ذكره ابن رشيق في "العمدة" في أنّ الأبيات إذا بلغت سبعة فهي قصيدة⁽¹⁾.

وعليه فإنّ الأشعار التي بين أيدينا تؤكّد مصداق ما نذهب إليه في كونه مشهوراً بكثرة المقطّعات الشعريّة، وهذه الظاهرة موجودة لدى سابقيه من الشعراء أمثال: أبو الحسين الجرّار (ت679هـ)، ومُجير الدّين بن تميم (ت684هـ)، وسراج الدّين الورّاق (ت695هـ)، وهي موجودة كذلك في شعر معاصريه كابن الوردی (ت749هـ)، وصلاح الدّين الصّفدي (ت764هـ).

وعند الحديث عن ظاهرة انتشار المقطّعات في شعر شعراء العصر المملوكي بشكل لافت⁽²⁾، لا بدّ من الإشارة إلى ما ذكره أحمد أمين، فقال: "كان الذي يهتمهم في ذلك النكتة، كالتي نسمعها اليوم، وكلّما وُفق الشاعر إلى النكتة أكثر كان بالشعر أشهر"⁽³⁾.

3. المُحسّنات البديعيّة

من الخصائص الأسلوبية لدى شعراء العصر المملوكي كثرة استخدام المُحسّنات البديعيّة، إذ طغت بشكل كبير على شعر الشعراء، فوظّفوا ألواناً عدّة منها كالجناس والطّباق والتّضمين والافتباس والتورية والمقابلة، وغيرها⁽⁴⁾.

(1) أحمد أمين، ظهر الإسلام، 302/4.

(2) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 492/8.

(3) ابن رشيق، العمدة، 188/1.

(4) محمد كامل الفقي، الأدب العربي في العصر المملوكي، ص139.

ومن الفنون التي وظّفها ابن حبيب في شعره:

أ) التّضمين:

وهو قصدك إلى البيت من الشّعر أو القسم فتأتي به في آخر شعرك أو أوسطه⁽¹⁾. أو هو أن يودع الشّاعر في شعره بعض ما يستملحه من شعر غيره بيتًا تامًا، أو نصفه، أو ريعه، بعد أن يُمهّد له بروابط متلائمة تجعله منسجمًا مع ما قبله وما بعده، وأحسن التّضمين ما صرف البيت عن معناه الأصليّ ليلتئم المعنى الجديد، خاصّة إذا كان المعنى في غرض جديد غير الغرض الذي وضع لأجله، ويجوز عكس البيت المُضمّن بأن يجعل عجزه صدرًا وصدرة عجزًا⁽²⁾.

ويظهر من خلال شعر ابن حبيب أنّه كان مُولعًا بالتّضمين أسوة بشعراء العصر الذين شغفوا به كثيرًا، واستخدموه على نحو واسع في أشعارهم، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على دراية بالشّعر القديم في مختلف عصور الأدب الزّاهرة، فكان يتقلّل كالنّحلة من زهرة لأخرى منتشّفاً رحيقها، ويعمل على إيداعها في حديقة أشعاره، ومن الشّعراء الذين ضمّن ابن حبيب من أشعارهم: المتنبي، والوواء الدّمشقي، والعرجي، وعنترة، والعكوك، وابن المعتزّ، وسُحيم بن وثيل، وابن مقاتل، وابن سناء الملّك، وغيرهم.

وكان الشّاعر يختار أجمل التّضمين وأحسنه، دون أن يصرّفه عن معناه الأصليّ في أغلب الأحيان. ومن الأمثلة على ذلك قوله في إحدى مُقدّمات قصائده الغزليّة⁽³⁾: [الكامل]

ومعاصم فضّية مخضوبة	(سال النّصارُ بها، وقام الماء)
هيفُ الغصون تعلّمت من ميلها	وتعلّمت من نوحى الورقاء
ليل الذوائب زان صبح جبينها	(وبضدّها تتبين الأشياء)
لا تنكروا ولهي بها وتجنّفي	لم لا أجنّ، وعينها سوداء
يا غادة تمحي الظلام بنورها	زوري فتى أودت به البرحاء
وتعطفني ليلاً، ولا تخشي فقد	(أمن أديارك في الدجى الرّقباء)

(1) انظر: ابن رشيّق، العمدة 84/2.

(2) انظر: ابن حجّة، خزنة الأدب 311/2 وقد أوردته تحت مُسمّى الإيداع، وعمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشّام ص700.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص51.

فهي مضمّنة من قصيدة المتنبّي في مدح أبي عليّ هارون بن عبد العزيز الأوراجيّ الكاتب،
والتي استهلّها بمقدّمة غزليّة(1):

وكذا الكريم أقام ببأدّة سال النضارُ بها، وقام الماء
ونديمهم وبهم عرفنا فضله ويضدّها تتبينُ الأشياء
أمن أزيدارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء

وقد يُضمّن ابن حبيب أشعاره بيتاً كاملاً، ويُغيّر بعضاً من كلماته، كما في قوله في خضاب

غانية(2): [المنسرح]

أفدي خضاباً بكفّ غانية تُسبّي أهيل الهوى وتُسْتَلَبُ
حمرته من دماء من قتلت والدم في الكفّ شاهد عجب

البيت الثاني مضمّن من قصيدة لابن المعتزّ، غير أنّه استطاع أن يصرفه عن الغرض الذي
وضع فيه، ويضعه في قالب يلائم المعنى الجديد الذي أراده، فابن المعتزّ يتحدّث عن ممدوحه الذي
اشتكى حمرةً في عينيه، مُستخدماً حسن التعليل في تبيان علّة ذلك على جهة الاستطراف، فقال(3):

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم: من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من فتكت والدم في النصل شاهد عجب

ومهما يكن من أمر فإن ابن حبيب استطاع بمهارته أن ينقل البيت المضمّن من معنّى يتحدّث
عن العين وما أصابها، إلى بيت يصف لنا فيه خضاب الغانية الشّدِيد الاحمرار، موظّفاً حسن التعليل
نفسه حينما ادّعى علّة حمرة الخضاب لغير العلّة الحقيقيّة للون على جهة الاستطراف.

ومن جميل إشاراته في نقل معاني الأبيات المضمّنة من غرض إلى آخر، إشارته اللطيفة في

رثائه لصديقه شهاب الدّين العنّابيّ (ت776هـ) بقوله(4): [الكامل]

(1) المتنبّي، الديوان، ص119.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص60.

(3) ابن المعتزّ، الديوان 211/3 رقم (16).

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص65.

إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَمْ تَزَلْ قَتَالَةً أَهْلُ الْحَيَاةِ بِأَسْنَهُمُ الْأَسْلَابِ
بِكُؤُوسِهَا صِرْفًا سَقَتْ وَرَدَ الشَّرَى وَبِنَابِهَا عَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ

فإشارته اللطيفة هذه جاءت موافقة لاسم المراثي من ناحية، وفيها إشارة إلى بيت الوأواء

الدمشقي المشهور في وصف محبوبته الباكية، فقال (1):

وَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَزِدًا، وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

وأحيانًا لا يصرف ابن حبيب الشطر المضمن عن غرضه الأصلي، تأمل معي قوله مادحًا

القرطاء (2): [الكامل]

يَمُّمُ خِلَالَ بَنِي كِلَابٍ مُنْجِدًا وَاسْأَلْ عَنِ الْقُرْطَاءِ وَالضَّحَاكِ (3)
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّهُ جَزَلَ الْعِدَاةَ بِسَيْفِهِ الْفَتَّاكِ

ففي بيته الثاني تضمين الشطر الأول من بيت عنتر (4):

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنْتِي أَغْشَى الْوَعَى وَأَعَفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

ب) التورية

"ويقال لها الإيهام والتوجيه والتخيير، وهي أن يذكر المتكلم لفظًا مفردًا له معنيان حقيقيان، أو حقيقة

ومجاز، أحدهما قريب، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم

المعنى البعيد، ويؤري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك" (5).

لابن حبيب تورية في غاية الطرافة، كتف فيها وصف صورة الخال الذي يُزِين ثغر فتاة حسناء

بقوله (6) [الكامل]

(1) الوأواء الدمشقي، ديوانه، ص 84.

(2) ابن حبيب، ديوانه، 181.

(3) القرطاء: من ولد أبي بكر بن كلاب. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 252.

(4) عنتر، الديوان، ص 209.

(5) ابن حجة، خزنة الأدب، 39/2.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 184.

خَوْدُ لَهَا خَالَ يَلُوْدُ بِثَغْرِهَا مَلَأَ الْقُلُوبَ هَوَىً وَغَيَّرَ حَالَهَا
إِنَّ الَّذِي بَيْنَ الْغَوَانِي عَمَّهَا بِالْحُسْنِ خَصَّ بِلِثْمٍ فِيهَا خَالَهَا

فهذه تورية لطيفة منه في وصف الخال الذي يسبى القلوب بجمال منظره وحسن موقعه، وسرّ الجمال في قوله "خالي"، فمعناه القريب "الخال" وهو شقيق الأم، وهو غير المقصود وقد مهّد له بوجود القرينة اللّفظيّة "عمّي"، وإنّما أراد المعنى البعيد وهو الخال الذي يتربّع على شفتها. وجانس كذلك بين (حالتها) و (خالها).

وتأمّل معي قوله في وصف فتى ذي عينين سوداوين⁽¹⁾: [الطويل]

بروحي كحيل المقلتين مُهْفَهَفٌ بديع المعاني كم بقلب امرئ أودى
ألا ليس بدعاً أن جُنْتُ بعينه وهام فوادي بالجنون من السّودا

أراد الشّاعر أن يقول إنّه جنّ في هوى هذا الغلام الأسود العينين، وأنّ جنونه لا دواء له فقد أذهب عقله، فربط بين العلاج من مرض الجنون وحبّه، بإيضاحه أنّ مرضه وجنونه نتيجة تغلّب السّوداء عليه، والسّوداء هي إحدى عناصر تركيب الإنسان - كما يظنّون إلى جانب الصّفراء والحمراء - وهي التي تُشكّل طبائع البشر، فإذا غلبت على إنسان السّوداء، أصيب بالجنون، وهذا ما يفهم من الكلمة لأوّل وهلة، ولكنّه لا يقصد ذلك، وإنّما قصد غلبة حبّ هذا الغلام على نفسه، فوزى بكلمة السّوداء، ليظهر عمق تعلقه به.

وقوله في مشتغلٍ بعلم النّحو⁽²⁾: [المجتث]

هذا الذي عادَ مُعَرِّى بالنّحو من بعد لَهْوِهِ
يَـوْدُ قَلْبُ الْمُعَنَّى لو طارَ شَوْقًا لِنَحْوِهِ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص94.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص229.

فالشاعر-هنا- أجاد في توظيف التورية التي أظهر من خلالها شغفه بذلك الفتى الذي أحبّه،
وعبر عن تعلّقه به، إذ إنَّ قلبه قد تعنّى وكابد الشوق والألم، وقد وظّف كلمة "تحوه" عبر استخدام
الاستعارة ليورّي بها عن معنى آخر، غير المعنى الظاهر المعروف، وأراد بها التعبير عن شغفه
بالميل إليه، لا الميل إلى علمه الذي يشتغل فيه.

ومن جميل تورياته قوله⁽¹⁾: [الطويل]

أيأ صاحبِي، لا تنس أنس مجالس مضت بالحبيب المنعم الطائع الراضي
بحقّك، واذكر سيف مقاته التي مضى حكمه فيها، وكرّر على الماضي

تظهر ظرافة التورية في قوله: "الماضي"، التي صرف فيها أنظارنا عن المعنى القريب الظاهر
في سياق البيتين وهو الإشارة إلى الزمن القديم الذي مضى وانصرم، وما فيه من ذكريات جميلة، حيث
كان ينعم بوصل المحبوب ولقائه، لينتقل إلى معنى آخر وهو الإشارة إلى السيف الماضي القاطع الذي
كان يسله الحبيب من مقاته، فتذكّر تلك النظرات القاتلة التي سلّ منها سيفه القاطع، ليقتله كلّما نظر
إليه، وهذا ما أراد الشاعر التعبير عنه من خلال التورية.

ت) الطُّبَّاق

هو الجمع بين الشّيء وضدّه، كالجمع بين السّواد والبياض، أو الجمع بين المتضادّين مع
مراعاة التّقابل، فلا تجيء باسم مع فعل، ولا بفعل مع اسم⁽²⁾.

وقد غالى الشعراء كثيراً في توظيف الطُّبَّاق، وقد حوى شعر ابن حبيب كثيراً من الطُّبَّاق التي
لا تكاد تخلو منها قصائده ومقطوعاته، من ذلك جمعه بين لفظتي "اللّيل والصُّبح"، ولفظتي "الظلام
والنُّور" في قوله:⁽³⁾[الكامل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص266.

(2) ابن رشيق، العمدة، 5/2.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص51.

ليْلُ الذَوَائِبِ زانِ صَبَحَ جَبِينِهَا
يا غادَةَ تَحْمِي الظَّلامَ بنورِها
وبضدّها تتبَيَّنُ الأَشْيَاءُ
زوري فتى أودتْ به البرحاءُ

وكذلك جمعه بين "خفيف وثقيل"، و "داخل وخارج" في قوله: (1) [مجزوء الرجز]

يـرـقـصُ عـجـبـًا، و لـه
فـذا خـفـيفٌ داخـلٌ
خـصـصـرُ و رـدِّفُ مـسـاجُ
وذا ثـقـيـلٌ خـارِجُ

ونجده يجمع بين الطباق والجناس في آن واحدٍ، فطابق بين لفظتي "مقطوع وموصول"،

وجانس بين "محصول وموصول" في قوله (2): [السريع]

راقِـتْ مـقـاطـيـعُ المـغـنـي عـلـى
فـيـالـه و قـتـًا نـعـمـنا بـه
تـشـبـيـبُ ذـي فـهـمٍ و مـحـصـولٍ
ما بـيـن مـقـطـوعٍ و مـوصـولٍ

وقد برع في الجمع بين الطباق والجناس في مقام آخر بقوله (3): [الكامل]

جـرَـحـتُ فـوادي مـن لِحـاظـك أـسـهـمُ
هـو الصِّبـورُ عـلـى الجِـراحِ مـحـبَّةُ
صـمُّ الحـصـى مـن و قـهـها يـتـألـمُ
فـاعـجـبُ لـه مـن سـاكـتٍ يـتـكـلـمُ

فجمع بين "السكوت والتكلم"، وجانس بين "يتألم ويتكلم".

وقوله: (4) [الكامل]

هـذا شـبـاطٌ قـد أتـانا ضـاحـكا
فـاشـرب عـلـى أمـطاره و شـموسه
يـبـكي و يـمزج صـيفه و شـتائه
واعـجب لـسـرعة ضـحكه و بكائه

فالطباق واضح في قوله الشاعر، بين كلمتي "ضاحك ويبكي"، و"صيفه وشتائه"، و"شموسه

وأmpاره"، وتكرّر ثانية في "ضحكه وبكائه".

والقارئ لأشعار ابن حبيب يجد أنه لم يكن يتكلف توظيف الطباق على الرغم من كثرته، بل

جاء في مقام يدلُّ على براعته في توظيف هذا اللون من المحسنات التي ظهرت في شعر الشعراء في

مختلف العصور.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 82.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 192.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 206.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 271.

ث) الجناس

يعتبر الجناس واحدًا من الفنون البديعية التي أكثر شعراء العصر المملوكي من استخدامها أسوة بالنورية، وبصفة عامة يمكن القول إنهم أكثر من توظيف فنون البديع وغالوا في ألوان بعينها كثيرًا، وذلك لغاية تظهر إبداعهم في توظيف البديع خدمة للمعنى أولًا، وإظهار المقدرة الشعرية في التلاعب بالألفاظ ثانيًا، فجاءت قصائدهم موشاة مزخرفة بألوان البديع.

وقد اعتقد الأدباء أن الجناس "عزة شادخة في وجه الكلام، وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة، فغربوا وشرقوا ولا سيما المحدثين منهم، وصنف الناس فيه كتبًا كثيرة، جعلوه أبوابًا متعددة واختلفوا في ذلك، وأدخلوا تلك الأبواب بعضها في بعض"⁽¹⁾.

والأدباء يعلمون أن "الاستخدام الجيد لهذه الفنون يزيد المعنى عمقًا ويحسن التعبير، فالصنعة البديعية أضحت من أدوات الشاعر في ذلك الوقت، فلا يستطيع نظم أي قصيدة في أي موضوع دون أن يدرج فنون البديع في ثناياها"⁽²⁾.

وفي هذا الصدد أحمد فوزي الهيب: "شغف أدباء العصر بمذهب النجيس، وقد كان في القرن السادس الهجري يُؤلف مع الطباقي مذهبًا أسلوبياً خاصًا يتصنعه الشعراء كثيرًا، أمّا في القرن السابع الهجري فقد اشتدت العناية بالجناس كما كثرت حوله المؤلفات من أرباب هذا المذهب"⁽³⁾.

وما من شك في أن للجناس أثرًا واضحًا في النغمة الموسيقية، إضافة إلى تأثير الكلمات في نفس السامع، وما تحدثه الكلمات المتجانسة من إثارة وتشويق لديه. هذا وقد طغى الجناس على شعر ابن حبيب بصورة لافتة للنظر فلا تكاد تخلو قصيد أو مقطوعة منه، وكذلك بدا الأمر ظاهرًا في شعره غير الرسمي، وبخاصة في موشحاته التي تكاد تكون جميعها مطرزة بألوان متعددة من الجناس.

(1) ابن الأثير، المثل السائر 241/1.

(2) محمود سالم محمد، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ص 407-408.

(3) أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، ص 441.

والجناس نوعان: لفظي ومعنوي، والأول ما تشابهت فيه الكلمتان لفظاً، واختلفتا معنًى، وهو قسمان: تامّ وناقص أو غير تامّ. والتأمّ ما اتّفق فيه اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئتها وترتيبها⁽¹⁾.

والنّظر إلى شعر ابن حبيب يجد أنّه يستخدم ألواناً متعدّدة من الجناس، فمن ذلك التأمّ المماثل وهو ما تماثل ركناه واتّفقا لفظاً واختلفا معنًى، كما في اللفظتين "فوانك وفوانك" في قوله: (2):

[الخفيف]

تُبِّبْ إِلَى اللَّهِ مُخْلِصاً، وَتَبَصَّلْ مِنْ ذُنُوبِ جَنِيَّتِ قَبْلَ فَوَاتِكِ
فَكَمَاةُ الْمَمَاتِ أَيَّ شِدَادِ وَسُيُوفِ الْحَتُوفِ أَيَّ فَوَاتِكِ

فالشاهد على الجناس التأمّ واضح في البيتين السّابقين، علماً بأن "فوانك" الأولى جاءت بمعنى "وفاتك"، والثانية جاءت بمعنى "قوانل".

وتأمّل كذلك قوله⁽³⁾: [الطويل]

أَمْوَلَايَ عَيْدِ النَّخْرِ وَأَفَاكِ لَاهِيَا يُرَدُّدُ أَلْحَانَا، وَيُبْدِي أَصَاحِيكَا
فَدَامَ لِمَنْ أَوْلَاكَ عَيْثُكَ هَامِيَا وَلَا زَالَ مَنْ عَادَاكَ مِثْلَ أَصَاحِيكَا

فالجناس ظاهر في لفظتي "أصاحيكا وأصاحيكا"، فالأولى جاءت بمعنى الضحك والسُرور، والثانية بمعنى الأضحية التي يُضحى بها في عيد الأضحى، وهذا توظيف جميل في إبراز المعنى في تهنئة السلطان في ذلك العيد.

ومن مثله قوله⁽⁴⁾: [الكامل]

يَا مَنْ لَهُ وَجْهٌ بَدَتْ أَنْوَارُهُ كَالشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا، بَلْ أَشْرَقَ
لَوْلَا هَوَاكَ لَمَا جَفَا جَفْنِي الْكُرَى لَيْلًا، وَبِتْ بِدَمْعِ عَيْنِي أَشْرَقَ

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 354.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 73.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 178.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 265.

فقد جانس بين أشرق الأولى التي جاءت بمعنى إشراق وانبساطها على الأرض، والثانية التي هي بمعنى أنه أصيب بالغصّة من الشّجا.

وأحياناً تتكرّر الكلمات في المقطوعة نفسها عبر توظيف الجناس، كقوله: (1) [المتقارب]

ولم أنسَ يوم شربتُ الطلّي بروضٍ سما حسنه عن شريكِ
وللنقلِ والنقلِ في حضرتي رفيق رفيق وديك وديك

ففي "النقل والنقل" جناس غير تام وهو ما يُطلق عليه جناس التّحريف، فالأولى جاءت بمعنى نقل الأطعمة والشّراب، والثانية بمعنى المُكسّرات التي يُتسلّى بها. في حين نجد الجناس التّام في بقية الألفاظ، إذ جانس بين "رقيق ورقيق"، فالأولى بمعنى صاحب أو نديم، والثانية من الرّفقة أو الإحسان في الصّحبة، وبين "ديك وديك"، فالأولى بمعنى الطائر المعروف، والثانية بمعنى سمين.

ومن جماليّات الجناس توظيفه للجناس المُركّب، وهو ما اختلف فيه اللّفظان من حيث التّركيب والإفراد، إلى جانب اختلافهما في المعنى، ويظهر ذلك في قوله (2): [الرجز]

لله أكوابٌ همومي حرّمت لَمَّا أباحت خمرها المسكوباً
نارٌ، ولم تحرق، وإن أنكرت ما أوردته يا صاح فالمن كويًا

فهنا جناس واضح في قافية البيتين، فالأولى وهي "المسكوبا" بمعنى السكب أي سائل، والثانية

بمعنى امسك كوباً.

ومن هذا اللون قوله (3): [الخفيف]

بنت كرم لها كروم حباب دُرّها المنتقى على الزهر زاهي
قهوة للأسى عن القلب تنفي خندريس تشفي ظمأ الشّفاه
قال قوم: دغ شربها، فهي أمّ للدواهي، فقلت: نعم الدواهي

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 181.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 275.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 228.

فالجناس التأم يبدو واضحاً بين كلمتي: "الدّواهي" و" الدّوا هي" في البيت التّالث، فالأولى بمعنى المصائب، والثّانية بمعنى الدّواء أيّ أنّ الخمر هي الدّواء والشّفاء من الهموم.

وأحياناً يستخدم ابن حبيب نوعين من الجناس في الوقت نفسه، كقوله⁽¹⁾: [البسيط]

جوانحي للّقا الأحبابِ قد جَنَحْتُ وعادياتُ غرامي نحوهم جَنَحْتُ
وعبرتي عبْرَةً للناظرين غَدْتُ لأنّها بجفوني إذ جَرَتْ جَرَحْتُ

فالنّوع الأوّل وهو الجناس التّأم واضح في البيت الأوّل في لفظتي "جنت وجنت"، فالأولى

بمعنى مالت، والثّانية بمعنى أسرع. أمّا النّوع الآخر فوارد في لفظتي "جرت" و"جرحت".

ويوظّف ابن حبيب الجناس المُطرّف، وهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرّفاً في طرفه

الأوّل⁽²⁾. كما هو واضح في لفظتي "هجوفا" و"جوعا" في قوله⁽³⁾: [الخفيف]

إنّ سَلارَ نائِبِ الملكِ أمسى عبْرَةً تمنعُ العيونَ هُجوعاً
عاشَ في نعمةٍ، وحازَ كَنوزاً ليس تُحصى، وماتَ في الحبسِ جُوعاً

ومن ذلك قوله أيضاً⁽⁴⁾: [الرجز]

يا مَنْ أتى مِصرًا يرومُ تنزُّهاً أنيخَ المُطَيِّ بِجامعِ السُّلطانِ
وانظرِ إلى النّيلِ المنيّلِ فإنّه يلهيك عن أهليكَ والأوطانِ

فالجناس يبدو واضحاً في لفظتي "النّيل" و"المنيّل"، إذ زاد ميماً في الطّرف الأوّل في كلمة

"المنيّل". وكذلك جانس بين "السُّلطان" و"الأوطان".

ومنه قوله⁽⁵⁾: [السريع]

أفدي أميراً عادلاً مالهُ في الحُسنِ والإحسانِ عندي نظيرُ
لما رآني في الهوى طالِباً للمير منه قال: إني أميرُ

فالجناس يبدو واضحاً في "المير وأمير".

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 68.

(2) ابن حجة، خزانة الأدب 84/1.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 155.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 224.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 106.

وأغلب الجناس الوارد عند ابن حبيب الجناس غير التَّام بصفة عامَّة، وجناس التَّحريف
 بخاصَّة وهو ما اتَّفَق فيه ركناه في عدد الحروف وترتيبها واختلافها في الحركات⁽¹⁾. ومن الأمثلة على
 ذلك قوله⁽²⁾: [الخفيف]

نَزَّهُ الطَّرْفَ يَا أَخَا الطَّرْفِ لَيْلًا فِي طَيُورٍ أَحْسَنَ بِهَا مِنْ طَيُورِ
 فَوْقَ وَجْهِ الْمِيَاهِ تَسْعَى وَتَرْعَى كَنْقُوشٍ قَدْ خَيَّلَتْ فِي سَتُورِ

فقد جانس الشَّاعر بين "الطَّرْف" و"الظَّرْف"، وبين "تسعى" و"ترعى".

وفي موضع آخر يقول في وصف الرِّسُول، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽³⁾: [الكامل]

أَسْمَاؤُهُ وَصَفَاتُهُ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الرُّوَاةِ، وَعَرْفُهُ مَعْرُوفٌ
 وَخِلَالُهُ مَأْتُورَةٌ وَخِصَالُهُ مَسْطُورَةٌ، وَجَلَالُهُ مَوْصُوفٌ
 أَكْرَمُ بِهِ سَمَحًا عِطَافٌ نَوَالِهِ أَبْدَأَ عَلَى قُصَادِهِ مَعْطُوفٌ
 بَرًّا أَمِينًا صَادِقًا صَدَقَاتُهُ الْمَنْ عِنْدَهَا، وَالْأَذَى مَصْرُوفٌ
 مَنِّي عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ مَسْكِينَةٌ بِفَنَاءِ طَيْبَةٍ، طَيْبُهَا مَعْكُوفٌ

فالشَّاعر جانس بين "موصوف ومصرف"، وبين "معروف معطوف، معكوف".

وكذلك قوله في وصف الرِّسُول عليه أفضل الصَّلَاة والتَّسْلِيم⁽⁴⁾: [المجتث]

أَكْرَمَ بِهِ ذَا وَقَارٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا
 عِنْدَ الْمَهْمَاتِ دُخْرًا وَفِي الْمَلَمَّاتِ عَوْنًا
 سَادَ النَّبِيِّينَ طُورًا عِلْمًا وَفَضْلًا وَصَوْنًا
 لِأَنَّ بَيْنَ غُلَاهُمْ وَبَيْنَ غُلِيَاهُ بَوْنًا

فالجناس غير التَّام واقع في قوافي الأبيات "هونا"، و"عونا"، و"صونا"، و"بونا".

(1) ابن حجة، خزانة الأدب 87/1.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص125.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص165-166.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص215.

وكذلك قوله⁽¹⁾: [الكامل]

مِنْ كَفِّ مَخْتَارِ الْكِفَافِ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى نَبْعِ الزُّلَالِ الطَّاهِرِ
رَوَى مِنَ الْمَاءِ الْقَلِيلِ جِيوشَهُ حَيْثُ الْأَوَامُ لَهُ دَلِيلٌ ظَاهِرُ
وَمِنَ الْعَيُونِ النَّاضِبَاتِ أَسْأَلُ مَا هُوَ لِلْعَيُونِ مِنَ الْعَسَاكِرِ بَاهِرُ
لَا غَرَوْ أَنْ يَجْرِي لَدِي مَعِينُهُ وَمَعِينُهُ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ

فالشاعر جانس بين "طاهر"، و"ظاهر"، و"باهر"، و"قاهر".

ومن الأمثلة على توظيفه للجناس المطلق قوله: (2) [دوبيت]

الوقت صفاءً، وراقبت الصهباء والحبُّ رقا، وزارت الحسناء
ما عذرك يا نديمٌ فم نشربها ها قد هتفت في الورق الورقاء

ومن الأمثلة على الجناس المُحرّف قوله⁽³⁾: [دوبيت]

ما هبّ نسيمٌ من جنوبٍ وصبا إلّا وإليكم حنّ قلبي وصبا
لله زمانٌ بين جنوبٍ وصبا ولّى، فلقد أورث جسمي وصبا

فقد وقع الجناس المُحرّف في عروض البيت الثّاني وضربه وهو "صبا وصبا"، وكذلك في

عروض البيت الأوّل وضربه على اعتبار أن الواو فيهما زائدة يكون مطرب، وإن لم تعتبر زائدة فيكون

من الجناس المُركّب.

4. أمور أخرى

(أ) الاقتباس:

يُعدُّ مظهرًا من مظاهر تأثر الشعراء بالتراث الأدبيّ. سواء أكان الاقتباس من القرآن، أم

الأحاديث، أم كلام العرب. وقد برز الاقتباس من القرآن في أخذ آية بنصّها، أو الإشارة إلى معناها،

أو استخدامه لبعض ألفاظها.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص121-122.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص52.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص57.

من ذلك اقتباسه لجزء من الآية الثالثة عشرة من سورة الصَّف في قوله⁽¹⁾: [السريع]

كتابهُ السَّرِّ علا قَدْرُها با بن الشَّهيد الألمعي الأريب
وكيف لا تعلو، وقد جاءها (نصرٌ من الله وفتح قريب)

وكذلك اقتباسه للآية الأولى من سورة المسد ﴿تَبَّتْ يدا أبي لهب وتب﴾ في قوله⁽²⁾: [الرجز]

سَأَلْتُ ما قَصْدُ الذي في جَلْقِ أضرمَ ناراً أوقعتَه في العَطْبِ
قالوا: أرادَ النَّصرَ في إيقادها قُلْتُ لهم: "تَبَّتْ يدا أبي لهب"

ومن هذا إشارته ثانية إلى الآية القرآنية من سورة المسد ﴿وامراته حمالة الحطب﴾ في قوله⁽³⁾: [البسيط]

لما مشوا في ظلام الظلم أورثهم حَبْطاً وخطباً بهم أدى إلى العطبِ
تَبّاً يُلاقِيهم أقيماً أبو لهبٍ وبئس ما صنعتَ حمالة الحطبِ

ومن ذلك اقتباسه من الآية الثلاثين من سورة ق في قوله⁽⁴⁾: [الخفيف]

بسهمٍ ترمي الأنعام خفيّاً تِ تَشُقُّ القلوبَ قبل الجلودِ
كلما قلتُ زدتَ في القتلِ أقصرَ وتبَّبتُ، يقولُ: "هل من مزيد؟"

وتظهر ثقافته الدينية واضحة في كثرة اقتباساته من القرآن الكريم، كقوله⁽⁵⁾: [الكامل]

هي جَلَّقَ ذاتُ العمادِ، ومثلها في الأرضِ لم يخلقَ كذا وَرَدَ الخَبَرُ
تحكي سماءُ كواكبٍ دُرِيَّةٍ مَنْ وَجَّهها في كل ناحيةٍ قَمَرُ

ففي البيت الأول اقتباس بالإشارة إلى الآيتين السادسة والسابعة من سورة الفجر ﴿إرم ذات

العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾.

وفي مقطوعة أخرى يقتبس ابن حبيب من الآية الخامسة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة

﴿فما أصبرهم على النار﴾، في قوله⁽⁶⁾: [السريع]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 54.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 55.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 62.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 100.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 111.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 132.

يا أهل دار الضربِ سبحانَ مَنْ
ما أتعبَ الأبدانَ منكمُ وما
أشَقَّكمُ في هذه الدارِ
أصبركمُ فيها على النارِ

ومن جميل اقتباساته قوله⁽¹⁾: [الخفيف]

حينَ زادَ الخليلُ بالصَّدِّ تيهًا
قالَ من شِدَّةِ الأسي لِيَتِّي لَمْ
وَعَدَا الصَّبُّ مِنْ جَفَاهُ عَلِيلاً
أَتَّخِذُ مِنَ الهَوَى فُلَانًا خَلِيلاً

ففي البيت الثاني اقتباس بالإشارة إلى الآية الثامنة والعشرين من سورة الفرقان، وفيها يقول

تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَي لِمَ اتَّخِذُ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

وفي بعض المواضع نجده يقتبس من آيتين في المقطوعة نفسها، كقوله⁽²⁾: [الرجز]

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ أَفْوَاجًا إِلَى
يَوْمِ الْمَأْبِ وَالْحِسَابِ وَاللَّقَا
بَارِيهِمْ ذِي الْعِزِّ وَالتَّنْزِيهِ
يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ

ففي البيت الأول إشارة إلى قوله تعالى في سورة المطففين: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾،

أما البيت الثاني ففيه اقتباس من الآيتين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين من سورة عبس، وفيهما

يقول ربُّ العزَّة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ﴾.

كذلك ظهر تأثره بالأحاديث الشريفة، وبالثرات الأدبي بذكر بعض الأمثال أو بالإشارة إليها،

كقوله مقتبساً من الحديث النبوي الشريف في إشارته إلى فصاحة الرسول، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأدبه

وحلمه: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"⁽³⁾. [السريع]

آدابُ خيرِ الرُّسُلِ قد قارنَتْ
لا يحصرُ الخاطرُ أوصافَهَا
أخلاقه الحُسنى وتهذيبَه⁽⁴⁾
ولو أثارَ الفكرُ تلهيبَه
أدبُه فأحسن تأديبَه

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص185.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص232.

(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر 3/1.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص58.

ومن ذلك إشارته للمثل: "في الزوايا خبايا" في قوله⁽¹⁾: [الخفيف]

بين صدغ الحبيب والظرف خال عنبري يسبي عقول البرايا
فاعرفوا حق عرفه وشذاه واعلموا أن في الزوايا خبايا

وكذلك قوله⁽²⁾: [الرجز]

لم أنس إذ طالبتها بعودة من وصلها أيام كانت سامحة
فابتسمت عجباً، وقالت: ويك لا تطمع، فما الليلة مثل البارحة

ففيه إشارة إلى المثل المشهور: "ما أشبه الليلة بالبارحة".

(ب) الحوار:

ويُسمى بالمراجعة، وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول، ومحاورة في الحديث بينه وبين غيره، إمّا ببيت واحد، أو في أبيات⁽³⁾.

وغالبًا ما يلجأ ابن حبيب إلى أسلوب الحوار في شعره بشكلٍ لافتٍ للنظر، وبخاصة في حواراته التي حاول من خلالها أن يجد إجابة لأسئلته التي طرحها، من ذلك قوله في حريق دمشق⁽⁴⁾:

[الرجز]

سألت ما قصد الذي في جلق أضرم نارا أوقعته في العطب
قالوا: أراد النصر في إيقادها قلت لهم: "تبت يدا أبي لهب"⁽⁵⁾

وقوله محاورًا فتاة اسمها سالحة⁽⁶⁾: [الكامل]

فأنا لصالحة: علام نأيت عن قوم جوانحهم لنحوك جانحة
قالت: لأنني زرتهم وخبرتهم فرأيتهم لا يصلحون لصالحة

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 232.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 87.

(3) ابن حجة، خزنة الأدب، 218/1.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 55.

(5) اقتباس من القرآن الكريم، سورة المسد، الآية 1.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 87.

وقوله في محاوراة واعظ⁽¹⁾: [السريع]

وواعظٍ أنجز لي وِعْدَهُ
فقلتُ: أين الوعظ؟ قال: انتهز
وسررتني بالفعل واللفظ
فرصةً وعدي، واستمع وعظي

ومن ذلك قوله في محاوراة لطيفة⁽²⁾: [السريع]

قلتُ له: في فيك خمز حوى
فقال: من أين؟ وما دقتُه
فقلتُ: إنني عنك لم أروه
مسكًا، وأفدي يا منى النفس فاك
قطُّ، ولم أخبرك يومًا بذاك
لكنني أنقله عن سواك

واشتهر ابن حبيب بمحاورته للجمادات، فقد كان يحاورها أو يستمع لحوارها، كقوله⁽³⁾: [السريع]

قلتُ لـدنيا محنتي إذ جفت
قالت: ليفعل ذاك فهو الذي
قلبي نوى قتلك يا غادرة
يبقى بلا دنيا، ولا آخره

(ت) التوجيه:

تأمل معي قوله في مليح اسمه رجب⁽⁴⁾: [الطويل]

دموعي ربيع، والرقاد محرم
وفي القلب من شعبان نيران نصفه
على جفن عينك مذ هجرت بلا سبب
فجد لي بما أرجو من الموصل يا رجب

أجاد الشاعر في التعبير عن مشاعره حينما أبصره، من خلال التوجيه بأسماء الأشهر العربية (ربيع، محرم، شعبان، رجب)، وقد كشف هذا التوجيه عما آلت إليه حاله حينما ابتعد عنه دون سبب، فأخذ يذرف الدموع، ولم يذق للنوم طعمًا، واكتوى قلبه بنار اللوعة والفراق، وطلب منه أن يصله ويدع الهجران والقطيعة.

ويكرر التوجيه بالأشهر العربية في مقطوعة أخرى بقوله⁽⁵⁾: [الطويل]

لذيذ الكرى عن جفن عيني محرم
وكم من ربيع قد قطعت، وما أتى
وطائر وجدي في الجوانح قد صفر
لوصلك يا شعبان حسن، ولا خبر

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 152.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 178.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 115.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 54.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 264.

فالشاعر هنا يوجّه فيمن اسمه شعبان مستخدماً الأشهر العربيّة (محرم، وصفر، وربيع).

ومن توجيهاته قوله في عروضي⁽¹⁾: [الكامل]

أَهْوَى عَرُوضِيًّا يَرَى حَذْفَ الْوَقَا وَيَجُوزُ فِي قَبْضِ الصَّلَاتِ الْوَاصِلَهُ
ذَا مُقْلَةً أَسْيَافُهَا مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبَ لِأَجْزَاءِ الْمُتَيِّمِ فَاصِلَهُ

فيلاحظ التوجيه في مصطلحات العروض في المقطوعة (الحذف، والقبض، والسبب، والجزء،

والفاصلة).

وقال بدر الدين بن حبيب في مُحَدِّث⁽²⁾: [المتقارب]

حَدِيثُ الْمَغَازِي رَوَى طَرْفُهُ رَشَاءً مُرْسَلُ الطَّرْفِ خُلُوُ اللَّسَنِ
يُقَابِلُ حُفَاظَ أَخْبَارِهِ بُوْدٌ صَحِيحٌ، وَوَجْهٌ حَسَنٌ

توجيه بمصطلحات الحديث النبوي الشريف (مرسل، صحيح، حسن).

وكذلك يُوجّه بأسماء رواة الحديث، كقوله في صفة ثغرٍ مُوجَّهًا بابن شهاب الزُّهري، والضَّحَّاك⁽³⁾:

[الطويل]

لَهُ مَبْسَمٌ ضَمَّ النُّجُومَ سَوَاكِهِ رَوَى خَبْرًا مِنْ نَحْوِهِ طَيْبَ النَّشْرِ
خَذُوا قَوْلَ مَسْوَاكِ الْحَبِيبِ فَإِنَّهُ صَحِيحٌ عَنِ الضَّحَّاكِ يَرُويهِ وَالزُّهْرِيُّ

ومن ذلك توجيهه بأسماء كتب الفقه في قوله⁽⁴⁾: [الوافر]

نَبِيٌّ وَأَفْتٌ الدُّنْيَا إِلَيْهِ وَجَاءَتْهُ مَفَاتِيحُ الْكُنُوزِ
وَمَأَلَتْ نَحْوَهُ فَأَبَى عَلَيْهَا وَقَابَلَهَا بِإِفْرَاطِ النَّشُورِ
تَجَنَّبَهَا، وَأَعْرَضَ عَنِ جَنَاهَا وَلَاذٌ بِجَانِبِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ
رَعَاهُ اللَّهُ مَخْتَارًا هَدَانَا إِلَى الْمَنْهَاجِ بِاللَّفْظِ الْوَجِيزِ

فهنا توجيه بأسماء الكتب الفقهية "مفاتيح كنوز السنّة"، و"منهاج الطالبين وعمدة المفتين".

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 185.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 213.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 268.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 135.

ومن ذلك توجيهه بكتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي⁽¹⁾: [السريع]

يا حاكمًا قابل فؤادي بفر ط جبر وصلات شاملة
صيرتُ قدري عاليًا في النا سي إذ أهلتني للجبر والمقابلهُ

ومن توجيهاته بأسماء السور القرآنيّة، قوله موجّها بسورتي الأنفال والأعراف⁽²⁾: [الكامل]

يا بنت وهبٍ أبشري وتمتعي فلقد حملتِ بسيد الأشرافِ
ذاك الذي من شاء يعرف قدره فعليه بالأنفال والأعرافِ

ويوجّه ابن حبيب بمصطلحات علم النحر، كقوله⁽³⁾: [السريع]

هويتُ نحوياً شهياً اللما أسلمني حبيبهِ للحسنة
القد والحاجبُ مع لحظه العدل والتسوين والكسنة

وقوله موجّهاً إلى الممنوع من الصرف في غزله بفتى اسمه أحمد⁽⁴⁾: [الوافر]

وقالوا: اصرف هواه واسئل عنه فأنت بما تلاقى منه أعرف
فقلت: وحاصلُ الأشواقِ باق: ألا كُفوا، فأحمدُ ليس يُصرف

ث) التكرار

وكثيراً ما يلجأ ابن حبيب إلى التكرار، وقد عرفه ابن حجة الحموي بقوله: "هو أن يُكرّر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، والمراد بذلك تأكيد الوصف، أو المدح، أو الذم، أو التّهويل، أو الوعيد، أو الإنكار، أو التّوبيخ، أو الاستبعاد، أو لغرض بلاغيّ من الأغراض"⁽⁵⁾. وما من شك فإن الهدف الأساس من التكرار هو تثبيت المعنى وتأكيدُه في ذهن المتلقي سامعاً أم قارئاً.

عمد ابن حبيب إلى تكرار كلمة معيّنة كقوله مثلاً:⁽⁶⁾ [مجزوء الوافر]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 186.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 168.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 116.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 163.

(5) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب 135/2.

(6) ابن حبيب، ديوانه، ص 235-236.

نبيُّ قَدْ سَرَى لِيلاً
 نبِيٌّ قَدْ أَرَاهُ اللّهُ
 نبِيٌّ خُصَّ بِالْعَلِيَا
 نبِيٌّ جَاءَ بِالْإِيْمَا
 نبِيٌّ شَامِحُ الْمَقْدَا
 فسبحانَ الَّذِي أَسْرَى
 هُ مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى
 وَرُتِبَتْهُ بِهِيَ أَحْرَى
 نِ وَالْإِحْسَانِ وَالْبُشْرَى
 رِ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَى

وقوله في مقام آخر: (1)[الطويل]

نبيُّ له الأشجارُ جاءتْ مُطِيعَةً
 نبِيٌّ هُدَى حَتَّى الْجَمَادُ يَجِيبُهُ
 نبِيٌّ عَلَيْهِ سَلَّمَ الْحَجْرُ الصَّالِدُ
 نبِيٌّ كَرِيمٌ مَا لَدَعْوَتِهِ رَدُّ

ومن الأمثلة على تكرار الكلمة ذاتها، قوله: (2) [الخفيف]

مرحباً مرحباً بورقَاء بشر
 غررت حين أقبلت بالتهاني
 خضبوا طرسها مع الرّاحتين
 فطربنا على كلا الحالين

وتكرار ملحوظ في الألفاظ في القوافي، نراه في قوله: (3) [الهزج]

إلى أعناقكم من هـ
 وما يهوى بكم نحو ال
 ذه الدنيا دننا نير
 هوى إلا ال دننا نير

وتتكرر لفظة "خضب" لدى ابن حبيب أربع مرّات في مقطوعة له: (4)[الكامل]

خضّب المحبُّ خدوده بدموعه
 فأتت وقد خضبت أنامل كفّها
 يوم الوداع أوان فزب ذهابها
 شتان بين خضابه وخضابها

وأحياناً تتكرر الكلمات في المقطوعة نفسها عبر توظيف الجناس، كقوله: (5) [المتقارب]

ولم أنس يوم شربت الطلّي
 وللنقل والنقل في حضرتي
 بروض سما حسنه عن شريك
 رفيق رفيق وديك وديك

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 96.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 270.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 283.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 64.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 181.

وقوله مُكْرَرًا "أرتنا" لغرض الجناس⁽¹⁾: [المتقارب]

لحى الله دهرًا شديد السُّطَا حوادثُهُ بظباها فرتنا
وبعد القصور ونيل السرو ر بسجن القبور أرتنا أرتنا

ويعمد في مواضع كثيرة إلى تكرار أداة النداء "يا"، كقوله⁽²⁾ [السريع]

يا خاتمَ الرُّسُلِ، ويا مَنْ لهُ ظِلُّ عَلَى مَنْ يَرْتَجِيهِ ظَلِيلُ
يا مَعْدِنَ الجودِ وبحرِ النَّدى يا صاحبَ القَدْرِ النَّبِيهِ النَّبِيلُ
يا مَنْ إِذَا ما أُمَّهُ قاصِدٌ يلقاهُ بالوجهِ الجليِّ الجليلُ

وأحيانًا يُكْرَّر اسم الإشارة "هذا" في قوله: ⁽³⁾ [المتقارب]

فهذا يوصي بأولاده وهذا يودع إخوانه
وهذا يهيئ أشغاله وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه وهذا يحزر غلمانه
ألا إن هذا الوبا سبًا وقد كاد يرسل طوفانه

أو يُكْرَّر "إذا" كقوله: ⁽⁴⁾ [الكامل]

وإذا أرادَهُمْ لأمرٍ بآدروا لجوابِ ذاك الأمرِ لم يتنبّأوا
وإذا نَهَاَهُمْ أعرضوا عمّا نهى ولغير ما يختاره يتلفّأوا
وإذا أشارَ بصمتهم لم ينطقوا وإذا دعا أقوالهم لم يسكّأوا

وفي بعض المواضع يُكْرَّر عباراتٍ بعينها، ومن ذلك قوله: ⁽⁵⁾ [البسيط]

هو الرسول الذي عمّت رسالته كلاً من الناس دانيه وقاصيه
هو الشهيد الذي لولا شهادته لأصبح الحق يجري دمع ناعيه
هو البشير الذي ما مثله بشرّ كلا، ولا في البرايا من يضايه
هو النذير الذي قال الصواب، وما كانت أقاويل أهل الشرك تنبيهه
هو الذي نحو رب العالمين دعا يا حبذا من يلبي صوت داعيه

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 217.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 183.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 216-217.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 73.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 233.

ويتكرر لديه الفعل واشتقاقاته، ومثاله: (1) [الرجز]

وقائلِ روضَ صلاحِ الدينِ صِفْ
فقال لي: زِدْني وشنَّفْ مَسْمَعي

لي حُسْنَهُ، فقلتُ: روضِ بِاسِمِ
قلتُ: نعم، والعَرَفُ منه ناسِمُ

أو تكرار الاسم "طاعن" كما في قوله: (2) [الرجز]

يا طاعنا في سنه خل النساء نسيا
فالغيد يخترن اللقا من طاعن

وخفَّف عنك، واسمع منِّي
في السِّرِّ، ولا من طان في السَّنِّ

وهناك ظاهرة فنيّة نلاحظها في شعر ابن حبيب، وهو أنه يختتم كثيراً من مقطوعاته بالاسم الذي بدأ به، فهو يكرّر الكلمة التي ذكرها في مستهلّ الشطر الأوّل في مصراع البيت، ويكرّرها في عجز البيت الأخير من مقطوعته، وهذه بعض الأمثلة:

من ذلك قوله: (3) [الكامل]

إني بزاهدة على هجرانها
يا سائلاً عن حالتي ومقاتلي

خَلَفَ الغرام، وعبرتي لي شاهده
ما حال صبِّ راغبٍ في زاهده

ويقول في مقطوعة أخرى: (4) [الكامل]

فأنا لصالحة: علام نأيت عن
قالت: لأنني زرتهم وخبرتهم

قوم جوانحهم لنحوك جانحة
فرأيتهم لا يصلحون لصالحة

وقوله في مليحة اسمها قمر (5) [الكامل]

قمرًا يسْمونَ المحجَّبةُ التي
لما تزايد حُسْنُها وعلتْ منا

تذكارها قلب المتيمِّم قد عمز
زلها وعزَّ وصالها، قالوا: قمر

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 205.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 281.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 94.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 87.

(5) ابن حبيب، ديوانه، ص 106.

ج) النشيد

كثيراً ما يستخدم الشاعر الأسلوب الأقرب إلى النثر، ويظهر ذلك في قوله⁽¹⁾: [الطويل]

لمولد خير الرسلِ أحمدُ أصبحت
وأشرفت الدنيا بأنوارِ بـدره
وإيوانُ كِسرى أسقطت شرفاته
ونيرانُ بيتِ الفرسِ باخَ لهيبها
وكم آيةٍ جاءتْ قرينَ قدمه
عليه من الرّحمنِ أركى تحيةً
وجوه الهدى وضّاحةً متبّجّه
وعادتْ به أرجاؤها متارّجّه
وحلّتْ عُرا أبراجه المتبرّجّه
وكانت لـديهم ألفَ عامٍ مؤجّجّه
تُيزرُ من الحقِّ المطهرِ منهجّه
بأفضلِ تيجانِ الصلاةِ متوجّجّه

وكذلك قوله مُعدّداً صفات الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، في أبيات⁽²⁾: [مجزوء الكامل]

كان الرسولُ المصطفى
وأجلُّهُم قَـمَ ذِراً وأكـ
وأسـرُّهُم بِشِـراً وأنـ
مُتأطِّفَةً مُتَعَطِّفَةً
يَسْعَى لخدمَةِ ضيفه
والحقُّ يتبغُّ دائماً
أوفى الأنامِ بعهدِهِ
رَمَهُمُ بخـالصِ ودِهِ
جَزَهُمُ لصادقِ وَعْدِهِ
متواضِعاً فـي مَجْدِهِ
ويـرى السـماحَ بِرِفْدِهِ
فـي حَـلِّهِ أو عَفْـدِهِ

3. الصورة الشعريّة

اهتمَّ الشعراء بالصورة بصفةٍ خاصّةٍ للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم، وبدونها لا قيمة للشعر، فهي تحمل المعاني التي تأسر القلوب، وتذهب بالعقول، لما لها من تأثير قويّ على نفوس السامعين، وهي أساس المفاضلة بين الشعراء، وبها يعلو شعر شاعر دون آخر. والصورة في رأي جابر عصفور تتمثّل في كونها "طريقة من طرق التعبير، ووجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميّتها فيما تحدّثه في معنى من المعاني من خصوصيّة وتأثير"⁽³⁾.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 82.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 98.

(3) جابر عصفور، الصورة الفنيّة في التراث النّقدّي والبلاغي، ص 358.

وترى الباحثة أنه لا داعي للخوض في عرض آراء النقاد القدامى والمحدثين في الصورة، إذ نظر إليها كل واحدٍ منهم من منظوره الخاص، وأدخلوها في باب السرقات، فأكثرها تقع فيها أي الصورة الشعرية- ولذا نجد اهتماماً كبيراً بها لدى الشعراء قاطبة، وبدونها لا يمكن أن يكون هناك شعر أصلاً، ولذلك تسابق الشعراء وفرسان البيان في اختراع الصور المبتكرة، أو إضافة صور جزئية على الصور الموجودة من باب التجديد، وبذلك أصبح ملكاً له⁽¹⁾.

تجدر الإشارة إلى أن نفرًا من الشعراء نأوا عن استخدام الصور القديمة، ورجعوا كذلك عن إضافة صور جزئية عليها، وانطلقوا يعملون خيالهم في ابتكار صور جديدة، وإن كانوا قد ضمّنوا أشعارهم صوراً من تشبيهات القدماء، أو ألفاظهم، أو معانيهم، وقد استمدوا صورهم الجديدة المبتكرة من بيئتهم الجديدة، استناداً إلى أن الصورة لا بد أن تكون ملائمة لروح العصر، بعيداً عن توظيف الصور الغربية، التي لا تنسجم وروح العصر، وهذا ما أشار إليه ابن حجة الحموي بقوله: "ولم يخطر لي أن أورد هنا التشبيهات البديعية التي اخترتها ... إلا ما خفّ على السمع وعذب في الذوق وارتاحت الأنفس إلى حسن صفاته، فإن التشبيه التي تقادم عهدا للعرب، رغب المولدون عنها، فإنها مع عقادة التركيب لم تُسفر عن بديع معنى"⁽²⁾.

وأشار أحمد فوزي الهيب إلى أن حركة التجديد في الصورة الشعرية في عصر المماليك كانت واسعة جداً إذا ما قيست بالتقليد، فقال: "ومع أن العصر عصر تقليد، وقد عرف عن شعرائه حبهم للتقليد، إلا أن التقليد في الصور كان قليلاً إذا قيس بالتجديد"⁽³⁾.

ولا بد من الإشارة إلى ارتباط الصورة بالتجربة الشعرية، فلها أثر كبير في توليد الصور والتشابه التي تنرجم الحالة الانفعالية أو الشعورية لدى الشاعر، وبخاصة عند الوقوف على الأسباب

(1) ينظر: أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، ص414.

(2) ابن حجة الحموي، خزنة الأدب 358/1.

(3) أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، ص415.

التي دفعت الشاعر إلى نظم القصيدة، فالمشاعر والأحاسيس تكشف عن عمق الصورة ومصداقيتها، وهي تكشف الشاعر المطبوع من المتكلف الذي يُعني نفسه كثيراً من اختراع الصور بغية التأثير على نفوس السامعين.

وقد أفاد شعراء العصر المملوكي كثيراً من بيئتهم في خدمة صورهم ومعانيهم، فوصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم، وتتوَّعت مصادر صورهم دون أن تخرج عن محيطهم: فوصفوا الطبيعة الدنيا والعليا بما فيها من أمواه وسماء وحيوان ونبات وجماد، كما وصفوا المعارك والحروب، والظواهر الاجتماعية والكوارث، وكذلك مظاهر العمران، وغيرها.

ويتصل بالحديث عن الجوانب الماديّة في الصورة تأثر الشاعر بشعر من سبقه من الشعراء، من باب التأثر بالتأثر لا من باب السرقات الشعرية إذ "لا يمكن أن يكون لشاعر أو فنان معنى مستقل تماماً عن كل شيء آخر، ولذلك قد تتخذ صلة الشاعر بأسلافه دليلاً على نبوغه" (1). وهذا ما أقرّ به الصّلاح الصّفدي وأكّد عليه بقوله: "أعلم أنّ للشعراء ألفاظاً صارت بينهم حقائق عُرْفِيَّة وإن كانت في الأصل مجازاً لكثرة ورودها في كلامهم، وتعاطيهم استعمالها، لأنهم ألفوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم. من ذلك: الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الرّدْف، والورد إذا أطلقوه فهم منه الوجنة، والأفاح إذا أطلقوه فهم منه الثَّغر، والراح إذا أطلقوه فهم منه الرّيق، والترجس إذا أطلقوه فهم منه العيون، وكذلك السّيف والسّهم والسّحر، وإذا أطلقوا الآس أو البنفسج أو الرّيحان فهم منه العذار. فكل هذه الأشياء انتقلت عن وضعها الأصليّ وصارت حقائق عُرْفِيَّة" (2).

ولا بدّ من التأكيد مرّة أخرى على أهميّة الصورة في تحقيق المتعة لدى المتلقّي عند الوقوف عليها وتحليلها وفهمها، ولذا ينبغي الكشف عنها بعيداً عن الأنماط التقليديّة التي وقف عندها النّقد

(1) مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، ص 105.
(2) الصّفدي، الغيث المسجم 443-442/1.

القديم في تركيزه على عناصرها المتمثلة في التشبيه والاستعارة والكناية. وإنما الكشف عنها من منظور حدائى يشمل أنماطها المتعددة كالحسيّة بأنواعها المختلفة من: حركيّة ولمسيّة وشميّة وبصريّة وذوقيّة لونيّة وسمعيّة، فهذه جميعًا تبعث الحياة في النصوص، وتدفع القارئ إلى الانسجام معها، وتولد لديه الدافعيّة للرّكض وراءها، والبحث عن مفاتيحها الإيحائيّة، إضافة إلى تبيان الأثر النّفسي للصّور النّفسيّة غير المرئيّة.

وعند تتبّع المناهل التي استقصى منها ابن حبيب صورته وأخيلته في قصائده ومقطوعاته، فإننا نجد بعضها يرتدّ إلى الشعراء القدماء، وبخاصّة في أغزاله وخمريّاته، فنجده يقتبس صورًا سبق وأن طرقها سابقوه، فمضى يترسّم خطاهم الأقدمين، ومن أمثلة ذلك استهلاله لعدد من قصائده بمقدّمة غزليّة ضمّنها صورة للمحبوبة، فجاءت صورة طبق الأصل لما صورّه السّابقون، وكأنّها أصبحت حقائق عرفيّة لدى الشعراء كافّة، يقول في إحدى مقدّمة قصائده⁽¹⁾: [السريع]

سَفْكَ دِمَا عَشَّاقِهِ قَدْ أَبَاخْ	لَمَا انْتَضَى مِنْ مَقْلَتِيهِ الصَّفَاخْ
أَهْيَفَ مَا هَزَّ قَنَا قَدَّهُ	إِلَّا وَغَارَتْ مِنْهُ شَمْسُ الرَّمَاخْ
وَلَا تَبْدَى وَجْهُهُ سَافِرًا	إِلَّا وَخَلَّتْ الصَّبْحُ فِي الشَّرْقِ لَاحْ
ذُو مُقْلَةٍ كَحَلَاءِ سَكَّارَةٍ	لَا تَحْوِجُ الصَّبَّ إِلَى شُرْبِ رَاخْ
كَمْ أَطْلَقْتُ سَهْمًا، وَكَمْ قَيَّدْتُ	قَلْبَ مُجِيبٍ بِجِرَاحِ اجْتِرَاخْ
لَا تَسْأَلُوهَا أَبَدًا عَن دَمِي	فَمَا عَلَى الْمَرْضَى السُّكَارَى جِنَاخْ
يَا غُصْنَ بَانَ قُصَّ لَمَّا نَأَى	مَنْ طَائِرِ الْقَلْبِ جِنَاخِ النَّجَاخْ
ارْفَعْ قَتَالِي فِي حُرُوبِ الْهَوَى	فَإِنِّي عَجْزًا وَضَعْتُ السَّلَاخْ
وَانظُرْ إِلَى الْأَجْفَانِ، وَاعْجَبْ لَهَا	مَكْسُورَةَ تُسْبِي الْعُقُولَ الصَّحَاخْ

ويُقلّب ابن حبيب في معاجم الشعراء القدامى مستمدًا منها الأوصاف والنّعوت في غزله

النّفليدي الذي استهلّ به قصيدة أخرى بقوله⁽²⁾: [الطويل]

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص85.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 96-97.

بروحي خدّ قد تفتّح وزدّه
 وطزف إذا ما صال مُرهِفُ لحظه
 رعى الله صَبَاباً شَفَهُ البينُ والأسى
 أخوا شَجِنَ قد ضاعَ في الحيّ قلبه
 فتى كُلمًا لاموهُ فيمنُ يُحبُّه
 وبى أشهلُ لا يحفظُ الودَّ والولا
 على خدّه جَمْرٌ يثبُّ ضرامه
 خذوه بثأري في الهوى، فهو قاتلي
 أيا مَنْ يقيسُ القَدَّ بالغصنِ والنقا
 غزالٌ إذا شاهدت ناعس جفنه
 هلالُ سماءٍ، والغدايرُ ليلُه

وفي موضع آخر نراه مترسماً خطى الشعراء الذين أكثروا من رسم صورة طيف المحبوبة الذي

يزورهم آخر الليل، ويظهر من خلال هذه المُقدِّمة الغزليَّة التقلّيدية أن طيف خيال محبوبته كان بخيلاً،

فلم يزوره، ولذا فإنّه يبرجو لقاءها ووصلها حتّى ولو في الخيال، يقول: (1) [البسيط]

مَنْ لِلْمَشُوقِ بَوَصَلٍ مِنْكَ يُحْيِيهِ
 بعدتُ عنه، فلا الألمانُ تُطْرِبُهُ
 أثنمتُ لما ترحلتِ العداةُ به
 عطفاً عليه، فقد عذبتُ مُهَجَّتَهُ
 وذات قَدٍّ غدا من خمر مُقلتها
 تدري بما في فؤادي من محبتها
 عرضُ بذكر النقا فهو الشبيه لما
 والمنحنى صِفُهُ لي بعد العتيق، فذا

ويكرّر حديثه عن الطيف في مقطوعة أخرى تنغى عليها الصنعة اللَّفظية، فيقول (2): [دوبيت]

من بعد جفاك في الهوى يا رِيًّا
 ما ضرَّكَ لو وافيت ميّاً حيًّا
 لم يلقَ فؤادي من ظمّاه رِيًّا
 أو كان له طيفُك ليلاً حيًّا

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 233.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 231.

وفي أخرى يصوّر معاناته من ألم الفراق، فحلت القطيعة والبعد والجفاء، ولم تعد تأذن حتى لطيفها بلقائه، ولذا فهو في حالة يرثى لها، فالعينان تدرفان الدُموع شوقاً وحرقةً وأسفاً، والقلب ما زال مُعلّقاً بحب فاتنته ذات الوجنتين الحمراءين، وقد برع الشاعر في توظيف الصورة اللونية مُستمدّاً دلالة اللون الأحمر الذي عبّر من خلاله عن النار التي اشتعلت في قلبه، وبرع كذلك في التضمين الذي وظّفه في عجز البيت الثاني للتعبير عن حبه لها على الرّغم من أنّ ذلك يُحرقه ويؤلمه، فهو أشبه ما يكون في ذلك بعباد النار الذي يهواها ويجروء على المساس بها بها مع أنّها تؤذيه وتحرقه، قال(1):

[البسيط]

الطَّرْفُ بَعْدَكَ قَدْ عَادَتْ مَدَامِعُهُ تَهْلُ فَأَنْزِنُ لَطِيفٍ مِنْكَ يُطْرِقُهُ
والقَلْبُ فِي الْوَجْنَةِ الْحَمْرَاءِ يَا سَكْنِي كَعَابِدِ النَّارِ، يَهْوَاهَا وَتَحْرِقُهُ

وإذا ما انتقلنا للحديث عن الصور المبتكرة التي ابتدعها ابن حبيب فإننا نجد ألواناً عديدة لها وبخاصة في مضمار وصفه لطبيعة البلاد التي تنقل فيها، غير أنّه أكثر من وصف الغلمان والجواري ومظاهر العمران ووصف الحيوان وغيرها. وإذا ما تأملنا قوله(2): [الطويل]

وتَفَاحَةٍ فِيهَا أَحْمَرَارٌ وَخُضْرَةٌ مُضْمَخَةٌ بِالطَّيِّبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
تَكَامَلٌ فِيهَا الْحُسْنُ حَتَّى كَانَتْهَا تَوَرَّدُ خَدٌّ فَوْقَ خُضْرَةٍ شَارِبٍ

تكشف هذه المقطوعة براعة الشاعر في الوصف والتشبيه، إذ جمع بين الصورة اللونية التي كشفت عن جمال التفاحة التي أبصرها إذ جمعت بين الحمرة والخضرة، فأذكرته بالخدّ المورّد المشوب بالخضار، وقد زادت الصورة الشمية رونقاً وبهاءً، فشذاها يعبق في كلّ الأرجاء، وكأنّها مُضْمَخَةٌ بالطيب الذي تفوح رائحته الشذية.

وقد أبدع ابن حبيب في رسم الصور الحركية موظفاً التشخيص عبر توظيف عنصر الخيال الذي ساهم في توضيح الصور وبيان عمقها، والكشف عن عميق أثرها في النفوس، فيقف القارئ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص173.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص66.

متعجبًا من براعة المشهد الموصوف، ومن ذلك حديثه عن الطاعون الذي حلَّ بالبلاد سنة 749هـ،
فصوّره إنسانًا لا بل عدوًّا هجم على البلاد وأفنى العباد دون رحمة، يقولُ مُصوِّرًا لحركاته وأفعاله⁽¹⁾:

[الخفيف]

إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ يَفْتِكُ فِي الْعَا
وَيَطُوفُ الْبِلَادَ شَرْقًا وَعَرْبًا
قَدْ أَبَاحَ الدِّمَاءَ، وَحَرَّمَ جَمَعَ الشَّ
كَمْ طَوَى النَّشْرَ مِنْ أَخٍ عَنْ أَخِي
أَيْتَمَ الطِّفْلَ، أَتَكَلَّ الْأُمَّ أَبْكَى الـ
بِسَهَامٍ تَرْمِي الْأَنْبَاءَ خَفِيًّا
كَلِمَا قَلَّتْ زِدَتْ فِي الْقَتْلِ أَفْصِرُ
إِنْ أَعِشْ بَعْدَهُ فَإِنِّي شَكُورٌ
وَإِذَا مِتُّ هُنُونِي وَقَوْلُوا

لَمْ مِثْلَ امْرِئٍ ظَلَمَ حَقُّودِ
وَيَسُوقُ الْعِبَادَ نَحْوَ اللُّحُودِ
مِثْلَ قَهْرًا، وَحَلَّ نَظْمَ الْعُقُودِ
هـ، وَسَبَى عَقْلَ وَالِدِ بَوْلِيدِ
عَيْنَ، أَجْرَى الدَّمْعَ فَوْقَ الْخُدُودِ
تِ تَشَقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ
وَتَثَبَّتْ، يَقُولُ: "هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟"⁽²⁾
مَخْلَصُ الْحَمْدِ لِلْوَلِيِّ الْحَمِيدِ
كَمْ قَتِيلٍ إِذَا قُتِلَتْ شَهِيدِ

ومن بديع الصور الواردة في شعره أنه جعل الطَّبِيعَةَ تحسّ وتشعر، فأخذت تشارك الإنسان
الحزن للدِّمار الذي أحدثته الحروب، ومن ذلك قوله في صورة باكية بعدما هجم الفرنج على طرابلس
الشَّام سنة 769هـ، فعانوا فيها فسادًا ودمارًا وخرابًا⁽³⁾: [الوافر]

طرابلس الشَّام وهى قواها
دنا منها الفرنج وشعثوها
أثاروا حين جاعوا نارَ حربٍ
بكت حزنًا ورجاءَ الماءِ فيها
وهزَّ الوجدُ رأسَ النهي منها
كواكبُ زهرها نُثِرَتْ، وشَقَّتْ
وفي أعلى غصونِ الدوحِ أضحت
تبارك مَنْ تداركها بلُطفٍ
وردَّ بنصره كَيْدَ النصارى

وأظلم بعد بهجته سناها
لغيبيةٍ عسكِرٍ يحمي حماها
أداروا في جوانبها رجاها
وروت من مدامعها تراها
وسلَّسَل رملها في مُشْتَهَاها
شقائقها الملابس في رباها
حمائمها تنوخ لما عزاها
وضاعف من عنايته حياها
وبلَّغها بمنيتها منهاها

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 100.

(2) اقتباس من القرآن الكريم، سورة ق، آية (30).

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 227.

انثّحت الصُّورة بالسَّواد، وغلب عليها الحزن والبكاء، ولذا نجد النَّواعير تبكي حزناً على ما آلت إليه الحال، وكذلك الأزهار والأشجار والأطيار.

ومن بديع الصُّور لدى ابن حبيب قوله في وصف فتاة حسناء⁽¹⁾: [السريع]

فَدَيْتُ خَوْدًا حُسْنُهَا كَامِلٌ وَحِظُّ مَنْ يَعِشُهَا نَاقِصٌ
غَنَى لَهَا الْخَلْخَالُ لَمَّا مَشَتْ وَشَعْرُهَا مِنْ فَوْقِهِ رَاقِصٌ

لجأ الشاعر في هذه المقطوعة إلى التَّشخيص معتمداً على الصُّورة الحركيَّة التي عبَّرَ من خلالها عن افتتانه بتلك الفتاة لما تبدَّت فتراءى له جمالها الفنَّان، وممَّا زاد التَّشبيه روعة توظيف الصُّورة السَّمعية حينما سمع خشخشة الخلخال التي أطربته، وهذا ما دفع شعرها ليتراقص طرباً وفرحاً على وقع ذلك الصَّوت الجميل.

ومن بدائعه قوله:⁽²⁾ [الكامل]

لَمَّا عَلَتْ نَارُ الْحَرِيقِ وَأَضْرَمْتُ بِحِمَاةٍ، وَامْتَنَعَتْ مِنَ الْأَشْخَاصِ
نَاحَتْ نَوَاعِيرُ الْجِنَانِ تَأْسُفًا وَتَنَاقَرَتْ طَوْعًا دُمُوعُ الْعَاصِي

فهذه صورة بديعة تكشف عن قدرة الشاعر على وصف كلِّ ما تقع عليه عيناه وبخاصَّة الأحداث التي عايشها، فيصوِّر لنا النَّار التي أتت على سوق حماة، وجعلته أثرًا بعد عين، فكشف عن مشاركة الجمادات للإنسان في هذا الحزن، فأخذت النواعير تنوح أسفاً على ما جرى، وكذلك فاضت دموع نهر العاصي وانفجر في بكاء مرير.

أولاً: الصُّورة الحسيَّة

من أكثر الصُّور تداولاً لدى الشعراء، إذ إنَّهم أخذوها من واقعهم، فأخرجوها في أبهى حلَّة وأروع بيان، مُعتمدين في ذلك على حواسِّهم، مُوظِّفينها في رسم صورهم، فأبدعوا في اختيار الألفاظ التي تُعبِّر عن المعاني التي تناولوها دون الحاجة إلى إعمال كبير جهدٍ في فهمها واكتشافها وتحليلها.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 145.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 147.

وتعدُّ الصورة البصريَّة أهمَّ عناصر الصُّور الحسيَّة، فوصف الشعراء كُلَّ ما أبصروه، وبخاصَّة الطَّبيعة والبيئة التي عاشوا فيها، سواء أكانت طبيعة حيَّة متحرِّكة، أم طبيعة صامتة كالنبات والحدائق والرياض والجمادات، فهذه العناصر مجتمعة مصدر إلهام للشاعر، إذ يستقي منها معانيه وتصاويره، ولذا رسموا صورة رائعة للطبيعة وجمالها الأخاذ، وأبدعوا في نقل صورتها لنا، وجاءت صورتها ممزوجة بالثلاوين والأصباغ التي تجعلنا نتخيَّلها كما لو كُنَّا أبصرناها من قبل، ولهذا كانت صورهم انعكاسًا لما رأوا أو شاهدوا من مشاهد الطَّبيعة التي استوقفتهم، كالثلج، والسَّماء، والقمر، والشَّمس، وغيرها من الأمور⁽¹⁾.

وقد ركَّز الشاعر في كثير من تشبيهاته على الصُّورة اللونيَّة كقوله في صفة خدِّ محمَّر⁽²⁾:

[مجزوء الرمل]

خَدُّ مَنْ قَلَّ اصْطِبَارِي فِيهِ وَازْدَانِحِيْبِي
وَرْدُهُ فِيهِ اِحْمَرَارٌ لَيْتَهُ كَانَ نَصِيْبِي

وأحيانًا يجمع بين الصُّورة اللونيَّة والشَّميَّة كقوله في صفة تفاحة حمراء مشوبة بالخضرة، وقد

انتشرت رائحتها العبقة في كلِّ الأرجاء مقارنًا صورتها بصورة خدِّ مُورَّد⁽³⁾. [الطويل]

وتفاحه فيها احمرارٌ وخضرةٌ مضمخةٌ بالطيب من كُـلِّ جانبِ
تَـكاملُ فيها الحُسنُ حتى كأنَّها تـورَّدُ خدِّ فوق خضرةٍ شاربِ

فمن وصفه للطَّبيعة العليا وصف الشَّمس المنيرة عندما تلوح في أفق الصِّباح، فتبدو كأنَّها كرة

من الذهب. يقول⁽⁴⁾: [الكامل]

ما أحسنَ الشَّمسَ المنيرةَ إذ بدتْ في أفقها تلوَّ الصِّباح الأبلجِ
فكأنَّها كُـرَّةٌ من الإبريزِ قد بسطوا لها الميدانَ بالفيروزِ

(1) ينظر: علي الغريب الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التُّبلي، ص 133.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 64.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 66.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 83.

ثانياً: الصورة الشَّمِيَّة

يتكوّن هذا اللون من الصُّور من حاسّة الشَّمّ التي طرفها الشعراء في مختلف العصور، وركّزوا من خلالها على الرّوائح التي تعطرّ الأرجاء، وتعبق بنوافج النَّدِّ، وعبق الأزاهير التي تفوح من الورود والريّاحين، وربّما أذكرتهم رائحة معيّنة بالحبّيب، فراحوا يوظّفون الرّوائح التي كانوا يتنسّمون عبيرها في مختلف الأمكنة، وكذلك نجدهما الطّيب والمسك والعنبر وغيرها من الرّوائح الطّيبية، تأمل معي قوله في مدح النّبِيِّ، صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول⁽¹⁾: [الكامل]

وجهُ الوجودِ بنورِ أحمدَ مُشرقٍ وبعزْفِهِ أرجاءُهُ تتأرّجُ
الطّيبُ يطوى عند فائحِ نشْرِه والرّوضُ يخفى زهْرهُ المتبرّجُ

فالشّاعر -هنا- يوظّف الصُّورتين اللّونِيَّة والشَّمِيَّة، فوجه الحبيب المصطفى يشع نوراً، فبقدمه أشرقت الدُّنيا بنورها وضياؤها، غير أنّه بدا مركزاً على الصورة الشَّمِيَّة، فحيثما حلّ -عليه السّلام- تملأ رائحته الطّيبية الأرجاء وتتعرّط الأجواء، لا بل تدوى رائحة الطّيب فلا يكاد ينماز، وكذلك روائح أزاهير الرّوض تخفى وتكاد تزول.

ثالثاً: الصورة اللّونِيَّة

يعدّ هذا اللون من أكثر الصُّور حُضوراً ودوراناً في شعر ابن حبيب، فبدا مفتوناً بالألوان، وحشد كثيراً من الصُّور التي ترتبط دلالة اللون فيها بشيء ما، وبخاصّة في موضوعات الغزل والمدح والوصف وتكشف دلالات الألوان عن تعلّق الشّاعر بمباهج الحياة وموجوداتها، فله أشعار رائعة في وصف الإنسان وغير الإنسان، فنجدّه يصف الإنسان، فبدا مفتوناً بالغلّمان الحسان، وله وصف رائع لأرباب الحرف والصّنائع، وكذلك الجوّاري والفتيات الفانتات، وكذلك وصف الحيوان وصفاً رائعاً،

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 83.

والطبيعة العليا والدنيا، فلم تقع عينه على شيء إلا وصفه. ومن ذلك قوله في وصف غلام وفيه يقول⁽¹⁾: [الخفيف]

ساحرُ الطَّرْفِ، وافِرُ الطَّرْفِ أحوى خدُّه الأبيض اللُّجَيْنُ مُذَهَّبٌ
لا تلمني على اعتقاد هـواه مذهبُ الوجدِ فيه أحسنُ مذهب

فهذا الغلام التركي ذو طرف ساحر، جمعت فيه صفات الحسن والطرافة والملاحة من طيب الكلام، وحلاوة العينين، وحسن الهيئة، ولون البشرة، وبدا مفتوناً بخدّه ذي البريق الذي أذكره بلون الفضة المشربة بالصفرة التي استمدت لونها من الذهب. وهذا ما زاد تعلّقه به.

تجد الإشارة إلى أنّ هذا اللون من الصورة يكثر في شعر الطبيعة عند ابن حبيب، ومن ذلك

قوله في وصف الشمس: يقول⁽²⁾: [الكامل]

ما أحسنَ الشمسِ المنيرة إذ بدت في أفقها تلو الصباح الأبلج
فكأنها كُرّة من الإبريز قد بسطوا لها الميدان بالفيروزج

بدا الشاعر مُركّزاً على اللون الأصفر ودلالته، إذ غالباً ما يكون دالاً على الشحوب والصفرة والمرض، لكنّه استمدّ لصورة الشمس لون الذهب في اصفراره وبريقه لما تبدت، فجعل منها كرة من الذهب الخالص، كما استمدّ لون السماء من زُرقة حجر الفيروزج، وبهذا تتكامل الصورة شكلاً ولوناً.

ومن جميل صورته قوله⁽³⁾: [الكامل]

قالوا أبا الحنّاء أمسي خاضباً قديمه عُجَبًا، قلتُ: لا حاشاهُ
لكنّه قتل المحبّ، وخاض في دمه، فمنه تخضبت قدماهُ

رَكَّزَ الشَّاعِرُ عَلَى حُمْرَةِ الْخَضَابِ الَّذِي تَخَضَّبَ بِهِ ذَلِكَ الْمَحْبُوبُ مِنْ خِلَالِ تَوْضِيفِ اسْلُوبِ

الحوار الذي كشف فيه محاوره على أنّ الحُمْرَةَ دالّة على العُجْبِ والخِيَلَاءِ، فِيرِدُ عَلَيْهِمُ الشَّارِعَ قَائِلًا إِنَّ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 55.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 83.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 228.

مصدر اللون مُسْتَمَدُّ من لون الدِّمَاءِ الَّتِي أَرَقَهَا ذَلِكَ الْمَحَبُّ بِسِوْفِ جَفْنِيهِ الْحَادِّينَ مِنْ كَثْرَةِ الدِّمَاءِ الَّتِي خَاضَهَا بِقَدَمِيهِ.

وتأمل معي قوله في بعض أغزاله: ⁽¹⁾[الطويل]

عَلَى خَدِّهِ جَمْرٌ يَشُبُّ ضِرَامُهُ مِنْ الْحُسْنِ لَكُنْ فِي الْجَوَانِحِ وَقْدُهُ
خُدُوهُ بِثَأْرِي فِي الْهَوَى، فَهُوَ قَاتِلِي وَلَا تَقْتُلُوهُ، إِنَّنِي أَنَا عَبْدُهُ
أَيَا مَنْ يَقِيسُ الْقَدَّ بِالْغَصَنِ وَالنَّقَا أَمَا خَفَيْتَ أَنْ يَدْرِي بِذَلِكَ قَدُّهُ
غَزَالٌ إِذَا شَاهَدَتْ نَاعَسَ جَفْنِيهِ يَلْدُ بِجَفْنِي فِي نُجَى اللَّيْلِ سُهُدُهُ
هِلَالٌ سَمَاءٍ، وَالْغَدَائِرُ لِيَأُتَهُ مَلِيكَ جَمَالٍ، وَالْمَحَاسِينُ جُنْدُهُ

تكشف الصورة اللونية عن نفس مُلتاعة اكتوت بنار الحب، إذ استمد الشاعر حمرة خد المحبوب من لون جمر النار التي أضرمتها في قلبه لما رآه. ويمضي في تعداد محاسنه ومفاته التي أسرته وتملكت قلبه وعقله، ولم ينس الإشارة إلى لون صفائه التي استمدتها من سواد الليل الذي يلد به هجوعه بعد أرقه وسهره.

رابعاً: الصورة السمعية

لهذا اللون من الصور حضور بارز في ديوان ابن حبيب، فمن ذلك قوله في صفة مغنية ⁽²⁾:

[الهزج]

وَخَوْدٍ لَمْ تَزَلْ تُبْدِي طَرِيقًا فِي الْغِنَا يُحْمَدُ
إِذَا مَا أَعْرَبَتْ لَحْنًا غَدَا عَبْدًا لَهَا مَعْبَدُ

فهذه المطربة ذات صوت رخم تطرب له الأسماع وترتاح لسماعه القلوب، وقد قرن جمال صوتها بجمال صوت المغني المشهور في العصر الأموي معبد بن وهب، ولا تخلو الصورة من مبالغة واضحة إذ إن صوتها يفوق صوت معبد حسناً، فلو سمعها لأصبح لها عبداً.

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 96-97.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 92.

وتتكرّر الصُّورة نفسها في أكثر من مقطوعة وصف بها صوت الأذان في الجامع الأموي بدمشق، فقال⁽¹⁾: [السريع]

لِلَّهِ مَا أَجْمَلُ وَصَنَفَ جَلْقَ وَمَا حَوَى جَامِعَهَا الْمَنْفَرْدُ
قَدْ أَطْرَبَ النَّاسَ بِصَوْتِ صَيْتِهِ وَكَيْفَ لَا يُطْرِبُ وَهُوَ مَعْبَدُ

ففي هذه المقطوعة بدا الشّاعر مُعجِبًا مفتونًا بجمال جامع دمشق هندسةً وشكلًا وروعةً وتصويرًا، غير أنّ حضوره لحظه رفع الأذان فيه سلب عقله، فاستولى صوت ذلك المؤذّن عليه، وبدا مُعجِبًا بصوته الذي يأسر الألباب ويأخذ بالعقول، قارنًا صوت ذلك المؤذّن بصوت المطرب معبد.

ومن الأمثلة على الجمع بين الصُّورتين السَّمعيّة والحركيّة قوله⁽²⁾: [دوبيت]

الطَّيْرُ عَلَى الْغُصْنِ سُحَيْرًا هَتَفًا وَالْجَدُولُ فِي الرَّوْضِ مَشَى وَانْعَطَفَا
يَا صَاحِ، دَنَا الصَّبَاحُ فَمَنْ نَشْرِبُهَا صَرْفًا لَعَسَى الْهَمُومُ أَنْ تَنْصَرَفَا

تتجلّى صورة الطّبيعة الحيّة التي استولت على الشّاعر بما فيها من حُسن وأبهة، ويبدو أنّه كان مشغوفًا بسماع أصوات الطّيور المترنّمة على أغصان الشّجر مع إطلالة الفجر، وقد أخذت تشدو وتصدح بأعذب الألحان، إيذانًا بفجر جديد يكون فيه الحيويّة والتّجدد وبعث الحياة في المخلوقات. واللّوحة تنبض بالحركة من خلال جريان الماء في الجدول، وكأنّه يسير في تعرجاته بحركة رشيقة في ذلك الرّوض البهيج. كما أنّ فعل الشّرب لا يكون إلا في مجالس الطّبيعة الخلّابة التي تأخذ بالألباب وتأسر العقول.

ومن جميل قوله في وصف ناعورة⁽³⁾: [الكامل]

ومدارةٍ فلكيّّةٍ في شاكلها تَبْكِي بِمِثْلِ مَدَامِ الْغُشَّاقِ
تُبْدِي الْأَنْيْنَ كَأَنَّهَا مَفْجُوعَةٌ بِجَنِينِهَا، أَوْ جَازَعٌ لِفِرَاقِ

تتجلّى روعة الصُّورة في الوصف شكلًا وصوتًا، النّاعورة دائريّة الشّكل كالفلك الدّوّار، وهي تحمل كيزان الماء لتنتثرها على الورود والأزاهير، ويظهر من خلال الصُّورة أنّ تيّار الماء الجاري في

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 92-93.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 164.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 175.

ذلك النَّهر الَّذِي أثبتت النَّاعورة على حافته كان ضعيفاً، ويظهر ذلك من خلال الصُّورة الباكية لحركة النَّاعورة إذ كانت تبكي وتذرف الدُّموع، غير أنَّها دموع فرح وحياة لما في الرُّوض من أزاهر، ولذا بدا صوتها حزيناً فصوَّرها بأُمَّ تكلت ولدها، أو بإنسان فارق حبيباً أو أخاً، فأخذ يبكي لفراقه.

4. الموسيقى

الأوزان التي في شعره وفي الملحق جاءت كما يلي:

النسبة المئوية	المجموع	عدد مرات استعماله في المستدرك	عدد مرات استعماله في شعره	البحر
	199	29	170	الكامل
	134	34	100	السريع
	95	15	80	الطويل
	94	19	75	الرجز
	61	6	55	الوافر
	55	10	45	البسيط
	42	9	33	الخفيف
	23	5	18	المتقارب
	19	5	14	مجزوء الكامل
	16	5	11	المنسرح
	15	4	11	المجتث
	14	3	11	مجزوء الرجز
	7	2	5	مجزوء الرمل
	4	-	4	مخلع البسيط
	4	-	4	الرمل
	4	3	4	التهزج
	2	-	2	مشطور الرجز
	1	-	1	المتدارك
	1	-	1	مجزوء الوافر
	1	-	1	المديد
				المجموع

عدد القصائد: 33.

عدد المقطوعات: 768.

الدوبيت: 4.

الموشحات: 8.

يوضّح الجدول السّابق البحور التي نظم ابن حبيب عليها، وهي مرتّبة ترتيباً تنازلياً من الأكثر استخداماً إلى الأقلّ، وقد ذكرت اسم البحر، ثمّ عدد مرّات تكراره في شعره، ثمّ عدد مرّات تكراره في ذيل شعره، فالمجموع، فالنسبة المئويّة.

ونلاحظ أنّ الجدول خلا من بحرّين، هما: المضارع والمقتضب، كما أنّه نظم مقطوعة واحدة على كلّ من: المديد والمتدارك ومجزوء الوافر، ومقطوعتين على مشطور الرّجز.

والتّأظر إلى الجدول يجد أن البحور الأكثر تداولاً عند ابن حبيب هي: الكامل والسّريع والطّويل والرّجز والوافر والبسيط.

ويحتلّ بحر الكامل المرتبة الأولى في شعره، إذ نظم فيه مئة وسبعين مقطوعة، وهذا ما استرعى انتباه هنرييت الصّايغ التي لاحظت أن شعراء العصر المملوكي يميلون إلى النّظم على بحر الكامل⁽¹⁾.

ومما يلاحظ أنّ ابن حبيب أكثر من النّظم على البحور الصّافية التي يتكوّن فيها البيت من تقيلة واحدة تتكرّر عدداً معيّناً من المرّات، وهذه البحور هي: الكامل، ومجزوء كل من الكامل والوافر والرّمل والمتقارب، والهزج، والرّجز، والرّمل، والمتقارب، والمتدارك. وأكثر كذلك من استخدم البحور الممتزجة وهي: الطويل، والبسيط، والسريع، والخفيف، والمنسرح، والمجتث، والوافر.

(1) هنرييت الصّايغ، اتجاهات الشعر العربي، رسالة كتوراه، 488.

ويُتَّصَل بالحديث عن الإيقاع الشعريّ الحديث عن بعض الأمور الأخرى التي تناولها النَّاس على أنَّها من ضروب البديع كالتَّوجيه، والاكتفاء، والتَّورية، ويمكن دراسة هذه الأمور وغيرها دراسة خصبه ثريَّة، بحيث يتَّضح أثرها في الإيقاع.

ومن أهمَّ ما يمكن الحديث عنه في الموسيقى الدَّاخلية التي تظهر بشكل جليّ في شعر ابن حبيب، وقد ساعدت عدَّة أسباب على ذلك: أبرزها أنَّ غالبية شعره على شكل مقطوعات، وقد أدَّت الموسيقى دورًا رئيسًا في إبراز خصائصها، يضاف إلى ذلك وضوح لغته الشعريَّة واختياره للكلمات السَّهلة البسيطة ذات الجرس الموسيقي العذب، فكان دائم البحث عن الكلمات الرقيقة التي تناسب موضوع المقطوعة أو القصيدة، فضلًا عن استخدامه للطَّباق، والجناس بأنواعه، وتكراره لبعض الحروف والكلمات، وكذلك تلاعبه بالألفاظ، وهذا كلُّه ساهم بشكل أو بآخر في تشكيل الموسيقى الدَّاخلية وإبرازها.

وعند الحديث عن أبرز مظاهر الجمال التي أكسبت شعر ابن حبيب ومقطوعاته نغمة موسيقيَّة عذبة، لا بدَّ من الإشارة إلى التَّصريح⁽¹⁾، وأثره في الإيقاع الموسيقيّ في شعره، إذ استخدمه كثيرًا في مطالع بعض قصائده ومقطوعاته، وهذا يُعدُّ نوعًا من الإبداع في تنويع الإيقاع الموسيقيّ. ومن الأمثلة على ذلك قوله⁽²⁾: [الكامل]

يا مَنْ لَهُ الرُّتْبُ العليَّةُ والحَسَبُ يا مَنْ حوى شرفَ المغارسِ والنَّسبِ
وقوله⁽³⁾: [البسيط]

بدرٌ مُحيِّاهُ رَدَّ البدرَ مبهوتا والنَّشْرُ منه أعادَ المسكَ مفتوتا

(1) التَّصريح: هو أن يقصد الشاعر لتصبير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة كمقطع المصراع الثاني. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها 246/2.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 53.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 71.

ويستخدم الشاعر الألفاظ التي لها وقع خاص في حسن التقسيم الموسيقي ، كأن تكون جملة متساوية، مكوّنة من كلمتين، وكأنّها مُفصّلة على نحو دقيق، كقوله في الحديث عن صفات الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، وإن كانت تقترب من الأسلوب النثري⁽¹⁾. [المتقارب]

جميلُ الصّفاتِ، جزيلُ الصّلاتِ	غزيرُ الهباتِ، كثيرُ الأدبِ
بديعُ الجمالِ، رفيعُ المنالِ	عديمُ المثالِ، عظيمُ الحسبِ
مليحُ الشّمايلِ بادي السّنا	بسيطُ الأنامِلِ عالي الرّتبِ

ولا يخفى على أحد ما لتكرار الكلمات من عظيم الأثر في البناء الموسيقي، وقد أشارت الباحثة إلى ذلك سابقاً، فلا داعي لإعادة الحديث عنه في هذا المقام. ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنّ الإيقاع الشعري قد قلّت حدّته لدى ابن حبيب، بحيث غلبت النثريّة على بعض مقطوعاته، وبخاصّة نظمه في المديح النبويّ الذي ركّز فيه على تعداد مناقب النّبي، عليه السّلام، والحديث عن معجزاته، وغزواته، وأخباره، فجاءت أشعاره خافتة الجرس، بطيئة الإيقاع، فلا يشعر القارئ أنّه يقرأ شعراً ذا جرس موسيقيّ، وإنّما يقرأ نثراً معقوداً شعراً.

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالدراسة والاهتمام، وهي أنّ ابن حبيب أغرق بشكل ملحوظ في توظيف الجناس، وألزم نفسه نهايات أبيات كثير من مقطوعاته بتكرير حروف بعينها، ولا شكّ في أنّ للجناس أثراً كبيراً في إحداث نوع من الانسجام الصّوتي في القصيدة، غير أنّه أفرط في توظيفه بشكل ملحوظ. ومن الأمثلة على التزامه بحروف بعينها في خواتيم الأبيات، قوله ملتزماً بحروف العين والهاء والالف⁽²⁾: [الكامل]

سُبْحانَ مَنْ جُمِعَتْ غرائبُ حُكْمِهِ	في الوحشِ من ضبابِها وضباعِها
أجرى المياهِ على الفلاةِ لترتوي	منها جهاتِ بقاعِها ونقاعِها
أو ما ترى الشمسَ المنيرةَ أبرزتْ	أبريزها ينسابُ ضمّن شعاعِها
مَجْدُ مُسَخَّرِها، وعَظْمُ شأنِها	لتفورَ في جنّاتِها بمتاعِها
واحدُ من الدنيا الدنيّةِ إنْها	ليستْ مفارقةً قبيحِ طباعِها

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص53.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص160.

وتجدر الإشارة إلى توظيف ابن حبيب "لاكتفاء"⁽¹⁾ وهو أدخل في باب موسيقى الشعر منه

في باب الأسلوب، والشاعر يستخدم أسلوب الاكتفاء، فيحقق به للمعنى ثراءً ربّما لا يتحقق بغيره. ومن

الأمثلة على ذلك قوله⁽²⁾: [الكامل]

لله درُّ فوارسٍ كم أقبلوا نحو الحروب، ونافسوا في وصلها
قومٌ إذا دخلوا معالمَ قريّةٍ لِعَدَاتِهِمْ، جعلوا أعزّةً أهلها

يلاحظ في الفيالبيت الثاني الاكتفاء، والاقْتباس من الآية 34 في سورة النمل، وتَمام الاكتفاء

"أذلة".

وكذلك قوله⁽³⁾: [الرمل]

وَفدُ عبد القيس يا بُشْرَاكُم بامتثال الأمر من خير الأنام
قد أَعَدَّتْ جُنَّةُ الخُدِّ لَكُمْ وسَلِمْتُمْ، فادخلوها بِسَلَام

وفي البيت الثاني يلاحظ الاكتفاء، والاقْتباس بالإشارة من سورة الحجر، الآية 46، وتَمام

الاكتفاء: "آمنين".

وقال أيضاً⁽⁴⁾: [الرجز]

أفديه غصناً ناظراً عن شائمي برق ثناياه انثنى ومالا
ذا ناظرٍ يفعل في العشاق ما يجوز في شرع الهوى وما لا

وقع الاكتفاء في البيت الثاني، وتَمامه: "وما لا يجوز".

(1) **الاكتفاء:** هو أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر، وقافيته متعلّقةً بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه، ويكتفى بما هو معلوم في الذهن فيما يتقتضي تمام المعنى. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها 286/1.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 191.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 207.

(4) ابن حبيب، ديوانه، ص 266.

ويحدث التكرار جرساً موسيقياً جميلاً، وبخاصةً إلى ما اتّصل بالقافية، فابن حبيب يُكرّر القافية مرّتين، مُحدثاً نوعاً من الصّدى ورجع الصّوت، كما يضيف الجناس في البيت الثالث إلى ذلك موسيقى رقيقة، وذلك في قوله⁽¹⁾: [الكامل]

مِيلَاءُ مَا لِلْغَصْنِ قَوْمَهَا جِيداً، وَأَيْنَ الظَّبْيِ مِنْ لَفَاتِهَا
تُسَبِّى الْقُلُوبُ بِسِحْرِ بَابِلِ طَرْفَهَا وَتُجْرَدُ الْأَسْيَافُ مِنْ لِحَظَاتِهَا
لِللَّهِ أَيْ لِمَا وَاحِظٍ غَلَابَةً لِلْأَسَدِ فِي وَثْبَاتِهَا وَثْبَاتِهَا

ويقول في مقطوعة أخرى حال وفاة الثّوين أرتنا بن صاحب الرّوم إذ أحدث تكرار الاسم جرساً

موسيقياً ممزوجاً بترداد الصّدى: ⁽²⁾ [المتقارب]

لَحَى اللَّهُ دَهْرًا شَدِيدَ السُّطَا حَوَادِثُهُ بِظَبَاهَا فَرْتَنَا
وَبَعْدَ الْقَصُورِ وَنَيْلِ السُّرُورِ رِ بِسَجْنِ الْقُبُورِ أَرْتَنَا أَرْتَنَا

واستخدم الأسلوب نفسه في رثاء محمد بن نبهان الجبريني، بقوله: ⁽³⁾ [الطويل]

إِلَى حَلْبِ يَمِّمْ وَعَرَجِ مَبَادِرَا لَجْبَرِينَ، فَالْمَلْحُودُ فِيهَا لَهُ شَانُ
وَلِيَّ عَلَقٌ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْبَدَا إِلَى أَنْ مَضَى تَلْقَاهُ رُوحٌ وَرِيحَانُ
يُقَالُ لَهُ نَبْهَانُ، أَكْرَمَ بِهِ فَتَى بِمَنْزِلَةِ غَيْثِ الْكَرَامَاتِ هَتَّانُ
وَمَنْ نَسَلِهِ فِيهَا أَقَامَ مُحَمَّدٌ لِبِذْلِ قِرَى يَتْلُوهُ حُسْنٌ وَإِحْسَانُ
تَقِيٌّ، نَقِيٌّ، صَالِحٌ وَمَتَوَرِّعٌ زَكِيٌّ لَهُ عَرْفٌ زَكِيٌّ وَعِرْفَانُ
أَرَاكُمُ نَفُوسَ الْوَرَى مُسْتَرِيحَةً وَخَاطِرُ فِي خِدْمَةِ النَّاسِ تَعْبَانُ
وَكَمْ فِي دُجَى لَيْلِ التَّهْجُدِ أَعْيُنُ مِنَ الْقَوْمِ نَامَتْ، وَابْنُ نَبْهَانَ نَبْهَانَ

(1) ابن حبيب، ديوانه، ص 74-75.

(2) ابن حبيب، ديوانه، ص 217.

(3) ابن حبيب، ديوانه، ص 219-220.

الخاتمة

أبرز النتائج التي توصلت إليها الباحثة بعد دراستها لشعر ابن حبيب الحلبي:

1. نظم ابن حبيب في أغراض وموضوعاتٍ مختلفة، بالإشارة إلى أن نسب الأغراض الشعريّة تتفاوت، فأغلب شعره في المديح النبويّ، وقد اتخذ المديح النبويّ عنده شكلين: المقطوعات القصيرة التي لا تتعدّى ثلاثة أبيات، والقصائد الطويلة وهي المدائح النبويّة، ونلاحظ أن قسماً من مقطوعات الشعر الديني قاله الشاعر وهو في طريقه إلى الحجاز، ويكادُ هذا القسم أن يكون تسجيلاً لوقائع الرحلة الحجازيّة، وذكر أسماء الأماكن التي يرتحلون منها أو يمرون بها.
2. ابن حبيب شاعر واسع الاطلاع على التراث الأدبيّ، وهذا ما نلاحظه في شعره بشكل كبير، فكثير من ألفاظ شعره ومعانيه مستوحاة من لغة الشعراء القدماء، ولا يختلف الحال بالنسبة لصوره وأخيلته وموسيقاه، ومما يدلّ على هذا كثرة تضمه من التراث العربيّ، واقتباساته من القرآن الكريم، وقد أبدع في نقل الصورة إلى سياق جديد مبتكر بحيث تلائم الموضوع الذي ينظم فيه.
3. من الظواهر العامّة أن معظم قصائد الديوان مؤرّخة، فهي تُعدّ وثيقة تاريخيّة سجّل فيها أبرز الأحداث التي عايشها، ونقل لنا من خلالها صورة للأحداث السياسيّة، والحياة الفكريّة، والاجتماعيّة، فهي ترسم صورة واضحة لطبيعة الظروف التي مرّ بها العباد من كوارث طبيعيّة كالزلازل، وأخرى من صنع يد الإنسان كالحرائق، وأشار إلى تفشّي الأمراض وغلاء الأسعار وغيرها من الحوادث الاجتماعيّة.
4. من الظواهر الأسلوبية اللافتة للنظر في شعره أن خواتيم المقطوعات يأتي فيها الاسم موافقاً للشخص الممدوح أو المرثي.

5. هناك ظاهرة فنيّة نلحظها في شعر ابن حبيب، وهو أنّه يختتم كثيرًا من مقطوعاته بالاسم الذي بدأ به، فهو يكرّر الكلمة التي ذكرها في مستهلّ الشّطر الأوّل في مصراع البيت، ويكرّرها في عجز البيت الأخير من مقطوعته.

6. معظم أشعاره جاءت على شكل مقطوعات. وله عدد لا بأس به من الموشّحات والقصائد الطّوال.

7. ممّا يؤخذ على شاعرنا ولعه بالمحسنّات البديعيّة ولا سيّما الجناس.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- القرآن الكريم
- ابن الأثير الكاتب، نصر الدين بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، 1375هـ.
- ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر (1-5). تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية، 1399هـ-1979م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور (1-5). حققه: د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1982م.
- بروكلمان، كارل (ت1956م)، تاريخ الأدب العربي (1-10). (القسم السادس)، ترجمة: محمود فهمي حجازي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م.
- البغدادي، إسماعيل باشا (ت1920م)، هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين. إستانبول: وكالة المعارف الجلية، 1955م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت874هـ)، المنهل الصافي (1-13). (ج2) حققه: د. محمد محمد أمين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (1-16). القاهرة: طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2008م.
- التهانوي، محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون. تحقيق: علي دحروج، تقديم وإشراف: رفيق العجم، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، بيروت: مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1996م.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، 1416هـ-1996م.
- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات. تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ.
- ابن جعفر، قدامة (ت337هـ)، نقد الشعر. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.).
- ابن حبان، محمد بن حبان (ت354هـ)، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، (د.ت.).
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت852هـ)، إنباء الغمر بأبناء العمر (1-4). تحقيق: د. حسن حبشي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (ج1) القاهرة، 1418هـ-1998م. (ج2) 1415هـ-1994م. (ج3) 1415هـ-1994م. (ج4) 1419هـ-1998م.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. والذيل (1-5)، ضبطه وصححه: الشيخ عبد الوارث محمد علي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ-1997م.
- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت779هـ)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (1-3). حققه: د. محمد محمد أمين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، (ج1) 1976م. (ج2) 1982م. (ج3) 1986م.
- ابن حجة الحوي، تقي الدين علي بن حجة (ت837هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب (1-2). شرح عصام شعيتو، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط2، 1991م.

- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت779هـ)، **درة الأسلاك في دولة الأتراك (1-2)**. حققه ووضع حواشيه: أ.د. محمد محمد أمين، القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 1435هـ-2014م.
- = نسخة مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية برقم (26170).
- = نسخة مخطوطة في مكتبة يني جامع، برقم(789).
- = نسخة مخطوطة في مكتبة (بودليانا) بريطانيا برقم(890).
- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت779هـ)، **ديوان الشذور**. تحقيق: الأستاذ الدكتور حسن عبد الهادي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2019م.
- ابن حبيب الحلبي، الحسن بن عمر (ت779هـ)، **المنتقى من درة الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشهباء**. تحقيق: عبد الجبار زكار، تقديم: أ.د. سهيل زكار، دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، ط1، 1420هـ-1999م.
- ابن حبيب الحلبي، الحسن بن عمر (ت779هـ)، **نسيم الصبا**. حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، حلب: دار القلم العربي، مطبعة الصباح، دمشق، 1413هـ-1993م.
- الحلبي، صفي الدين (ت750هـ)، **ديوان المثلث والمثاني في المعالي والمعاني**. تحقيق: محمد طاهر الحمصي، دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1419هـ-1998م.
- خليفة، حاجي (ت1067هـ)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (1-6)**. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ-1999م.
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، ط5، 1401هـ-1981م.
- ابن الرُّومي، علي بن العباس (ت283هـ)، **الديوان**. تحقيق: د. حسن نصار، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1978م.

- الزركشي، بدر الدين (794هـ)، **عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان**. مخطوط في مكتبة الفاتح، تركيا، السلمانية برقم(4434).
- الزركلي، خير الدين (ت1976م)، **الأعلام (8-1)**. خير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط14، 1999م.
- زيدان، جرجي، **تاريخ آداب اللغة العربية (4-1)**. علق عليه: د. شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، (د.ت).
- سبط ابن العجمي، موفق الدين أحمد (ت884هـ)، **كنوز الذهب في تاريخ حلب (1-2)**. تحقيق: شوقي شعث، وفالح البكور، حلب: دار القلم العربي، ط1، 1417هـ.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ)، **طبقات الشافعية الكبرى (1-6)**. تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1420هـ-1999م.
- ابن شداد، **عنتره، ديوان عنتره**. تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، القاهرة: المكتب الإسلامي، 1970م.
- الصَّفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ)، **ألحان السواجم بين البادي والمراجع (1-4)**. تحقيق: محمد عايش، بيروت، دار الكتب، العلمية، ط1، 2007م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ)، **الروض الباسم والعرف الناسم**. دراسة وتحقيق: محمد عبد المجيد لاشين، القاهرة: دار الآفاق العربية، ط1، 1425هـ-2005م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ)، **الوافي بالوفيات (ج12)**. باعثناء: د. رمضان عبد التواب، شتوتغارت، فرانز شتاينر - شتوتغارت، مطابع دار صادر - بيروت، 1412هـ-1992م.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ)، **الغيث المسجم في شرح لامية العجم**. بيروت: دار الكتب العلميّة، ط2، 1411هـ-1990م.
- عبد الهادي، حسن محمد، ديوان الإمام المؤرخ ابن حبيب الحلبي (ت779هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1439هـ-2018م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت395هـ)، **الصناعتين**. تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، 1406هـ-1986م.
- ابن عصفور، علي بن مؤمن (ت663هـ)، **ضرائر الشعر**. وضع الحواشي خليل عمران المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1999م.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب (1-8)**. بيروت: دار المسيرة، ط2، 1399هـ-1979م.
- العيني، بدر الدين (ت855هـ)، **المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية (3-1)** المشهور ب**شرح الشواهد الكبرى**. تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1426هـ-2005م.
- الغزي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، **ديوان الإسلام (4-1)**. تحقيق: سيد حسن كسروي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ-1990م.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد (ت749هـ)، **ذهبية العصر**. عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، الكويت، بيروت: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، مكتبة ومركز فهد بن محمد نايف الدبوس للتراث الأدبي، ط1، 1432هـ-2011م.
- الفيروزآبادي (ت817هـ)، **القاموس المحيط**. تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط6، 1968م.

- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر (ت851هـ)، **طبقات الفقهاء الشافعية (1-2)**. تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت).
- القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد، **الإيضاح في علوم البلاغة**. بيروت: دار إحياء العلوم، ط4، 1998م.
- المتنبّي، أحمد بن الحسين، الديوان، **شرح عبد الرحمن البرقوقي**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.
- ابن المعتز، عبد الله، **ديوان شعر ابن المعتز (3-1)**. صنعة: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، تحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، بيروت: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ-1997م.
- المقرئزي، أحمد بن علي (ت845هـ)، **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة (1-4)**. حققه وعلق عليه: محمود الجليلي. بيروت: منشورات دار الغرب الإسلامي، ط1، 1423هـ-2002م.
- الوأواء الدمشقي، محمد بن أحمد، **الديوان**. عني بنشره وتحقيقه ووضع فهرسه: سامي الدهان، بيروت: دار صادر، ط2، 1414هـ-1993م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت749هـ)، **الديوان**. وعلق عليه وجمع ملحقة: أحمد فوزي الهيب، الكويت: دار القلم، ط1، 1407هـ-1986م.

ثانياً: المراجع

- أمين، أحمد، **ظهر الإسلام (4-1)**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.
- أمين، فوزي محمد، **أدب العصر المملوكي الأول**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2003م.

- باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط1، 1989م.
- باشا، عمر موسى، ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق. القاهرة: دار المعارف، ط3، (د.ت).
- بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1964م.
- الجمال، أحمد صادق، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي. القاهرة: الدار القومية للطباعة، 1385هـ-1966م.
- سليم، حسن عبد الرحيم، فنّ الغزل في الشعر المملوكي. القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2006م.
- سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك (8-1). (ج5)، القاهرة: مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، المطبعة النموذجية، 1374هـ-1955م. (ج6)، 1381هـ-1962م.
- سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي. الإسكندرية: منشأة المعارف، (د.ت).
- الشناوي، علي الغريب، الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي. القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2003م.
- الصايغ، هنرييت، اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام. رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، القاهرة، 1980م.
- عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي. القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
- عيد، صلاح، المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النبوة حتى البوصيري. القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2008م.

- الفقي، محمد كامل، الأدب العربي في العصر المملوكي. مصر: دار الموقف العربي، ط3، 1984م.
- القط، عبد القادر، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر. القاهرة: مكتبة الشباب، 1988م.
- قلقيلة، عبده عبد العزيز، النقد الأدبي في العصر المملوكي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1972م.
- محمد، محمود سالم، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي. دمشق: دار الفكر، ط1، 1417هـ.
- محمد، محمود سالم، وآخر، الأدب في العصر المملوكي. دمشق: منشورات جامعة دمشق، 2017م.
- ناصف، مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1981م.
- الهيب، أحمد فوزي، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1406هـ-1986م.

فهرس المحتويات

الإهداء.....	
إقرار..... أ	
الشكر والتقدير..... ب	
الملخص باللغة العربية..... ت	
الملخص باللغة الانجليزية..... ث	
المقدمة..... 1	
الفصل الأول: سيرة ابن حبيب الحلبي..... 4	
أولاً: اسمه..... 4	
ثانياً: نسبه مولده..... 4	
ثالثاً: صفاته..... 5	
رابعاً: أسرته..... 5	
خامساً: شيوخه..... 6	
سادساً: رحلاته..... 14	
1. رحلة إلى دمشق..... 14	
2. رحلتان إلى الحجاز..... 14	
3. رحلة إلى القاهرة..... 15	
4. رحلة إلى القدس الشريف..... 15	
5. رحلة إلى الإسكندرية..... 15	
6. رحلة إلى طرابلس..... 15	
سابعاً: وظائفه..... 16	
ثامناً: آثاره المخطوطة والمطبوعة..... 17	
أولاً: المؤلفات المخطوطة..... 17	
ثانياً: المطبوعة..... 21	
تاسعاً: صلته بمؤرخي عصره..... 24	
عاشراً: مكانته العلمية وآراء العلماء فيه..... 25	
وفاته:..... 28	

29.....	الدراسة الموضوعية
30.....	أولاً- المديح النبوي
30.....	1- المقدمة الغزلية
31.....	2- الشوق والحنين إلى الديار المقدسة وآثار النبي عليه السلام
32.....	3- المعجزات
35.....	4- مولده
36.....	5- الإشادة بنسبه الشريف
37.....	6- صفاته
41.....	7- لزوم محبته النبي صلى الله عليه وسلم
42.....	8- الحديث عن الشفاعة
43.....	ثانياً- المديح
50.....	ثالثاً- الرثاء
50.....	1- رثاء الأهل
51.....	2- رثاء الملوك والأمراء
53.....	3- رثاء الثواب من رجال الدولة
54.....	4- رثاء أهل العلم والأدب
59.....	رابعاً- الإخوانيات
64.....	خامساً- الوصف
64.....	1- وصف الطبيعة
73.....	2- وصف المدن ومظاهر العمران
79.....	3- وصف الكتب والدواوين
84.....	سادساً- الحوادث الاجتماعية والكوارث
84.....	1- الطاعون
86.....	2- السُّيول
87.....	3- الحرائق
89.....	4- الوقائع والحروب
93.....	سابعاً- الغزل بالجمال الإنساني
94.....	1- العيون وما يتصل بها
97.....	2- الخدود والتَّغْر
100.....	3- الشُّعر

101	4- الوجه.....
102	5- القدُّ والرِّدْف.....
104	ثامناً: الغزل.....
108	تاسعاً-الخمريّات.....
112	عاشراً-الرُّهد.....
116	الاتِّجاهات التَّجديديَّة.....
116	1. الغزل بالغلّمان المُعدِّرين.....
119	2. وصف اللِّباس.....
120	3. الغزل بأرباب المهن والصَّنائع.....
123	4. الغزل بالأسماء.....
126	5. وصف الألقاب.....
128	6. وصف الجوّاري.....

130..... الفصل الثَّاني: الدِّراسة الفنِّيَّة لشعر ابن حبيب الحلبي.....

131	1- اللُّغة.....
134	الضَّرورات الشعريَّة.....
137	2. الأسلوب.....
137	1. السُّهولة.....
137	2. كثرة المقطَّعات.....
138	3. المُحسنات البديعيَّة.....
139	أ) النُّضمين.....
141	ب) النُّورية.....
143	ت) الطِّباق.....
145	ث) الجناس.....
150	4. أمور أخرى.....
150	أ) الاقتباس.....
153	ب) الحوار.....
154	ت) التَّوجيه.....
156	ث) التَّكرار.....
160	ج) التَّشديد.....

160	3. الصورة الشعريّة
167	أولاً: الصورة الحسيّة
169	ثانياً: الصورة الشّمّيّة
169	ثالثاً: الصورة اللّونيّة
171	رابعاً: الصورة السّمعيّة
173	4. الموسيقى
179	الخاتمة
181	ثبت المصادر والمراجع
181	أولاً: المصادر
186	ثانياً: المراجع